

Princeton University Library



32101 076415700

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

كِتَابُ
مِيزَانِ الزَّمَانِ

تَأْلِيفُ

الأب يوحنا اوسابيوس نيرمبرك اليسوعي

IMPRIMATUR

† F. LUDOVICUS ARCH. SIUN.

كِتَابُ مِيزَانِ الزَّمَانِ

تأليف

الأب يوحنا اوسابيوس نيرمبرك اليسوعي

واستخرجه من اللغة الايطالية الى اللغة العربية الاب بطرس فوماج اليسوعي
للمسل الرسولي في سوريا

طبعة ثانية مصححة



بمطبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت

١٨٨٣

بسم الاب والابن والروح القدس
الاله الواحد

الحمد لله الذي منح الانسان ميزان الحكم العقلي لادراك صحة
الاوزان . وأمدّه بنور المعرفة والبرهان الجليّ ليفرق بين عظمة
الامور الابدية وخساسة اشياء هذا الزمان . حمداً يعصمنا عن الضلالة
والزيفان . فيما يتخيّر بين ربح وخسران ورجحان ونتصان . ويرفعنا باعتبار
الامور الابدية من حضيض الاشياء الزمنية الى اوج الجنان . ويكسونا
رداء المحبة ويسر بلنا بنطاق الرجاء بنور الايمان آمين

وبعدّه فانه لما كان اجلّ ما يعتبر في إصلاح حياة الانسان . وافضل
ما يلزم لصونه من الضلال والخطاء والطغيان . معرفة ما بين الاشياء
الزمنية والاشياء الابدية من البون . وعلى هذه المعرفة قد تأسس احتقار
اولياء الله جميع ما يتعلق بهذه الحياة وهذه الحياة عينها . واعتبارهم ما
يختص بالحياة الاخرى والاشياء الابدية الفضلى . وبناءً على هذه المعرفة
حكم الاباء المجاهدون . والشهداء والمعترفون . والنساك والصديقون .
باحترار كل ما هو زائل مع الزمن . واعتبار كل ما هو ثابت الى الابد .
وجب لذلك ان يُوضع افادة للشعب المؤمن اولاً هذا الكتاب الجليل .
المُسمّى بميزان الزمان وقسطاس ابدية الانسان . لتضمّنه ايضاح هذه
المعرفة الضرورية جدّاً التنبيه كثيرين من الذين لا يفتمكرون في ماهية
الامور الابدية . ولا ينتبهون ايضاً الى بطلان الاشياء الزمنية . فدونكه

ايها المؤمن الحبيب إنه بمنزلة منبه ضروري يصونك من الضلالة
والانخداع فيما تلتزم بممارسته والتصرف به من الامور العالمية ويقتضيه
خلاصك وغايتك السعيدة من اعتبار الامور السماوية . فقد حوى من
المضامين الموثرة ما ثبت ببرهان التوكيد والتحقيق . ومن الاخبار الرهيبة
المرعبة ما أيدته أدلة عهود التصديق . فهو الدرّة التي يجب ان يُباع ما
سواها لتبتاع . ويُهمل ما دونها لتذاع . وانه لأربح تجارة للخاطيء في
دعوته وعودته . وانهج طريق لتتاب في نموه بكمال توبته



٦
المقدمة

في مؤلف هذا الكتاب والكشف عن دعوته وقداسته سيرته

اعلم ان مؤلف هذا الكتاب هو راهب يسوعي يدعى يوحنا اوسايوس نيرمبرك وهذا قد ولد في بلاد اسبانيا من والدين نمساويين سنة الف وخمسة وتسعين للتجسد الالهي . واذ بلغ من العمر اربعا وعشرين سنة دخل الرهبانية اليسوعية سنة الف وستمئة واربعة عشر للمسيح . وسبب دخوله هذه الرهبانية أنه لما قصد السلوك في طريق الكمال المسيحي وحسن العبادة التجأ الى والدة الله المجيدة التي كان مخلصاً لها العبادة العظمى طالباً من مرشدته الالهية ان تهديه للطريق التي تريد ان يسلكها . فاستجابت البتول الطوباوية دعاه وشارت اليه بخطاب سري شعريه باطناً ان ترهب في الرهبانية الملقبة باسم ابني القدوس . تلك ارادة الله بك . فقصد الرهبانية المذكورة وقبل في دير المبتدئين

غير ان الروح الشرياذ راى في حقل الرب هذا الزرع الجيد افرغ كل جهده وجده في استئصاله وقلعه . وذلك ان ابا اوسايوس المذكور لما علم برهب ابنه . التجأ حالاً الى اكابر الدولة وحكام المملكة والى قاصد الخبر الاعظم . مدعياً بان الرهبان اليسوعيين غرّوا ابنه واجتذبه الى رهبانيتهم مكرراً وتحيلاً . فامر قاصد البابا بان يرجع اوسايوس الى بيت ابيه ريثما ينقح عن حقيقة دعوته . فعاد المبتدئ الى بيت ابيه . وأخذ حينئذ ابواه يخاطبانه ويُغريانه بكل ما تستطيع ان

تقترحه المحبة الطبيعية . ليلينا بذلك قلبه ويعطفاه الى قبول طلبتهما . بل تضرعا اليه بدمع سخين ألا يعجل بالموت عليهما بترهيه . ثم كشفاله عن إرثه الوافر والرتب العالمية السامية المعدة له إن مكث في العالم . غير ان هذه الامور جميعها لم تؤثر في قلبه . ولم تعطفه أصلاً عن قصده . فلما رأى ابواه أن عملهما حبط وقصدهما لم ينبج وتحققا ان دعوته من الله هي . ارتضيا بها وبانضمامها عاد اوسابيوس الى دير المبتدئين

وحينئذ شرع يمارس رياضات الرهبانية بنشاطٍ عظيم ولا سيما رياضات احتقار النفس . وقد حدم طمعاً باكتساب هذه الفضيلة طباطخ الدير اربعة عشر شهراً في احقر امور حرفته لابساً ثياباً رثة مكشوف الرأس واذا خرج الى المدينة لبيتاع لوازم حرفته جعل على راسه غطاءً حقيراً . وكان الرئيس قد امره بالطاعة لاحد المبتدئين . فهذا اوصى يوماً اوسابيوس بالآيتكلم من دون الاستحازة منه . فلبث المجاهد عشرين يوماً صامتاً لا ينطق بكلمة الا في اعترافه . فبعد مرور سنتي التجربة . نذر النذور الرهبانية وأرسل الى المدرسة ليتمهر في العلوم الفلسفية واللاهوتية وقارن اجتهاده في اكتسابها رغبةً جزيئة وشوق مبرح الى اكتساب الفضائل . وذلك بممارسة رياضات الصلاة العقلية والامانات . لانه في كل مدة اقامته في المدرسة كان يصرف كل يوم في الصلاة العقلية اربع ساعات . اما لما انقضت هذه المدة فنحصر لهذه الرياضة كل يوم سبع ساعات ولم يكن ينام سوى ثلث ساعات او اربع غير مصّجم على

فراش ومع تمادي الزمان كان يقصر ايضاً من نومه هذا القليل . حتى غدا لا يرقد سوى ساعتين او ثلث ساعات لا غير . ولم يكتفِ بذلك بل زاد عليه تمشقات شديدة صارمة . فكان يجلد جسده النقيَّ بحبال ذات اشواك حديدية . ومرات كثيرة كان يلبس المسح . ويضع على صدره وساعديه وباقي اعضاء جسده سلاسل حديدية ذات اشواك . وكان يضع في احدتيه تحت رجليه حصاً رفيعة قصدهُ بذلك ان يشعر في كل دقيقة بالمِ ماء . وكان يواظب على الصوم في بيرامونات اعياد العذراء المحميدة كلها ويقتصر من الماكل والمشرب على الحُبز والماء . وكانت قساوته نحو نفسه لا تمنعه عن ان يُبدي للجميع حسن الموانسة والحلم

وقد درّس في المدارس سبع عشرة سنة العلوم الطبيعية واللاهوتية . وكان طلبةٌ كثيرون يلتجئون اليه ويسترشدونه في تدبير انفسهم . وكانت الحكام والاساقفة ايضاً يقصدونه طلباً للرشد وكانت الملكة نفسها تنتدبهُ لذلك . ومرات كثيرة كان يطوف الجبال والقرى ليعلم المساكين . ومن اعجب الامور انه مع هذه الرياضات المتصلة الشاقة والاشغال المتفاقمة المترائدة . استطاع ان يؤلف واحد وخمسين كتاباً في كل نوعٍ من انواع العلوم . ومن ثم زعم قوم ان العلوم منحت له من الله بفيض خصوصي . فبعد هذه الجهادات والاعاب جميعها . احب الله ان يخص عبده ويبتليه ويزيد فضائله كما لا يبارض الية احتمالها بصبر عجيب مدة ست عشرة سنة قبل موته المقدس واستأثر الله به في سنة

الف وستائة وثمان وخمسين للتجسد الالهي . وقد ذكر المورّخون اشياء كثيرة فائقة الطبيعة شرف الله بها عبده المذكور في حياته وبعد مماته ايضاً ونحن نسأل الله الذي منّ علينا بهذه النعمة الخارجة . اعني بها تعليم هذا المعلم النبيل الفضيل . ان يمن علينا ايضاً في حالة قرآته بنعمة اخرى باطنة تجعله مثراً فينا الثمار المقصودة به ثمار الزهادة في الاشياء الدنيوية . والجد في اكتساب الخيرات الروحية والسموية . حتى اذا ما اتينا بهذه الثمار المفيدة . يكون للمؤلف المذكور تضاعف الثواب العظيم . ولنا شركة الحظ الوسيم . بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد الى الابد آمين



المقالة الاولى

في التمييز ما بين الزمني والابدئي وهي ثلاثة عشر فصلاً

الفصل الاول

في الزمني والابدئي

انه لكي نُحسِّن استعمال الاشياء ونتصرف بها على حسب الحكمة والصواب . يجب ان يتقدم الحكم بالحكم الواجب عليها وان نسبق ونعرفها بموجب ذلك الحكم . والحال ان معرفتنا الاشياء في هذا المسكن الارضي هي ناقصة جداً وهيئات أن تبلغ الى المسكن السماوي الابدئي الذي قد خلقنا لاجله . ومن ثم فلا تعجب إن لم نعقل الا قليلاً جداً الاشياء المتباعدة من الحس البشري بعداً عظيماً . ونعلم علماً يقيناً اننا نظراً الى الاشياء الزمنية نفسها العلى جهل جسم وعلى بصائرنا للحجاب غليظ . فكيف اذاً يمكننا ان ندرك امور الآخرة ان كنا لانعقل هذه التي نحن متصرفون بها ومتقلبون فيها وبينها . فالسبب الذي من اجله ينبغي الانسان بافراط الرغبة والانهماك الغنى والتنعم والكرامات وبقية خيرات الارض هو لانه لا يعقلها . على ان العالم كما قال حسناً وصواباً القديس بطرس الرسول للقديس اكليمنضوس الحبر الروماني يشبه مسكناً مفعماً دخاناً . فكما ان الذي يسكن في مسكن هذه صفته لا يبصر ما هو خارجه ولا ما هو داخله لما يحول بين نظره وبين تلك الاشياء من الدخان . كذلك من يستوطنون هذا العالم . فانهم لا يعلمون ما هو داخل العالم ولا ما هو خارج عنه .

فلا يحيطون علماً باتساع الأبدية الغير المحدود ولا بحقارة الأشياء الزمنية .
وهكذا يجهلون الأشياء السماوية والأشياء الأرضية على حدٍ سوى . واذ
لم يفتقروا على حقيقة الأمور فتراهم يغيرون موازين حكمهم العقلي فيزنون
الأشياء الأبدية بميزان الأشياء الزمنية ويشتمون الأشياء السماوية الراهنة
بشتم الأشياء الأرضية الزائلة . وهذا الضلال الفظيع قد لحظه جيداً وأشار
إليه حسناً القديس غريغوريوس المعظم إذ شفق على جهل الناس الذين
يعدون منفي هذه الحياة وطناً ويجعلون ظلام الحكمة الكاذبة نوراً
ويحتسبون هذه الغربة العابرة مسكناً ثابتاً ومن ثم يعتبرون الشر خيراً
والخير شراً

ان الملك والنبي داود طلب الى الله ان يمنحه معلماً يعرفه ما هي
الخيرات الحقيقية قائلاً : من يرينا الخيرات . وانما قال هذا لانه لم يجد
احداً يعرف لا العالم ولا الخيرات التي فيه ولا الموجودة تحت يده . وقد
يتم بالاكثرين ما قيل عن الاسرائيليين انهم كانوا مالكيين المن
وحاملين في ايديهم وناظرين اليه باعينهم ومع ذلك فلم يكونوا يعرفون ما
هو المن . وكانوا يسألون عنه مستهيمين قائلين ما هو . فها نحن على اسواء
حال منهم . وذلك لاننا مثلهم لا نبحث ولا نستفهم . فليت شعري من
ذا الذي يسأل ما هو الغنى الذي من اجل اكتسابه يرمي الناس بانفسهم
في الوف الوف من مخاطر الموت . وما هذه المراتب والوظائف التي
تُوعب قلوب البشر عجباً وحسداً هذا مقدارها . وما هذه اللذات

التي من اجلها تخل الانام اجسادهم ويفنون حياتهم ويقصرونها . ماهي هذه الخيرات العالمية التي لا يمكننا ان نفوز بها الا في هذه الدنيا وتضمحل سريعاً حال ولو جئنا الاخرى . كما اضمحل المن وزال حينما دخل الاسرائليون ارض الميعاد . ولهذا دعاه السيد المسيح في سفر الرؤيا منماً مخفياً . لانه كان فيما بين ايدي العبرانيين ولم يعرفوه . فعلى هذا النحو نرى اشياء هذه الحياة محجوبة عن الحس حتى ولو اننا نلسمها بايدينا فمع ذلك لانعقادها ونبايل نظام ثمنها ونصنع لاجل الزمنيات ما كان ينبغي ان نفعله لاجل الابديات فنستعظم هذه ونستحقر تلك

فليفق اذا الانسان وينعم النظر ويعقل جيداً ما بين الاشياء الزمنية والاشياء الابدية من الخلاف والبون لكي يقدر الامور حق قدرها فيحقر ما يزول مع الزمن ويعتبر ما يدوم الى الابد . على ان هذه الابدية هي التي يجب علينا ان نبتغيها في زمن حياتنا هذه العابرة . لكي تكون لنا الزمنيات نفسها مدرجات مؤدية الى ادراك الابديات . والحال انه لمن المستحيل ان نفوز بهذا الغرض ان لم نعرف هذين الامرين اعني بهما الزمنيات والابديات . هذا وان ذلك المن المعطى للاسرائيليين قديماً حين كانوا في القفر متغربين كان رمزاً اداً لى على خيرات هذه الحياة التي نحن فيها متغربون . الى ان ننتهي الى ارض ميعاد السعادة الابدية التي نحن بها موعودون . ولذلك كان المن ينتن بالكلية ويتلاشى كما يحدث لاشياء هذا العالم كافة . ولم يكن يسلم من الفساد الا ما كانوا يلتقطونه بتصد

ان يحفظوه ليوم السبت الذي هو رمز المجد الابدي . فقد كانت نية
الebraيين هذه في التقاطهم اياه تقيه شر الفساد كما لحظ ذلك المعلم
القديم بلدونوس . فكم يجب علينا ان نرفع الحافظنا الى العلاء ونوجه نيتنا
الى الابديات لكي ننتفع من هذه الزمنيات . وباستعمالنا اياها نبلغ الى
الابديات . وهكذا نصير عظيمًا راهنًا ما هو حقير زائل
قد ذكر عن قوم من الفلاسفة الذين بحثوا عن هذه الحياة متغاضين
عن الحياة الابدية . انهم قد عثروا على نقائص كثيرة في هذه الحياة وقد
عين منها الملك واليروس انطونينوس الفيلسوف ثلثًا اي انها قصيرة
ومتغيرة وفاسدة . وهذه النقائص الثلث قد جاء عبارة صادقة عنها المن
الاسرائيلي لانه كان حبا صغيرًا جدًا كما يشهد به الكتاب المقدس .
وكان سريع التغيير والفساد . لانه بالنظر الى البعض كان يتسع
متخلاً . وبالنظر الى الآخرين كان يصغر متلزًا . وبالنظر الى الجميع كان
يزول سريعًا . ولم يكن يستقيم على صحته يوماً واحداً بل كان ينتن .
وزد على كل هذه الاعراض جزيل التعب الذي كان يقتضيه تناوله
واكله . لانه كان ينبغي اولاً ان يسحق في هاون بعناء عظيم الى ان
يصير ناعماً ثم يطبخ بتعب اخر . فهذه هي صورة خيرات هذه الحياة التي
لا يمكننا ان نحصل عليها ونتمتع بها الا بكدي وكدح جسم . فضلاً عن انه
لم يكن كل الاسرائيليين يستعدون المن ويذوقون فيه طعم ما كانوا
يرغبون . فإن فم الخطاة كان ينخدع في اكل المن . وهذا يعرض لنا

حينما تغير الرذيلة ذوقنا الروحي وتفسده كما سنورد ذلك فيما بعد . نعم
ان منظر المن كان جميلاً لانه على ما قال مفسر والكتاب المقدس كان
يشبه البلور المتلألئ وهذه الحال هي حال خيرات هذا العالم . لانها
تتلا لألامعة بخارجها الا انها بالحقيقة اسرع من الزجاج عطباً وهي كتور
كاذب تُبهر منه الاعين ويخدع الباصر . وتظهر لنا نحن المجتهدين في
طلبها كأنها خيرات عظيمة ابدية

فنهملن الظاهر ولنغادرن الوجه الخارج . ولنمغن النظر في جوهر
الاشياء وحقيقتها . فنجد هذه الخيرات الزمنية كلها شيئاً طفيفاً بل دون
الطفيف . وانها غير ثابتة لكنها عبارة زائلة . اما الخيرات الابدية فنجدها
راهنة باقية وعلى الاجمال نجدها ابدية ثابتة . وفي هذا قال القديس
غريغوريوس في الفصل الثاني عشر من كتابه في الادبيات . ان ما ليس
له نهاية هو عظيم بغير نهاية . وما له نهاية هو يسير

فلنبتدئ بازالة البرقع . ولنكشفن عن البون البعيد الذي بين
خيرات السماء وخيرات الارض من حيث ان هذه ابدية وتلك زمنية . ثم
بعد ذلك نتكلم عن خسارة كل خير زمني وعظمة الخير الابدي . ولعمري
انه لقد احسن فيما قال احد الفلاسفة : انه ليس شيء اوضح من النور
ولا يعتاض عنه . اذ قد توجد اشياء كثيرة تستبين للناس واضحة
وليست كذلك . ومن جملتها الزمن والابد . ولذلك سنبدل المجهود في
ايضاح هذين الشيين بواسطة نور الايمان وتعليم الاباء القديسين

الفصل الثاني

في ان التامل في الابدية جزيل الفاعلية

لتغيير السيرة واصلاحها

اعلم ان القديس اغوستينوس في تفسيره المزمور السادس والسبعين دعا التفكير في الابدية فكراً عظيماً . لان ذكر الابدية يورث القديسين فرحاً وابتهاجاً والخطة خوفاً وارتجافاً . وانما كلا الفريقين يجني من هذا التامل نفعاً بليغاً . فإن ذكر الابدية من شأنه ان يحث الانسان على ممارسة الافعال السامية واحتقار كل اشياء هذا العالم الخسيسة الفانية . فلهم اذا بنا لايضاح دناة الزمني وغروره وخساسته . ورسخ في ذهن المتامل صورة الابدية الذي يجب ان نحدق فيه نظرنا مع المرتل ونعلق به ذكرنا . فهذا هو الفكر الذي كان يخول النبي رعباً جسماً حينما كان خاطئاً . وهو الذي حصنه ونشطه الى النمو في القداسة حينما حصل قديساً . ومنه اي من فكر الابدية اجتني لنفسه فائدة لا توصف . ومن ثم تراه يكرر ذكره في ترنيم مزاميره مرات عديدة . لا ضمن مزاميره فقط حيث يورد كثيراً هذه الالفاظ : دواماً الى الابد ومن الدهر الى دهر الدهارين . بل في عنواناتها ايضاً . ومن ثم لم يكن عنده عنوان اكثر استعمالاً من هذا العنوان وهو الى الانتهاء او الى الانقضاء مشيراً بذلك الى الابدية والى انه في حين تأليفه هذه المزامير

كان يتأمل الابدية التي تلي هذه الحياة

فكان اذا النبي يتأمل الابدية ليلاً ونهاراً وهي التي كانت تضطره الى ان يرفع هتافه الى السماء والى الله . هي التي كانت تصيره اصم بين الناس وتجعل على اذنيه وقراً . هي التي كانت تجمد دمه وتخبّل مفاصله عن الحركة وترعد فرائضه . هي التي كانت تمزج له افسنتيناً مرّاً في مذاق لذات هذه الحياة . هي التي كانت تجعله ان يفحص ضميره ويواخذ به اشد المواخذة والتكسيل . واخيراً اقول ان تأمله الابدية رده الى التوبة بتغيير سيرته تعبيراً عجيباً . واضرم في قلبه نشاطاً عظيماً في العبادة . وجميع هذه العواطف الصادرة من ذكر الابدية تراها في المزمور السادس والسبعين حيث يفوه هكذا : سبقت عيناى فادركت المحارس اضطربت ولم اتكلم . ثم يورد حلاً لسبب ذلك قائلاً . تفكرت بالايام القديمة وتذكرت السنين الابدية . فهذا هو الذي صيره ان يسهر متواتراً بممارسة العبادة . هذا هو الذي كان يردده في عقله ليلاً ويستحضره في نخلته صباحاً ويكرره بعد ذلك مرات كثيرة . وقد كان هذا الفكر على نوع ما مبيحاً ومسمراً في عقله متردداً فيه اكثر من تردد انفاسه . وكان يهلع مرتجفاً عند تأمله هاتين القضيتين وهما ان حظي سيكون اما الهلاك الابدي في دركات جهنم اما السعادة الخالدة في ملكوت السماء

فلا يتعجب احد من ان مثل هذا الملك القديس المظفر كان يرتعد عند ترديده هذا الفكر العظيم في عقله . اذ ان حقوق النبي نفسه اعلن

ان اعلى منابك العالم تخني وترتجف عند النظر الى طريق الابدية .
 حيث انه يقول هكذا انحت اكام العالم من قبل مساعي ابدية (٦: ٣) .
 وقد ذكر عن القديس يواصف انه لما تصور في عقله من جهة الابدية
 في جهنم . ومن اخرى الابدية في السماء . خامره التخير واعتراه الذهول
 وخارت قوته ولم يقو على النهوض من فراشه . وصار كمن اضنكه مرض
 مستطيل . بل ان الفلاسفة الوثنيين انفسهم كانوا يرتجفون من فكر
 الابدية . ولما ارادوا ان يصورها استعمالوا رموزاً وتشابيه مخيفة مرهبة .
 فبعضهم صوروها بصورة اشرف الافاعي نوعاً اي التي بمجرد فحيمها تقتل
 البشر . وهكذا القديس يوحنا الدمشقي رسم دوام الابدية بصورة تنين
 مخيف فاعر فاه على شفاء حفرة عميقة يرصد الناس ليلتلعهم احياء .
 واخرون يصورون الابدية بصورة هاوية عميقة مريعة جداً لها عند
 مدخلها اربع درجات . الدرجة الاولى من حديد والثانية من نحاس
 والثالثة من فضة والرابعة من ذهب وعلى هذه الدرجة اطفال وقوقاً
 يلعبون بملاعب مختلفة . وهم غافلون عن خطر السقوط في هذه الهاوية
 وليس المراد بهذا المثل بيان الفرع الصادر من تامل الابدية فقط بل
 اظهار تقادم جهل البشر ايضاً من يتزهون ويضحكون ويمزحون في
 امور هذه الحياة ولا يفتكرون انه قد يمكن ان يلقوا دموراً في هوة
 جهنم . وبخلاف ذلك كان المرتل يعد من قبل الله الذين ينامون بين
 هذين الحدين الابديين . اي الذين تغوص عقولهم في سبات التامل

في ابدية السماء وابدية جهنم بأنه يعطيهم اجنحة حمامة من فضة ذات اصولٍ من ذهب وذلك لان السيرة الروحية ليست هي قائمة في ان نضع خيراً فقط . بل تقتضي ايضاً ان نحتمل الاسواء التي تاتي من قبل الناس . ولهذا مثلها النبي بالاشياء الاكثر ثمناً واعتباراً عند الناس اعني الفضة والذهب . ولكن لما كان غالباً احتمال الشر اصعب من فعل الخير . وبالتالي افضل استحقاقاً مع ان كلا الامرين جزيل الثمن . قال المرتل ان المناكب من ذهب والاجنحة من فضة . وقد احتسب ذلك يعقوب ابو الاسباط خيراً عظيماً واخصه بانه يساخر قائلاً انه سيستريح بين الحدين . فكانه يقول انه سيتأمل بتانٍ حد العقاب الابدية وحد السعادة السرمدية

الفصل الثالث

في ان ذكر الابدية يورث في الانسان اكثر من

ذكر الموت

انه وان كان ذكر الابدية وذكر الموت جزيل الاعتبار والمنفعة . فذكر الابدية اشد تأثيراً وفاعلية واغزراً ثماراً اي افعالاً مقدسة . لانه انما ذكر الابدية حمل العذارى الى حفظ بتوليتهم . والنساء الى ممارسة تقشفات شاقة . والشهداء الى مكابدة عذابات قاذحة . ولم يحركهم الى ذلك الخوف من الموت كما كان يشجعهم اليه الخوف من الابدية والمحبة الالهية

ولما كان الفلاسفة الوثنيون لا يترجون نظيرنا حياة باقية بعد الموت .
فكانوا بقوة ذكر الموت يصدون عن اباطيل العالم ويحترقون عظامه .
وكان يدعوهم اليه مقتضى حكم العقل النطقي والفلسفة لا غير . ولذلك
أعز ابى كينتوس الفيلسوف ان أدمنوا فكر الموت . واعقب قوله بقوله :
ان هذا الفكر يمنعكم عن ان تفكروا ابداً ففكروا ادنياً او تشتهوا شيئاً
بافراط الرغبة والشوق . وقال افلاطون انه بقدر ما يتعمق الانسان في
التلُّبث بالموت ويتوغل في التأمل فيه بقدر ذلك تغرُ حكمته وتسع
ولذلك كان يامر تلاميذه بان يمشوا حافين . مشيراً بذلك الى انه في مدة
سفرنا في هذه الحياة يجب ان يكون الغرض اي الموت بادياً على الدوام
نصب اعيننا . الا ان المسيحيين المعتقدين بابدية الحياة الآخرة فيجب عليهم
ان يضيفوا الى ذكر الموت ذكر الابدية . اما كون ذكر الابدية اكثر تأثيراً
من ذكر الموت فذلك يتضح مما بين الزمني والابدي من البون والحلاف .
وانما ما كان يوجس الفلاسفة الاقدمين خيفةً وارتجافاً عند ذكر الموت
كان هذا لا غير . وهو لانه بالموت كان ينتهي كل ما لهم في هذه الحياة
الزائلة . مع انه بالنظر الى الآخرين قد كان الموت شيئاً شبيهاً لانه به كانت
تنتهي كل بلاياهم . فان كان الموت من شأنه ان يهرب ويرعب لانه
يسلبنا جميع الخيرات الارضية التي دأبنا ان نُسلب منها بانواع شتى . بل
ان تزول ذاتياً قبل زوال من يمتلكها وهي ناقصة ومفعمة خطراً وسجساً
ولهذا اشتاق الكثيرون بافراط الشوق الى الموت لانهم كانوا ينقدون

به من البلايا الارضية . فما الذي يجب ان تفعله فينا الابدية التي ترينا
خيراتٍ لا قياس لعظمتها ولا حد لدوامها . وتوعدنا بشقاء لا يحول ولا
يزول

انه لما رام زينون الفيلسوف ان يجد واسطة فاعلة مؤثرة لتهديب
حياته وضبط حركاته الحسية وحفظ واجبات الفضيلة ذهب الى صنم
ما ليستشيرهُ فيه . فقال له الصنم : اذهب واستشر الاموات وما اشاروا
عليك به فاعلمهُ انما به تهذب سيرتك . لانك اذا رأيت وتاملت حال
الأموات انهم قد عدموا كل ما كان لهم وبزوال حياتهم زالت كل
سعادتهم . لا بد من ان تستخف بالخيرات الزائلة وتحبس نفسك عن الافتخار
بها . ومن ثم قد اعتاد قوم من الفلاسفة ان ياكلوا ويشربوا في جماجم
الموتى . لكي يكون ذكر الموت ووجوبه باذنين على الدوام بازاء اعينهم .
وبهذا كانوا يداوون كل شهوة عالمية . فان كثيراً من الملوك المعظمين
اتخذوا ذكر الموت دواءً لغزتهم الارضية . حذراً من ان تُترفهم نعمتهم
وسعادتهم فتفسد سيرتهم . وقد ذكر عن الملك فيلبوس المكدوني ابي
الاسكندر الكبير انه امر احد خدامه بان يكرر له في كل صباح ثلاث
مرات هذه الالفاظ : اذكر يا فيلبوس انك لبشرٌ وانك بالموت تترك كل
شيء ولا بد منه . ولذلك الملك مكسيميليانوس الاول صنع نعشاً لنفسه قبل
موته بربع سنين . وحيثما توجه كان ينقله معه . وذلك لكي يسمع في نفسه
على الدوام صوتاً غصيداً مخفوتاً يقول له بلسان حاله : اذكر انك ستموت

لا محالة وانك تفارق كل شيء . اما ملوك المشرق فمن جملة اعلام عزتهم
 الملوكية كان لهم كتاب من ذهب يحملونه بيدهم الشمال عنوانه : البر .
 وكان ذلك الكتاب مملوآ تراباً وغباراً . وكانوا يشيرون بذلك الى ان
 الانسان مائت والي الحكم الالهي القديم الذي قضى به عليه : انك
 تراب واليه ستعود . فحقاً انهم بحكمة اخترعوا شكل هذا الكتاب .
 ايذناً بما يحتويه ذكر الموت من المنافع والماعاً بانهُ لمدرسة نصان بها من
 الضلال والحديعة . وفي كون ورق الكتاب من ذهب وحمله باليد الشمال
 التي هي الاقرب الى القلب سر . والدليل فيه على وجوب انطباع هذا
 التعليم الكلي التقوى في القلب وعليه احسنوا اذ عنونوا هذا الكتاب
 بالبر . لانه من ذا يجسر على ان يخطيء مع علمه بانهُ سيموت لامحالة .
 . كما ملوك الحبشة قد اجتهدوا في اقتباس هذا التعليم . لانهم لما كانوا
 يكالون ملوكاً كان من جملة عاداتهم انهم يحملون وعاءً مملوآ تراباً وجمجمة
 انسان ميت . فكانوا يعلمون منذ الابتداء انه لا بد من ان ينتهي ملكهم
 ويفنى . واقول اخيراً ان الفلاسفة جميعهم قد قرروا هذه الحقيقة . بل
 يسوع لنا ان نقول ان الفلسفة كلها هي المهذبة بالموت

والابدية هي مادة للتفلسف اعظم جداً من الموت . لان العذاب
 الجهنمي الابدني من شأنه ان يرعبنا ويخيفنا خوفاً اشدّ بغير قياس مما
 يخيفنا زوال اعظم ممالك العالم العتيدة ان تنقرض سريعاً . فان دوام
 الشر وابدية شئٍ اُرعب من سرعة زوال الخير . وكون النفس غير قابلة

الفناء هو امرٌ عجبٌ جداً من كون الجسد عتيداً ان يموت . فمن اجل ذلك على المسيحيين ولا سيما الذين يرغبون الكمال ان يحسنوا معرفة الابدية افضل من ان يتعودوا الخوف من الموت . ولقد كان يجب ان نردّد دائماً في ذهننا هذا الكلام المريع : الابدية الابدية . وانك سوف تموت ولا ريبه فيه وليس هذا فقط بل انه بعد الموت تنتظر الابدية . فتذكر اذا انه توجد جهنم ولا انتهاء لها . وانه يوجد مجد ابدى ايضاً . فلا جرم ان اعتقادك بابدية المجد وابدية العقاب المعدتين لحافظي الناموس الالهي ومخالفيه وتذكرك اياهما يحثانك على حفظ الناموس افضل حثاً مما يمكن ان يحثك عليه التامل في سرعة زوال خيرات هذه الحياة . فردّد اذا في ذهنك ذكر الابدية وليأخذ صوتها في مجامع فوادك . ولهذا قد اعتادت البيعة المقدسة ان تذكر الاساقفة عند ارتسامهم بذلك قائلة لهم : تذكر الايام القديمة ولا تنس السنين الابدية . ولما رقى الحبر الروماني الى درجة الحبرية العظمى يحرق امامه احد الاكبر يكيين قليلاً من القطن قائلاً : هكذا يفنى مجد العالم ويتلاشى . وكان الغرض من هذه العادة اي احراق القطن بازاء عيني الحبر الاعظم ان يتذكر لهيب النار الابدية . وقد ذكر عن البابا مرتينوس الخامس انه امر بتصوير صورة رمزية شانها ان تشخص ناراً عظيمة ملتهبه يعاوها تاج باباوي وتاج ملوكي وقبعة كرونيال . ويخيل فيها للرأي ان الكل يحترق ويتحوّل الى رمادٍ سريعاً . والمع بذلك الى انهم ان لم يقوموا بواجبات وظائفهم حق قيام يحترقوا عمماً

قليل في جهنم خالدين فيها . وقد اراد الخبر المتقدم ذكره ان تكون هذه الصورة نصب عينيه على الدوام

ويجب ان تعتبر الان ان اسم ايساخ الذي باركه يعقوب ابوه اذ ارتاح الى اوسط الحدين المتقدم ذكرها اعني العقاب الابدي والمجد السرمدي دليل على من يكون متصفاً بقوة ذاكرة . ويطلق ايضاً على انسان ازمع ان ينال ثواباً عتيداً . وبهذا الاسم السري الرمزي رام الروح القدس ان يحرض ايساخ على ذكر الاجر الابدي . ولقد امر تعالى اسمه بان يكتب اسم ايساخ حفراً في حجر الكركن الذي كان يحملهُ الخبر الاعظم في وشاحه وذلك لكي نفهم ما احب هذا الذكر الى الله وأفوده لنا . وقد اعلن الله للرسول يوحنا الانجيلي ان هذا الحجر كان من قوائم وأسس المدينة السموية . وقال القديس السلوس ان هذا الحجر يدل على ذكر الابدية التي هي اخص أسس لبناء الكمال الانجيلي جميعه . ولعمري اننا اذا امعنا النظر في خواص هذا الحجر نستدل به على ذكر الابدية وعلى معرفة الحيرت الناجمة لنا عن تأملها . فاعتبر اولاً ان حجر الكركن يصير حامله ساهراً مستيقظاً . والحال انه ما من شيء من شأنه ان يجعلنا اكثر تيقظاً واحتراساً من التأمل باننا سائررون بين هذين الحدين . اعني بهما المجد الابدي والعذاب السرمدي . كيف لا ولا يمكن ان يستحوذ النعاس على من يجوز وادياً عميقاً جداً من طرف الى طرف اخر من فوق جسر من خشب عرضه نصف قدم لا غير . وتصدمه رياح عاصفة هابّة

من كل جهة . ويكون هو في كل دقيقة على وشك السقوط وفي خطر
 الهبوط في تلك الهاوية المخيفة . فخطر هذه الحياة ليس باقل من الخطر
 المذكور لان الطريق المودية الى السماء هي ضيقة جداً . ورياح التجارب
 شديدة جداً وتعصف من كل جانب . واطار اسباب السقوط كثيرة .
 واضرار الامثال الرديّة وعثراتها عظيمة . وخذاعات المشيرين مكرّاً لا
 تحصى . اعتبر ثانياً انه قد ذكر عن حجر الكركهن انه ليس من خواصه ان
 يجعل الانسان مستيقظاً فقط بل انه يدراً عنه الافكار الرديّة ايضاً .
 ولست اعلم كيف يمكن ان يدهم من يفكر في الابدية فكرٌ ماردي .
 وكيف يمكن ان الذي يردد في عقله ذكر العقاب الابدية العتيدان يحكم به
 عليه اذا ارتضى بخطية مميّته يرخي لنفسه الاعنة لكي تتلذذ بفكر اللذات
 المحرّمة . اعتبر ثالثاً ان حجر الكركهن يصون الانسان من السكر ويحفظ
 عقله على حال صحّة اصابته وتمييزه . ولا ريب انه ما من شيء يكفي عقل
 الانسان شرّاً لخار لذات هذه الحياة مثل ذكر الآخرة . اعتبر رابعاً ان
 هذا الحجر علاج فعّال لمن يبتلع شيئاً مسموماً . لان الحجر المذكور يبيد
 قوّة السم المميّته . ولا علاج يلاشي سم الخطيئة كما يلاشي تامل الانسان
 في العقاب الجهني الذي يستحقّه من اجلها . او ذكر الملك السماوي الذي
 يخسره بسببها . اعتبر خامساً ان الحجر المذكور يسكن سجنس العقل . ولا
 شيء اشدّ فعلاً وفاعلية لتسكين السجس الناشيء عن اشياء هذا العالم
 ولكبح شهوة الشخ والعجرفة من التامل بالخيرات الابدية المعدة للمتواضعين

والمساكين بالروح . اعتبر سادساً ان حجر الكركم يُوتي خصباً . هكذا
هذا الفكر العظيم فكر الابدية ياتي الاعمال الصالحة بالخصب . لانه من
ذا الذي يتأمل بايمان حي ان كل الافعال الصالحة وان تمت بمدة يسيرة
وتعب وقتي تستحق مجداً ابدياً ولا ينشط اذ ذاك ويتحمل الجهد في ان
يفعل ويحمل كثيراً من اجل الله . فيالعظمة الاعمال التي اصدرها هذا
الفكر المقدس اعني به فكر المجد الابدى . ان انتصارات الشهداء
رالبولات وتكشفات باقي القديسين صادرة عن هذا الفكر السماوي .
فياله فكرًا مقدساً وبالهذا من حجر رمزي يوتي الضالين نوراً خلاصياً .
ويشفي السقام شفاءً تاماً ويسكن هيجان الشهوات ويثلم حدة الاميال
ويلقي الخصب في قلوب المتوانيين الفاترين في العبادة بوفور افعال
الفضيلة . فياليت المؤمنين يطبعونه على مصاحف قلوبهم طبعاً لا محي .
لانهم لو فعلوا ذلك لرأينا في سيرتهم تغيراً وتحسناً سرعيين وفي اعمالهم
صلاحاً عجباً . لانه ان كانت العواقب الاربعة جزيلة التأثير في اصلاح
سيرة الانسان فالابدية اكثر تأثيراً منها . لانها اي الابدية بمنزلة ام لها
وتتضمن ما لباقي العواقب من التأثير والفاعلية

الفصل الرابع

في عظم شقاء حال الانسان المتناسي الابدية

انه قبل ان نشرع ببيان ماهية الابدية الكلي الضرورة لتهديب
السيرة . نكشف قليلاً عن ضلال بني ادم بنسيانهم الابدية ذهولاً

يرثي له . اذ انهم يتغاضون عنها مع انها تهتددهم في كل دقيقة . وتقرب
من كل منهم كما قال احد الفلاسفة على ادنى من قاب قوس . لانه ايمان
بعد بين الموت والنوتي الأعرض دقة واحدة . وما البعد بين انسان
سبي الخلق والابدية الا حد السيف . وكم يبعد الجندي عن نهاية حياته
الارشق سهم او بلوغ رصاصة . وما يبعد اللص عن المشقة الامسافة
السجن . واخيراً كم تبعد الابدية عن رجل ممتع بصحة الجسم وعلى
جانب من القوة . لاشك بعد الحياة عن الموت وهذا يمكن ان يفاجئنا
بغته في كل دقيقة في طرق مختلفة . حقاً ان حياة الانسان ليست شيئاً
اخر سوى مسلك خطر يشرع به على شفاء هوة الابدية التي لا بد لكل
ان يسقط فيها . فكيف اذا نعش متغافلين عنها

وهذا قد اوضحه القديس يوحنا الدمشقي بمثل دقيق رقيق ضربه
في هذا الصدد . عبر به عن حال حياتنا تعبيراً بليغاً . قال ان رجلاً فرّ
هارباً من الوحش الوحيد القرن الذي كان يهدده يرجف الجبال
ويسمع الضجيج في الاوداء دوي . وبينما كان هارباً هكذا وهو لا يدري
ولا يظن لما ينتهي اليه اذا هو سقط في حفرة عميقة . ولحسن حظه
مد يده حالاً ملتصقاً ما يتعلق به . واذا يده علق بشجرة ثابتة في جانب
الحفرة فاستمسك باغصانها استمسكاً وثيقاً . فهدأ لذلك روعه ومكث متغرياً
مسروراً بنجاته على النحو المذكور من ذلك الخطر المريع . ثم التفت متفرساً
باصول تلك الشجرة فابصر هناك جُرذنين ضخمين جداً احدهما ابيض

والاخر اسود وهما يقرضان اصل الشجرة حثيثاً بغير فتور . حتى كانت تستبين وشيك السقوط في اسفل تلك الحفرة . فاحدق بناظره الى عمق الهوتة . واذا تنين مخيف تنبعث النار من عينيه ويتصفح فيه بنظرٍ مربع . متوقفاً سقوطه ليلتلعهُ حالاً . ثم صرف وجههُ الى حيث كانت الشجرة نابتة . فرأى اربع افاعي خارجات منها ينسبن اليه ليعضنه ويدغنه لدغاً مميتاً . ثم رفع الحاظه الى ورق هذه الشجرة فرأى انها تقطر قليلاً من العسل . فلما رأى الجاهل العسل خامره الفرح العظيم والابتهاج الجسيم وتغاضى عن تلك المخاطر المحدقة به من كل ناحية . وشرع يلحق من ذلك العسل السائل نقطة فنقطة . غير مُبالٍ بثمر الوحش الوحيد القرن الذي ينتظرهُ من علو . ولا بشراسة التنين الذي كان يترقبهُ من اسفل . ولا بسم الافاعي المحدقة بجانبه . ولا بضعف الشجرة القريب سقوطها . وذهل عن انه ان زلت قدمه انحدر الى اسفل الحفرة . وكان اليسير من العسل الذي قد انهمك باكله كافياً لان يلهيه عن جميع هذه المخاطر . ففي هذه الصورة الرمزية نرى حال الذين يتغاضون عن الاخطار المنفعة منها هذه الحياة منهمكين في طلب لذات حواسهم فاعتبر اذا ان الوحش الوحيد القرن هو الموت الذي يناهز الانسان من يوم وُلد ولا يزال كذلك الى يوم يَأون أجلهُ . اما الحفرة فهي العالم المملوكهُ من الشقاء والشورور . والشجرة هي مدة حياتنا . والجرذان الابيض والاسود اللذان يقرضان الشجرة هما النهار والليل

الذان يفتنان حياتنا شيئاً فشيئاً . والاربع الافاعي هي العناصر الاربعة المتالف منها الانسان . فمتى قوي احدها على الاخر او نقص عنها انهدم نظام جسدنا وانقضت حياتنا . والتنين الهائل والمرعب هو ابدية جهنم الفاعرة فها على الدوام لتبتلع الخطاة . اما قطر العسل فهو هذا العالم ومنترهاته ولذاته . فالانسان الاحمق الغبي يتغاضى ويتغافل عن هذه المخاطر العظيمة المحذرة به وينكب على لذة وجيزة وقتية . ولئن كان عدد اخطار الموت يوازي عداد اسبابه وانواعه وكل ذلك كافواه الابدية وابوابها . فترى الانسان لاهمياً لاعماً نقطة واحدة من عسل اللذات الارضية وان ازمعت أن تهوَّعه احشاه وتمزقها تمزيقاً الى دهر الدهارين فيالتفاقم جهل البشر وغباوتهم . انه إن دخل انسان غاباً نصبت فيها شرك واخفيت مكان خطرته . اذا وطىء احداها سقط حالاً على سيوف وحراب مرهفة او في فم تنين هائل مفترس . ورأى اناساً اخرين قد دخلوا معه فسطوا في تلك المكامن وتقطعت اوصالهم وهلكوا ومع ذلك ظل هو ماشياً مرحاً فيها راكضاً متغاضياً عن خطر نفسه . حقت عليه كلمة التوبيخ ودُعي جاهلاً غيباً . لعمر الله انك لأشدُّ جهالةً وغباوةً منه . لانك ترى صاحبك قد سقط في حبال الموت . وجارك قد ابتلعت الابدية . واخاك قد دسوه في القبر البلق وحثوا عليه التراب وانت مع ذلك تستمر مطمئناً كأنك كبرت عن ان يصيبك ما اصابهم . او كان الموت شيء غير موكد عندك . وكان يجب ان تستيقظ لكل

خطر ايّا كان وان خفيفاً . فكيف لا يجب ان تحترس كل جهدك
 بعد ان تحققت يقيناً انك سوف تلج جوف الابدية آجلاً او عاجلاً
 لعجب ان الناس يتلافون بكل الاعتناء اخطاراً عالمية غير موكدة .
 فاذا شاع عن طريق أنه لا يؤمن فيه العابر من مكان الخوارج واللصوص
 فلا يجوزه أحد الامد حجاً بالاسلحة ومع رفقةٍ يستصحبهم . وان سمع بخبر
 طاعون يسعى سراعاً في تحصيل الادوية واعدّ باجتهادٍ كل ما تقتضيه صيانة
 نفسه من الخطر المفاجئ . واذا خيف جذبٌ وخشي محلٌ اذا هو يملأ
 اهراءً حالاً . فلم اذا لانحسرن الحذر مع عننا اليقين بحقيقة الموت والدينونة
 والجحيم والابدية . ولم لانعد شيئاً لذلك ولا نهبُ ناهضين ولا نفتح اعيننا
 ونتشوف الى المخاطر المحدقة بنا . ونرى اين وكيف يجب ان نلقي
 خطواتنا لتلازل قدمنا فنهلك . لان حال هذه الحياة هي خطرة جداً .
 وقد شبهها حسناً احد العلماء بجسر ضيق لا يسع اكثر من قدمين . وتحتهُ
 وادٍ عميق مفعم حيات وحيوانات اخر سامة ضارية تقتات من لحم
 الذين يسقطون فيه من على الجسر . ويحيط بالجسر بساتين ذات اشجار
 مورقة وينابيع متدفقة وقصور مشيدة مبهجة . أما كان يدعى جاهلاً
 وغيباً من كان يجتاز هذا الجسر الضيق وهو يلتهى متفرجاً على بهاء تلك
 الرياض وحسن تدفق تلك الينابيع وجمال تلك القصور ولا يحترس على
 نفسه ولا يدري حيث يضع رجله وينقل خطواته . او بالحري ما اجهل
 وأنغى اولئك الذين يعبرون طريق هذه الحياة متلاهيين بملاهيها وخيراتها

الباطلة غير مهتمين باحكام خطوات اعمالهم

وقد ضاف الى هذا المثل شيئاً اخر معلم حاذق قال : ان معظم
الخطر في اخر الجسر المتقدم ذكره . حيث المسلك اضيق ومن ثم فالنجاة
من السقوط أصعب وأعسر . وهذه الخطوة الضيقة عبارة عن الموت .
فكن اذا حسن الحذر والتخفظ ما دمت حياً في الارض . وضع قدمك
حيث تأمن به البلوغ الى الملكوت . حذراً من ان تزلّ رجلك عند الموت
فتخسر الابدية . فيايتها الابدية ما اقل الذين يحسنون استعدادهم
للقائك . يايتها الابدية ما اعظم خطرك كيف لا تخافك الناس . كيف
لا يعدون انفسهم قبل مفاجاتك . ان زمن هذه الحياة لقصير ووجيز
جداً . ولقد اوشكت القوة ان تخور وكادت الحواس تضعف وتوهن .
وسيلب الغنى ويضمحل اللهو والتنعم وسنخرج من هذا العالم بعيداً .
فلماذا لا نتامل الان في ما يحل بنا بعد الزوال والموت . اننا سنرحل الى
وطن اخر . وكم ترى تكون مدة مكثنا بهذه الدنيا . فيا اسفاه على م لا
تروى هنا الان في ما سوف نفعله هناك

فلكي نفهم هذا المضمون حق تفهم ونصبح به فطين . احيناً ان
نورد مثلاً اخر اورده القديس يوحنا الدمشقي قال : كانت مدينة عظيمة
جداً ذات شعب لا يحصى عدده . وكان من عادة هذا الشعب الا يقيموا
عليهم ملكاً الا رجلاً غريباً لا يعرف تلك المملكة ولا كيفية تدبيرها .
وكانوا في السنة الاولى من ملكه يتركونه يدبر الامور كما اراد ويصنع كل

ما شاء . ثم بينما يكون مغبوطاً بملكه ظاناً انه يملك حياته كلها . واذا الشعب
 يفاجئه بغتةً وينزعون عنه الكسوة الملوكية ويطوفون به في شوارع
 المدينة عرياناً مهاناً . واخيراً رحلوه منفيّاً الى جزيرة بعيدة مقفرة حيث
 كان يُصاب بالفقر والفاقة حتى لا يتيسر له ان يجد ما يأكله ولا ما
 يلبسه . وهكذا كانت تحيب امله بتحوّل سعادته الى شقاء وغناه الى فقر
 وتبدّل فرحه بالحزن وولامته بالجوع وبرفيره الملوكي بالعري . فاتفق مرّةً
 انهم ملكوا عليهم رجالاً اذا صيانة وفطنة وخبرة . فلما وقف من احد الوزراء
 على عادة هذا الشعب العديم الثبات والسريع التقلب . اخذ يفكر في
 امره ويتبصّر بتدبير شأنه فلم يزه قلبه عجباً بعزة العرش الملوكي الذي
 جلس عليه . بل اهتم مفرغاً جهده في تدبير الامور بوجهه يفضي به الى
 نوال قصده . حتى اذا حطّ من الملك كالموك الذين تقدموه ونفى الى
 الجزيرة المذكورة لايوت فيها جوعاً . فلما استقرّ له الملك على الشعب
 وقبض على زمام السلطنة ارسل سرّاً الى تلك الجزيرة جميع خزائن تلك
 المدينة . فلما مضت السنة اتاه الشعب بغتةً واثاروا هيجاناً عظيماً وانزلوه
 من الكرسي الملوكي وبعثوا به منفيّاً الى تلك الجزيرة كما فعلوا بمن سلفه
 من الملوك . اما هذا الملك الحكيم فقد سار الى هناك بسرور وابتهاج
 اذ كان قد سبق فارسل الى هذه الجزيرة كنوزاً وافرة . وفيها عاش عيش
 رغدٍ بعزة وراحة لا كاولئك الملوك الذين اهلكهم الجوع . فهاك ما يحدث
 ههنا في هذا العالم . وها هو ذا ما يجب ان يفعله كل ذي فطنة وحكمة .

لان في المدينة المتقدم ذكرها اشارة الى هذا العالم الجاهل الباطل السريع
 التغير والتقلب . الذي اذا ظن احد نفسه انه جالس فيه على سدة الملك
 جلوساً ثابتاً مكيناً . يهجم عليه بغتة ويعرّيه بالكلية من راسه الى قدميه
 ويدسه هكذا عرياناً في حفرة القبر . وذلك في وقت لا يعلمه ويوم يكون
 منهمكاً اكثر انهماكاً في اللذات والتنعم . متمتعاً بالخيرات الزائلة كأنها
 خيرات راهنة دائمة متعاضياً عن الابدية البلدة البعيدة من فكره بعداً
 شاسعاً جداً . حيث يجد نفسه عرياناً مجرداً من كل خير . مهملًا من
 الجميع . عاشعاً عيش القنوط في ارض الظلمة وظلال الموت . فالحكيم
 اذا من تأمل بتأنٍ قبل ان يخرج من هذا العالم عرياناً في ما سوف يلزم
 به بعد زمن يسير . واعد نفسه للانتقال الى العالم الاخر . وحافظ على
 زمان هذه الحياة وراعاه ليحده في الابدية . ورتب حياته وزينها
 بالافعال الصالحة المقدسة افعال التوبة والصدقة والمحبة . ونقل كنوزه
 الى البلدة التي يجب عليه ان يسكنها الى الابد . وقد قال القديس
 غريغوريوس عن تأمل الابدية . انه قد عبر عنه بمخائيل الحمرة الجيدة
 حيث ادخل العروس الالهية عروسه ورتب فيها المحبة . لانه كما قال
 القديس المتقدم ذكره . كل من يتأمل جيداً الابدية يسوغ له ان يقول
 عن نفسه انه يرتب في ذاته المحبة . فيجب ذاته قليلاً ويحب الله فوق
 كل شيء . ولا يحب شيئاً اخر الا حبا به تعالى . ولا يستعمل ما كان
 اكثر ضرورة نظراً الى الحياة الزمنية الابدية متجهة الى الابدية

الفصل الخامس

في ماهية الابدية على حسب ما قال فيها القديس غريغوريوس التريزي
والقديس ديونيسيوس الاريوباجي

فلنتدثن اذاً بشرح أمر لا يمكن شرحه وتفسيره . ولنستفهم على
نوع ما ولنبحث بعض البحث عما يفوق طور كل ادراك مخلوق . حتى
اذا وقف المؤمنون على حقيقة الابدية . بل اذا اضحى جهلهم لها اقل
يُصدون عن ارتكاب المنكر ولا يهتمون عملاً من اعمال التفضيلة .
قد ذكر عن اغريبينا الرومانية والدة نيرون الملك انها لما اطلمت على
تبذير ابنها الذي كان يبذر الاموال وينفق الفضة والذهب على وجه
الاسراف كأنها بمنزلة التراب رامت ان تده عن تفریطه هذا . ولما
اتفق ان الملك ابنها امر يوماً بان يُعطى رجل ثلاثمائة الف قرش .
وعلمت بذلك اخذت المبلغ المذكور وبسطته قطعاً متفرقة على مائدة
وارته ابنها جملة لكي يبصر بعينه مقدار العطية المتجاوزة الحد . لعله يرتد
بذلك عن جهله مصطلحاً . فهذا الجهل هو عين جهل بني آدم ولا
دواء لهم الا ان نضع بازاء اعينهم ما يبذرونه باطلاً ويخسرونه عبثاً لاجل
شهوة تخالف ما أمر به الناموس الالهي . ويذهلون عما لانهاية له بغية
لما لا يدوم سوى دقيقة واحدة من الزمن . فعليهم اذا ان يعلوا اي أمر
لانهاية له ليستمر دائماً . هو الابدية . الا انه من يكشف لنا غوامض
الابدية او من يشرح لنا كنهها الخفي وهي كبحر زاخر غير محدود لا يمكن

الوصول الى قعره . او كلجته قائمة الاعماق تغور فيها كل قوة العقل
البشري . ان الابدية هي زمن وجودي كائن دائماً ليس له ماضٍ ولا
مستقبل وليس فيها توالٍ . وهي دائرة متصلة مركزها في كل جزء من
اجزائها . وهي سنة مستطيلة جداً دائمة الابتداء عديمة الانتهاء . واقول
على وجه الاطلاق ان الابدية أمرٌ لا يتيسر لنا ان ندركه ويجب علينا
ان ندرسه ونتأمله دائماً . فنوردن الان ما قاله فيها الاباء القديسون .
فالقديس غريغوريوس النزينزي عوضاً عن ان يعرف الابدية ايحباباً
(قائلاً ما هي) . اورد تعريفها سلباً مفصلاً عما ليست اياه . قال ان
الابدية ليست زمناً ولا جزءاً زمن . لان الزمن واجزائه شيءٌ عابر . اما
الابدية فلا تعبر ولن تعبر . لان جميع العذابات التي تلم بالنفس لا تشمل
حدثها بعد الوفاة من السنين بل تبقى كما كانت على حدٍ سوى
فكان الايام تشخذها . وكذلك النعيم الذي تتمتع به النفس في الملكوت
السماوي لا تخلق جدته ولا يزول منه شيءٌ . ولئن كان الزمن من شأنه ان
يرسخ ملكة ويزيل أخرى ويذل صعباً امور ويصعب أخرى ويرد
بالعادة سهلاً ما كان يبين عسراً وطوراً ييسر لليسر وآونة للعسر . فالابدية
تستمر دائماً على حال صحتها وكماها لا يزول منها شيءٌ ولا يعترها نقص
اصلاً . لكنها تلبث كلها على هيئةٍ مستمرة وحالةٍ واحدةٍ فسورها لا يخالطه
ضجر . وعذابها ليس له علاج . وعليه قال القديس ديونيسيوس الاريوخيمي
ان الابدية شيءٌ لا يتغير ولا يحول ولا يعتوره فساد . ولهذا قال الحكيم

اذا سقطت الشجرة ميمناً او شمالاً فحيثما تسقط تثبت . فان سقطت كهود
وقوداً في عمق اللجة فمخترق دائماً كما انك تستمر على الدوام ساقطاً
وليس من يقيمك أو ينجيك . وما دام الله الهماً تستمر هناك ساقطاً لا يمكنك
ان تنقلب من جهة الى اخرى

فالابدية غير قابلة التغير لانها لا تتحمل الانتقال من حال الى حال
وهي غير قابلة الموت لكونها غير قابلة الانتهاء . وهي غير قابلة الفساد
لانها لا تتحمل نقصاً . ان بلايا هذه الحياة وضيقاتها وان كانت شديدة
قاسية فانها لا تخلو من أن تخف بالتغير أو تنتهي بالموت أو تنقضي
بالفساد . وفي ذلك تعزية وسلوى . وليس من ذلك شيء في العذابات
الابدية فلا تخف بالتغير ولا تداوى بالانتهاء ولا تعالج بالنقص . فان
كان المن الاسرائيلي الذي كان اكثر من جميع الاطعمة لذة واجزل نفعاً
قد كرهه الاسرائيليون اكله لمجرد مداومة استعماله . فما عساه يكون من
اشد العذابات التي لا تحول عن حالها . فالحمى اذا حصلت على غاية
اشتدادها تفر وتقص شيئاً فشيئاً . اما العذابات الابدية فستثني
من هذا القانون العام . فعذابات قايين التي تذيب مدتها على خمسة
الاف سنة . هي الان كما كانت في الابتداء وستكون بعد خمسة الاف
سنة اخرى كما هي الان . ودوام الامها وثباتها على حال واحدة يضاحيان
دوام مجد الله وثباته الغير المتغير . فتحيا اذا الاشقياء ولكن لكي يعاقبوا .
ويموتون وذلك لئلا يتعموا فلا يفوزون براحة هذه الحياة ولا بانتهاء

الموت . فتأمل الآن بعكس الأمر ما أسعد حظ من يموت خليلاً لله .
 لأن مجده سيكون غير قابل الزوال والتغير . فلا يفشاهُ خوفٌ من ان
 ينقص مجده أو ينزع عنه أكليله . ويوم تنعمه يكون يوماً أبدياً ثابتاً وسروره
 يبقى جديداً الى ابد الابدين . فسعادة القديس ميخائيل رئيس الملائكة التي
 ابتدأت منذ ستة الاف سنة هي الآن كما كانت قدماً وستكون لديه
 جديدة بعد ستة الاف سنة كما هي الآن

الفصل السادس

في ماهية الابدية على رأي بولونيوس الفيلسوف

المسيحي وبلوتونيوس

قال بوليسيوس المسيحي ان الابدية هي تملك حياة غير متناهية
 تملكاً كلياً تاماً . وهذا التعريف ولو انه بالوجه الاول والاخص يلاحظ
 ابدية الله . الا انه قد يمكن ان ينطبق على ابدية الخلائق الناطقة المتمتعة
 بها . لانها تمتلك خيرات فائقة في حياة غير متناهية امتلاكاً كاملاً تاماً .
 وبالصواب ندعو ابديتهم امتلاكاً من حيث انه ما من ملك اتم وافضل
 كمالاً من الفوز بالسلطان المطلق على ذلك الشيء مع امتلاكه . فانه
 من أودع شيئاً على سبيل الرهن او العارية فقد يمتنع به . الا انه ليس له
 ما لصاحب ذلك الشيء من السلطان عليه . وعنى بقوله امتلاك مطلق .
 انها امتلاك جميع الخيرات معاً خلواً من فوات احدها . فان امتلاك هذه
 الخيرات لا يقتضي تملك شيء منها بعد الآخر . اذ يتيسر امتلاك كلها معاً .

ولا يجري الامر في حياتنا هذه على هذا المنوال الجزيل الاعتبار . لانه
ولئن تمكّن احدٌ من امتلاك جميع الخيرات . فيستحيل عليه ان يتمتع بها كلها
معاً . لكنه اذا تمتّع متلذّذاً بخير واحد . لزمه ان يتوقّع خيراً اخر اذا رام
التمتع به . فالملك اليونانيل احد القياصرة الذين سعوا في طلب اللذات
الارضية باشدّ اجتهاد . كان يبذل جهدهُ وجدّه في ان يتمتع بكل
الخيرات واللذات معاً . ومع ذلك فكان على الكثير وبالكد الكلي يستطيع
ان يتمتع بزمن واحد بثلاث لذات او اربع معاً . لانه اذا كان يتمتع بلذة
الاكل والشرب لم يكن بوسعه ان يتمتع بملاهي الرقص او الصيد او
اللذات اللحمية . ولذلك اذا كان يلتمس لذةً وجب عليه ان يترك الاخرى .
فضلاً عن انه لم يقدر ان يحصل على جميع اللذات اذا كان يحرم لذاتٍ
خصوصية كان يتمتع بها اكثر الناس بل كان لا يمكنه ان يستمتع معاً وفي
زمن واحد بالخيرات التي كان هو نفسه يمتلكها . اما الصديق في الملك
السماوي فلا يحصل على خير بعد خيره . لانه يمتلك جميع الخيرات ويتلذّذ
بها كلها معاً . ثم ان امتلاك الصديق السعادة الابدية هو كامل ايضاً من
جهة اخرى . وذلك لانه من الممتع ان يكدره في امتلاكها احدٌ . لا
بطريق الخصومة ولا بسبيل الاختلاس ولا بنوع آخر . ولهذا قال
بلوتينوس ان الابدية حياة كاملة تستغرق الازمنة واللذات كلها
وتستوعبها معاً . اما حياة السمع فتكون في الملكوت كاملة بسمع الترانيم
الموسيقية . وحياة الشم فتكون كاملة باستنشاق الروائح الذكيّة .

وحياة النظر فتكون كاملة بمشاهدة اجمل ما يكون في الاشياء المخلوقة .
وحياة الفهم فتكون كاملة بمعرفة الخالق . وحياة الارادة فتكون كاملة
بمحبته اياه تعالى وتمتعها به وتلذذها بحضرة جلّت عزته . واما الحياة الزمنية
فلا يمكنها ان تحصل على هذا الملء من الاستلذاذ . لان حركة حاسة
واحدة تصد حاسة اخرى عن حركتها . وتلذذ الجسد يحول دون تمتع
الروح بلذته . واما في السعادة الابدية فتكون الحياة كلية تامة . والامتلاك
كلياً والاستلذاذ كذلك . فلا نقص في القوى ولا عجز في النفس ولا
قصر في الزمان يمنع الصديقين عن التمتع الكلي والتلذذ التام بكل قواهم
معاً

اما حال الخطاة الاشقياء فعلى خلاف ما ذكر . لانه يفشاهم في شقاوتهم
الابدي من الشرعين ما يتقلب فيه الابرار في سعادتهم الابدية من الخير .
فان اولئك بئس الحظ حظهم انهم يلقون دحوراً جسداً ونفساً في
العذابات لا كانهم في شيء اجنبي عنهم او مستعار . بل كانهم في شيء
ممتلك امتلاكاً ولا يمكنهم ان يتنزلوا عن هذا الملك او يحولوه الى آخر .
وليسوا ممتلكين الشر والعذاب الابدية على هذا النحو فقط . بل ان هذا
الشر والعذاب هو نفسه يستحوذ عليهم ويمتلكهم امتلاكاً لان حواسهم
واعضاءهم وكل اوصال اجسادهم وكل قوى انفسهم الروحية تستحوذ
عليها المرارة والالم والشقاء والرجز واللعنة . فليس شقاء وبلاء الاحل هناك .
فالذوق ثم يبلى بالمرارة . وشهوة الاكل تمنى بالجوع . واللسان يؤلمه

العطاش . والنظر يعشاهُ الخوف . والسمع تعريه الرعدة . والشم تعذبهُ
التثانة . والقلب يعمهُ الضيق . والمخيلة يخامرها الارتجاع . والاحشاء
تتلظى على لهيب نار محرقة . وعلى الاجمال نقول ان كل جزء لا يخلو من
وجع والم . وكل هذه العذابات كانها طوفان عرمرم تهطل على الخطاة
دواماً . فان كانت نقطة من الماء الساقطة على صخرة مدةً تبقى فيه اثراً
ظاهراً . وان كان طوفان اربعين يوماً كفى لآبادة الارض واهلاك كل
حي . فماذا ترى اذا انزل عدل الله على الهالك ناراً وكبريتاً لا اربعين يوماً
فقط بل مادام الله الهماً . وهذه الحال الشقية تكور على الهالك جميع
الشورر معاً وفي زمن واحد . وكثرة العذابات هذه لا تتلم حدة الحس
ولا ينقص الانتباه اليه والشعور به . بل لا يزال الهالك مستيقظاً منتبهاً
لكل العذابات . شاعراً بها جميعها كأنه في عذاب واحد . فالنار مثلاً
لا تحرق العظام والقلب والحشى فقط . بل انها تحرق النفس عينها ايضاً
حرقاً موبداً لان امتلاك النفس هذا الشقاء يكون كلياً كاملاً . فكلياً
لانها تكابد جميع العذابات . وكاملاً تاماً لانها تكابدها بكل حواسها
وقواها القابلة التألم

الفصل السابع

في ايراد ماهية الابدية على حسب تعليم

القديس برزدوس

ان القديس برزدوس في عظته الاولى لعيد جميع القديسين اوضح

ماهية الابدية على نوع آخر . قال ان الابدية تستوعب كل الازمنة ماضية وحاضرة ومستقبلية . فلا تكفي بالايام والسنين والدهور . لكنها تستغرق كل الازمنة الممكنة . بل هي أهل لان تستوعب اكثر من ذلك . هذا والابدية تشتمل كل زمان . ولهذا قد دعاها احد المعلمين زمناً ابدياً . وقال فيها احد رهباننا وهو ليونزدوس لاسيوس انها لطويلة وقصيرة معاً . فقصيرة تتناول من الزمن في دقيقة واحدة كل ما يمكن ان تشتمله في زمن غير متناه . فكما ان الزمن دقيقة عابرة سريعة الزوال اذ ليس غير الدقيقة الحاضرة العابرة . كذلك الابدية ليست شيئاً آخر سوى دقيقة واحدة تستمر ثابتة . فجميع الازمنة بالنظر اليها تعبر وتجاوز واحداً بعد واحد . اما الابدية فتستمر حاضرة لكل زمان بغير تغيير . فالزمن وكل شيء زمني يشبهان نهراً تجري مياهه بعزم شديد . فتعاقب امواجه بسرعة عظيمة لا تنفك متحركة متغيرة . اما الابدية فهي كحجر صلد او كارض تجري من فوقها المياه وهي لا تزال ثابتة غير متحركة بينما المياه تجري فوقها ويتعقب بعضها بعضاً وتتوارى عن النظر وتضحل شيئاً فشيئاً . وتشبه ايضاً نقطة وسط دائرة . يلاحظ منها على حدٍ سوى كل الدائرة وكل جزء من اجزائها . كذلك الابدية فلها مدة تعادل ازمناً غير متناهية . وتوازن كل دقيقة منها على حداثها وكل الازمنة المستقبلية التي سوف تكون . وتشملها حاضرة معاً على نوع عجيب

ومن ذلك ينتج امرٌ يليق بالاعتبار . وهو ان الخير الممزوجة به الابدية

يزداد بها ثمناً ويكتسب قدرًا عظيمًا وذلك على نوعين . كذلك الشر الملازم
 ابدية العقاب يصير بها في نهاية من الشر والبؤس . وذلك على نوعين
 ايضاً واولاً ان كلاً من الخير والشر ليس لدوامه حد او نهاية . لان عظمة
 الشيء تزداد بقدر ازدياد دوامه . ومن ثم فالشيء الذي يدوم الى زمن
 غير متناه يكون اكثر اعتباراً . وهكذا الشر الغير المتناهي في دوامه .
 فانه مهما كان خفيفاً في ذاته فيفوق كل شر متناه في دوامه وان
 كان عظيمًا في ذاته . فلو خير مثلاً احد بين ان يكون في وسط اتون نار
 ملتهب ويبلى بكل الامراض المعروفة من الاطباء ويكابد جميع ما قاسته
 الشهداء من العذابات ويحتمل ذلك مائة الف ربوة من السنين غير انه
 بعد انقضاء الزمن المذكور تنتهي اوجاعه وعذابه . وان يحتمل ألم
 الصداع فقط ولكن الى الابد خلواً من رجاء انتهائه . فقد كان يجب
 عليه ان يختار جميع العذابات المتقدم ذكرها ولا يؤثر هذا العذاب الاخير
 لانه ولئن كانت تلك اعظم شدة فإن هذا يفوقها دواماً وبقاءً
 فليات الان مثنو الاشياء الزمنية ومعتبروها . وليجيبوني عما اورده
 مثبتاً بادلة الصواب فاقول . لو امكن الامر ان تقاسى عذابات جهنم
 القادحة بشرط ان تكون زمنية . لقد كان يجب ان نختارها ولا نرتضي
 بالم ابدى وان كان خفيفاً . فلم اذاً لا نحتمل بصبر ضيقة ما خفيفة
 امدة وجيزة كمدة هذه الحياة احترازاً من ان نكابد العذابات
 الجهنمية الى الابد . كيف لا يرتاع لعذاب جهنمي مؤبد ونحاف من الم

زمني . لم لا تمارس افعال التوبة . لم لا تحتمل شداثنا بصبر . لم لا نقبل
 برضى اعظم الاوجاع في هذه الحياة خيفةً من احتمال الم واحد ابدي
 وهذا ما يمكننا ان نقوله في الخيرات ايضاً . فلو كان في اختيارك ان تتمتع
 بكل كنوز الارض وجميع لذات الحواس مدة ربوات من السنين ثم تنتهي
 وتنتهي حياتك الزمنية . فقد كان ينبغي ان نوثر عليها لذة واحدة ابدية .
 فكيف اذا تبذل جميع اللذات العظيمة المعدة لك في السماء لتتمتع بها
 الى الابد بلذة عابرة ارضية . انه لقد كان يجب ان نبذل جميع الخيرات
 الزمنية لتربح بها خيراً واحداً ابدياً . فلماذا لا نربح كل الخيرات الابدية
 بصدنا حيناً عن خير ما زمني . ولكي نورد هذه الحقيقة ايراداً موثراً فاعلاً
 بقدر الامكان نقول : انه بفرض المحال لو كان كون الله زمنياً فقط لقد
 كان يمكن ان يفضل عليه كون آخر ابدي . ومع هذا كله فيرضى البخيل
 ويقتنع بكثره الارضي الذي يسلبه منه الموت غداً او تختطفه اليوم
 اللصوص . ولا يبالي بالفوز بتلك الكنوز السماوية الابدية . ولعمري انه
 لو يعدنا الله في الحياة الاخرى بلذة حس واحد من حواسنا تكون ابدية
 لوجب علينا للفوز بها ان نترك جميع لذات هذه الحياة . فما اعظم تفاقم
 جهل البشر وغباوتهم . ها هوذا الله يعدنا بلذات غير متعددة وغير
 متناهية . ولا نرغب من اجلها في ان نبين لذة واحدة من اللذات
 الارضية

ثم ان الابدية لها خاصة اخرى وهي انها لا تحتوي على الزمان

المستقبل فقط . بل على الزمان الماضي ايضاً وان كان قد عبر . ولهذا
يسرّ القديسون الذين هم الان في السماء لا بالمجد المتمتعين به الان
ولا بالذي سيتمتعون به بعد فقط . بل يفرحون ايضاً بالمجد الذي فازوا به
الى الان . ولا يزالون يهنئون انفسهم بفضائلهم وافعالهم الصالحة .
وبالنسبة ان سعادتهم تشتمل على كل الازمنة وعلى جميع الخيرات .
ماضية وحاضرة ومستقبلية . فما بعد الفرق بين هذه الخيرات الابدية
والخيرات الزمنية . لان الخيرات الزمنية من شأنها ان لا تسمح للانسان
ان يتلذذ بها . لانه ما من خير او سرور زمني الا افسده نقص او خالطه
سجس او خطر . ثم لا يقدر الانسان ان يصيب لذّة من الخير الزمني
المستقبل . لان ادراكه والفوز به امرٌ يحوم حوله ريب وشك . فضلاً عن
انه لا يتلذذ بالخير المستقبل . فخوفه من الا يدركه يعكر صفاء ملذته
بالخير الحاضر . ويمنع القوة الذاكرة عن التعزية بذكر الخير الماضي
بل ان الخوف من فقد الخير الحاضر من شأنه ان يصدر الماء في النفس
يعدل في شدته فرط لذته .

واقول بالاجمال انه كيفما اعتبرنا الخيرات الابدية نراها الخيرات
العظمى فيجب من ثم ان نرتاح اليها . ونفرغ جهدنا كله في اكتسابها
ولو بذنا للظفر به كل خير زمني . والواسطة الجزيلة النفع لبلوغ هذا
الغرض هي ان نتأمل في الابدية في هذه الحياة تأملاً موافقاً ما استطعنا .
وذلك بممارسة الفضائل الثلاث المعينة من القديس برزدوس في عظمه

الاولى في عيد جميع القديسين حيث يقول : انه بالفقر والحلم والبكاء
 تتجدد في النفس على نوع ما صورة الابدية الشاملة كل الازمنة . لان
 النفس تتأهل بالفقر للمستقبلات . وترجع بالحلم الحاضرات . وبالبكاء
 تحصل ثانياً على الماضيات اه . وحقاً ان من يعتبر الابدية ويستعظمها يجب
 عليه ان يبذل جهده الجهد في ممارسة هذه الفضائل الثلاث . وذلك
 اولاً بتجرده من كل خير زمني بواسطة الفقر الروحي وببذله الزمني
 لربح الابدية . ثانياً بالحلم والصبر مواظباً على فعل الخير وعلى الظفر
 بصعوبة الفضيلة . متأملاً عظمة الاجر المعد لتعب يسير . لانه من ذا
 الذي يرى السماء وجهن مفتوحتين . ويتأمل ابدية وجوده المستقبل في
 احدهما . ولا يقوى قلبه متشجعاً ويختار ان يجتاز بالنار والماء حباً بمخلصه .
 قد خبرنا المعلم روفينوس ان احد الرهبان اتى رئيسه ليكشفه بحال نفسه
 فقال ان دوام السكنى في محده يسبب له ضجراً وحرناً عظيمين فاجابه
 الرئيس الحكيم قائلاً : اعلم يا بني ان سبب ضجرك هو انك لا تتأمل
 العذابات الابدية التي تهددك . ولا الافراح الدائمة التي ينتعش بها
 قلبنا . فلو كنت تردد في ذهنك هذه الامور لكنت تلبث في حجرتك
 بغير حزن وضجر وان استأكلك الدود وعأت كتابه هامك . اما
 الفضيلة الثالثة التي يلزمنا ان نمارسها فهي التوجع الناشء عن العبادة .
 وبه تجتهد النفس في ان تكفر عن خطاياها السالفة بالنسحاق القلب والدموع
 السخينة والاسف . لاننا بالتوبة نربح ابدية الخيرات التي خسرتها

بالخطيئة . فلا نبالين اذا بالمثل الدارج القائل ان ما صار لادواء له ولا رجوع للماضي . فان قوة هذه الفضيلة اعني بها فضيلة التوبة لعظيمة جداً . حتى ان قوتها وفعاليتها تمتدان الى الماضي . فتحو الخطايا الماضية وتزيلها كأنها لم تكن

الفصل الثامن

في ان الابدية عديمة النهاية

ان كل ما تقدم من ايضاح حقيقة الابدية وتعاريفها . لا يكفي المتأمل مؤنة لان يفهم سمو عظمتها فهماً جيداً . ومن ثم يسوغ لنا ان نقول عنها ما قاله سيونيدس الفيلسوف لما سأله جيلون ملك سيسيليا عن هذا الامر فطلب اليه ان يمهله يوماً يتأمل فيه في ما يجيبه به عن هذا المشكل ولما انقضى اجل ذلك اليوم قال انه يحتاج الى اوفر مهلة فأمهله يومين آخرين . فلما مضت المدة الموقعة طلب ايضاً اربعة ايام . واذ انقضت هذه ايضاً اجاب انه كلما تجر في هذا الامر اتسعت مادة التأمل فيه والتبست عليه صورة ايضاح المشكل . فهذا نفسه يمكننا ان نقوله عن الابدية التي انما هي لجة عميقة يغور في ثيارها عقل من غاص فيها بالتأمل ويأخذ منه الاندهال والتحير . وكما ان القديس ديونيسيوس يقول في شان الله انه لا يُعبر عنه بكلام ايجابي واقع جواباً لقولك ما هو . وانما بكلام سلبي واقع جواباً لقولك ما ليس هو وما يسمو عليه شأنه عز وجل . كذلك الابدية لنا ان نصفها في تعريفها بما لم تكنه وما تفوقه فواقعاً فالابدية

أذًا ليست زمنًا ولا مدةً ولا جيلًا ولا ربوات من الاجيال . بل هي فوق
 ربوات الاجيال وكل زمن وكل مدة . فحياتك أذًا هذه التي تنعم بها
 والتي سوف تنقضي بعد هنيهةٍ ليست بابدية . وقوتك هذه التي تتباهي
 بها ليست بابدية . كذلك املاكك وكنوزك التي تفخر بها واعزاء العالم
 المقتدرون الذين تعتمد عليهم فليسوا بابديين ولا هذه الخيرات التي
 تسر الان بها . لان الابدية شيء اعظم من كل ذلك . والاشياء الابدية
 تتعالى عن هذه كلها فانها تسمو على الممالك وعلى كل سعادةٍ عالمية . ولذلك
 قال لاكتنسيوس وغيره من المعلمين في تعريفهم اياها تعريفًا انكارياً .
 ان ما ليس له انتهاء هو ابدى . او ان الابدية هي شيء غير خاضع
 للتغير . او هي شيء لا يشبه له . اي انها شيء غير محدود وغير قابل التغير
 وفوق كل تشبيه

فنظراً الى تعريفها الاول اي نظراً الى كونها عديمة النهاية . قال
 الانبا كيساريوس ان الابدية هي نهار لا مساء له فكوكب القديسين
 لا يغيب ابد الابد . ونجم غبطتهم لا يميل الى الغروب . اما ابدية الخطاة
 فهي ظلام موت لا يضيء فيه نور الشمس ابداً . وأفق عذابهم لا يلبع فيه
 برق امداً ولا يبسم لهم فيه ثغر الرجاء . لانهم يقيمون الى الابد في
 ظلام مقتمٍ مدلمٍ حيث تحترق اجسادهم وتستكلب انفسهم على
 الدوام . فان كان الملبوب بالحملى الفاقد لذة الوسن . يحسب كل ساعة
 من ليله عاماً بل اكثر . وان كان على فراش ممدود ناعم . فاذا تكون حال

اولئك الذين يطرحون على فراش من لبيب في ليلة ابدية لا يرجون لها صباحاً. اولئك كانوا في هذه الحياة نياماً حين كان يجب عليهم ان يكونوا مستيقظين. وقد شبه الاقدمون عدم تناهي الابدية بحلقة الخاتم. وعليه اجاد المرتل بتشبيه الابدية باكليل. لان الاكليل مستدير كدائرة الخاتم لاحد له ولا نهاية كما لحظ ذلك الانبا ديونيسوس الكارتوسي. وهذا دليل على ان افعالنا الصالحة واعمالنا الرديئة تجزى ابدية لانهاية لها. ولعمري انه لكان الواجب ان ترتعد فرحاً عند قراءتنا او سماعنا كلمة لانهاية له منسوبة للجزء المعد للافعال الشريفة. وان نبتهج مهتللين اذا قرأنا او سمعنا بان ما لانهاية له معد للاعمال الصالحة. وفي بيان هذا قد ضرب القديس بوناوتورا مثلاً قال. لو ان احد المالكين يقطر من عينه كل مائة سنة دمعة واحدة وتحفظ دموعه كلها الى ان يتكون منها بحرٌ عجاج بعد الوف الوف وربوات ربوات من السنين. فترى كم سنين ودهورٍ تضي ولا يتكون من دموعه بحر عظيم بل سيل واحد لا غير. فلو فرضنا ان تكون بحر كهذا من دموعه بمرور دهور لا يحصى عددها. فهل تكون الابدية حينئذٍ بالغة نهايتها. كلا. بل حينئذٍ تبتدى. ولئن استهلكت مرة اخرى على النوع المذكور من عيني المالك دموعٌ تقطر منها بحر آخر في مدة توازي مدة تلك الدهور. فلا تكون الابدية حينئذٍ بلغت نهايتها. بل انما تكون في ابتدائها لا غير. ولو كرر ذلك عشر مرات او عشرين مرة او مائة الف مرة اخرى. فتنقطر من الدموع تلك مائة

الف بحر آخر . لما بلغنا بعد الى عمق الابدية . بل انما نكون على شطها
لا غير . فيقتصر علم الرقم عن احصاء سني الابدية ولا يقوى الحساب
على عدّها . حتى لو افترضنا ان السماوت كلها استخالت الى ورق رق .
وملئت كلها الى اطرافها من اعداد الرقم . لم تكن تحوى من الابدية
الاجزاء ما صغيراً . لقد زعم قوم من الفلاسفة على عهد اركميدس ان
رمل البحار غير متناه . وقال آخرون انه متناه الا انه غير محصى . فاخذ
اركميدس يورد غلط الفريقين . فألف كتاباً قدمه لجيلون ملك
سيسيليا مبرهنناً فيه . انه لو كان العالم كله مملوئاً من الرمل لكان عدد
حباته متناهياً محدوداً ممكنًا احصاؤه . ثم قام بعد هذا الفيلسوف الانبا
كلافيوس اليسوعي . فأورد برهاناً رقمياً موضحاً به كم حبة رمل تملئ
كل الفضاء الذي بين الارض والسما . وقد افترض حبة الرمل صغيرة
بنوع ان كل عشرة الاف حبة منها توازي حبة خشخاش او خردل كبيراً .
ومع فرط هذه المبالغة فقد احصى المعلم المذكور عددها . وحصرها
جميعها في عدد الواحد تالياً خمسين سفراً . فان كان اذاً خط صغير
يشتمل ربوات من الحبوب الرملية . فماذا يكون مقدار السنين الغير
المتناهية التي تشتمل عليها الابدية . فحقاً انه لو كانت السماء كلها صحيفة
واحدة . وامتلاء العالم كله والسما من صحف مملوءة من الاحرف الرقمية
على النحو المتقدم ذكره . فهذا جميعه لم يكن يتضمن سوى جزء صغير من
الابدية . ولذلك قد اجاد لاكتانسيوس بقوله : ترى كم سنة يلزم لكي

تتمَّ الابدية التي لانهاية لها. فاطرح من الابدية سنين بمقدار عدد نقط ماء البحر وغبار الهواء واوراق الاشجار ورمل الارض ونجوم السماء. فترى الابدية بعد ذلك على حال كما لها الاول. ثم زد على الابدية المقدار المذكور من السنين فلا يلحقها زيادة البتة ولا تكون لذلك مبتعدة من نهايتها اكثر بعداً. وذلك لانها عديمة النهاية والبدائة. وهكذا تصور جبلاً رمزياً اصله على الارض ووقته تبلغ عنان السماء. ياتيه كل الف سنة ملك ياخذ منه حبة واحدة. فالى كم من السنين يحتاج هذا الجبل الى ان يعود ارضاً ممهدة. ومع هذا فقد كان يقبل الوقت الذي فيه تنقل الحبة الاخيرة. والابدية يستحيل ان تحصل في نهايتها واخرها. فيزول هذا الجبل ولا يزول شيء من الابدية. وقد يتبين ان حقوق النبي اشار الى ذلك بقوله: تطأطأت آكام الدهر وتلاشت من قبل طرق ابديته. لانه يمكن ان كل جبال لبنان تتطأطأ وتعود ارضاً سهلة مراراً لا يحصى عددها في طول الزمان دون ان ينقص شيء من ابدية الخطاة. وهكذا يُقيم اولئك الاشقياء في وسط هذه النار الآكلة والعذابات المؤبدة الوفا في الوف وروبوت في ربوات من السنين خالدين فيها بعيدين عن نهايتها بعد يومهم الاول

فمن تراه يطبق ان يشوى جانبه مدة سنة واحدة. بل من يقدر ان يلبث سنة واحدة مضطجماً على جانبه لا يتحول من جهة الى اخرى. فيايت بني البشر يتاملون ذلك كل يوم ولو نصف ساعة. فانهم لو فعلوا

ذلك لغير واسيرتهم واصلحوها لاحالة . وقد عرفنا من الاخبار ان هذا
 التامل جزيل التأثير والفاعلية . فقد ذكر برزدوس رنثاوس عن رجل عالمي
 قد كان على جانب من التواضع عما يختص بخلص نفسه مستغرقاً في
 الرذائل منهمكاً في طلاب كل نوع من اللذات . مترفهاً بلذة الوسن .
 فاتفق مرةً انه اذ اضطلع مرتاحاً الى الرقاد اذا هو استمر ليله كله
 متقلباً من جهة الى اخرى . حتى صارت لديه كل دقيقة من الزمن بمنزلة
 عام . واذ هو على هذه الحال متملاً على فراشه . خطر له ببال فكر خاض
 في تامله فقال في نفسه . ترى ما الذي كنت تفعله وتحمله يا هذا احترازاً
 من ان تكون مضطجعاً سنتين او ثلاث سنين في ظلام مقتم . فاقداً لذيد
 مسامرات اصحابك والتمتع بتنزهاتك ولو كان ذلك على فراش ناعم .
 فلا جرم انك كنت ترى هذا عقاباً غير محتمل . فاذا واعدت انه لا
 مناص لك من هذا العذاب العتيد . فاحسن الان افكارك . واعلم
 انك ستضجع على فراش وجمعك الاخير تستمر طريحاً عليه مصاباً بتألم يبلغ
 ليالي كثيرة . الا ان ينزل بك الموت فجأة فتكون حينئذ اشقى حظاً . ثم
 بعد رقادك على الفراش المذكور حيث ينتظر الموت . سيكون فراشك
 الاخير المحفوظ لك الان الارض حيث يستأكل جسدك الدود
 وترعاه الحشرات . اما نفسك فهل تعلم متحققاً ماذا تصير اليه . لعمرى
 انك اذا ما نظرت الى سيرتك هذه الحاضرة فلا تجد امامك طريقاً
 الا التي تؤديك الى جهنم . فيالذالك الفراش الناري الذي تجده هناك

ما رهبة . فهناك وعلى ذلك الفراش يجب ان تمكث راقداً لاستنتين
 فقط بل دواماً مدى الابدية يضطرك الامر الى السكنى في ظلمةٍ مدلهمةٍ
 وعذاباتٍ موبدة . ولا تستطيع بعد الوف وروبوات من السنين ان تكفر
 عن احدى لذاتك القبيحة السيئة . فهناك لا تبصر شمساً ولا سماء ولا
 وجه الله . فيا لسوء حظي وواهاً لشقاوتي واهاً لانني ان كنت لا استطيع
 ان احتمل هذا القلق اليسير على فراش ناعم . فكيف يمكنني ان احتمل
 عذابات موبدة . فالذي يجب اذاً عليّ ان افعله انما ان اعدل عن طريقي
 لان هذه الطريق التي اسلك فيها ترمي بي في الهلاك لا محالة . هذا فائز
 فيه فكر الابدية تأثيراً عظيماً حتى لم يعد له سبيل لطرده من عقله . فلذلك
 عزم اخيراً على السلوك في طريق الرهبانية . وكان يكرر في نفسه مراراً
 هذا القول : ماذا افعل الان في العالم الشقي . اني اتنعم واتلذذ . الا
 ان تنعمي هذا سيفضي بي الى الهلاك . لانني أكره على احتمال اشياء
 كثيرة قهراً وجبراً . واشياء اخر غيرها التمسها ولا احصل عليها . وقد
 تتعني خيرات هذه الحياة جداً . وماذا يكون ثواب اهتمامي هذا الباطل .
 اني لست أصيب فرحاً تاماً . وان اصبحت فكم يدوم . ها آنذا كل يوم
 اشاهد الناس يموتون ويلجئون باب الابدية . ايتها الابدية انك ان كنت
 في مكان اخر غير السماء فانيما كنت فانت مرة مؤلمة ولو كنت على
 فراش ناعم . فلتنقن بالسماء ولنأمنن سعادتنا فيها . ولا نشتر القليل
 بالكثير . قال هذا ودخل الرهبانية

ولعمري انه كان من الواجب نخطر ببالنا هذا الفكر في كل افعالنا
ويقول كل منافي نفسه . لثواب المعد لافعال الصالحة ابدى . كذلك
العقاب المعد لافعال الشريرة ابدى ايضاً . لانه بهذا الفكر يتقوى المؤمن
على فعل الخير واحسان العمل . خبرنا اليانوس المورخ الوثني عن يسمينيا
قاصد مدينة تيبس . انه لما قدم الى ملك العجم يكشف له عما يقصده
اهل مدينته . وعرف من قبل انه يلتزم بان يسجد له . رأى ان اكراماً
مثل هذا الملك بربري مما يتجاوز الحد . فلذلك حال الحيلة الآتي ذكرها .
وهي انه نزع من اصبعه خاتمهُ . وكان عليه تمثال مرسله وكانت العادة قديماً
ان يكون الخاتم دليلاً على جلال سلطان صاحبه وجزيل اعتباره فالفاه
بلياقة عند رجلي الملك وسجد قائلاً في نفسه : اني ساجدٌ لاهذا الملك
بل لرب هذا الخاتم . فهكذا نحن لو كنا في كل افعالنا نوجه فكرنا وننتسب
الى الابدية . لم نكن نجد صعوبة في اعمالنا الصالحة البتة بل لكننا نهتف
قائلين : تبارك الله الذي يجزي باجر ابدى عن تعب خفيف وعمل
طفيف

قد ذكر عن اوربيدوس الشاعر الجزيل الاعتبار عند اليونان
انه اشكى يوماً من عقم قريحته اذ لم يقدر في مدة ثلاثة ايام ان ينظم
غير ثلاثة ابيات . فسمع به شاعر اخر يقال له السيستيدس فقال : اما انا
فاني انظم بسهولة مائة بيت في يوم واحد . فاجابه اوربيدوس ليس
بهذا عجب . لان اشعارك لاتدوم اكثر من ثلاثة ايام ثم تضحي نسيماً منسياً .

اما اشعاري فانها تبقى الى الابد . ومثل ذلك قال زوكسيس المعلم اليوناني
 الماهر في صناعة التصوير . اذ سئل عن طول مكثه في اتمام ما يصوره
 قال : اني اريد في صناعتي ان اصور ما لا يزال باقياً الى الابد . فلقد
 ضلَّ زوكسيس المصور بقوله هذا . اذ لم يبقَ شيء مما صورهُ وقد فقد
 شيء كثير من اشعار اوريبيدس . اما الصديق فلا يضع فعل من جميع
 افعاله الصالحة ابدأ . ولعمري ان اكتساب الابدية لا يقتضي متأهب
 يوم واحد . لانه عن فعل واحد من افعال الندامة الكاملة تُجزى ثواباً لا
 نهاية له . فلنستفيدن اذاً مما قال اوريبيدس وزوكسيس . ولا نكتفِ
 بممارسة الاعمال الصالحة فقط بل فلنحسن ممارستها ايضاً . ولنتقنن بالقديس
 ارسانيوس . الذي بعد ان امضى في طريق القداسة سنين كثيرة .
 كان ينزل نفسه منزلة المبتدىء . ويكرر كثيراً قول المرتل : اناقات
 والان ابتدات . فلنحذرن اذاً من ان نلاحظ ونتامل ما احتمالنا من الاتعاب .
 لكن فلنوجه عزمنا الى اتعاب اعظم من الاولى اكراماً لله . حسبما كان
 يفعل الرسول الذي قال عن نفسه انه كان ينسى ما وراءه ويتسع في فعل
 الخير فيما قدمه . وقد قال هذا القول بعد ان كان تسامى في القداسة
 جداً . وخدم الله فائدة للنفوس خدماً سامية حتى انه فاق في ذلك باقي
 الرسل . قال هذا بعد ان كان دخل مجامع دمشق الشام وبشر بالسيد
 المسيح ورمى بنفسه في خطر ان يقطع ارباً ارباً لولم ينحدر من اسوار
 المدينة هارباً . وبعد ان كان اثار شعوباً كثيرة في بلاد اربيا بنور

الانجيل المقدس. واجتذب الى الايمان اناساً لا يحصى عددهم في ترسوس
 وانطاكية وطاف مراتٍ كثيرة مملكة اسيا المعروفة بالصغرى والجزء
 الاعظم من بلاد اوربا وكابد اضطهادات شاقة ورجم مراراً. وكاد
 مرةً ان يموت من الرجم وجلد وسُجن مراتٍ عديدة. وبعد ان خُطف
 الى السماء الثالثة واجترح معجزات كثيرة. هذا وكان يعد نفسه انه لم
 يتعب بعد ولم يصنع شيئاً من اجل سيدنا يسوع المسيح. وكان كانه بعد
 في اول يوم من هُدهاهُ وتوبته. فكان يعقد عزمه ويوطدهُ على الشغل
 والعمل والتعب ومكابدة ما لم يكابد مثله في ما مضى محتسباً ذاته بعد
 هذه الخدم جميعها عبداً بطلاً لانفع له حسب مشورة السيد المسيح
 لتلاميذه اذ قال: قولوا انا عبيد بطلون. لاننا انما فعلنا ما كنا ملتزمين
 بفعله. فان كان الرسول بعد فوزه بهذه الاستحقاقات السامية نسي
 ذلك وابتدأ ابتداءً جديداً. فلماذا نحن الذين ما ابتدأنا بعد نظر من
 انفسنا وهنأ وانحطاط قوَى قبل ان نتدى. فلنبتدئ اذاً دائماً ابتداءً
 جديداً لان الابدية العتيدة التي تنتظرنا سوف تكون جديدة دائماً وعلى
 حال البدائة. قال الانبا ديونيسيوس الكارثوسي في تفسير المزمور
 السادس والسبعين. لا نفتخرن في استحقاق حياتنا الماضية ولا نحسب
 انفسنا شيئاً. لكن لنمارسن اعمالنا كل يوم بنشاط جديد كاننا في ذلك
 اليوم ابتدأنا وفيه نفسه نموت

الفصل التاسع

في ان الابدية عديمة التغير

اعلم ان خاصة الابدية الثانية هي انها عديمة التغير في دوامها . وقد اشار الى ذلك الاولون بامثال سرية . فمنهم من كان يصورها بصورة كرسي . وهكذا رأى اشعيا النبي الرب جالساً على كرسي عالٍ رمزاً الى عظمة ابديته . والقديس يوحنا في جليانه يذكر مرات كثيرة كرسي الله . مشيراً ايضاً بذلك الى دوامه تعالى الابدى . امّا دانيال النبي فقد اوضح ذلك جلياً حينما تجلّى الله له ودعا دانيال الله ربه قديم الايام وراه جالساً على كرسي وشعره ابيض كالثلج . وقد ذكر عن شعب من بلاد افريقية . انه اذ كان يشرف احدهم على الموت كانوا يجلسونه على كرسي مشيرين بصورة الجسد الجالس الى حال النفس المستقبلية وهي حال الابدية . ومن اجل هذا السبب عينه كانوا يحطون الميت في القبر جالساً . غير انهم بهذا كانوا يشيرون الى شيء اخر ايضاً . وهو انه لا يجب ان نفتش في هذه الحياة عن الراحة بل ان نطلبها بعد الموت فقط حينما ندخل ابواب الابدية . وحقاً ان الله لم يجعل هذه الحياة للتمتع بالراحة . واذا امعنا النظر في شقائها عرفنا بالكفائة ان الله لم يجعلها لتعلق بها قلوبنا . بل لان تكون لدينا بمثابة شيء مستعار او عارية تُردّ . ومن ثم لا يليق بنا ان نلتصق بها . بل الخلق بنا ان نحمد جدنا ونسعى سنناً لنذكر جبل الابدية . وقد تعلمنا حياتنا هذه الشقية بلسان حالها بانها قد توجد حياة اخرى

نجد فيها الراحة التي نتوغل في طلابها هنا عبثاً . لأنه إنما في السماء فقط
تنتهي اتعابنا وفيها نكف عن دموع نزيقها مدراراً في وادي شقائنا هذا .
فيها نجد علاجاً وتعزيةً لهمومنا . وفيها نبلغ مقرّاً تقرر فيه عيننا ويهدأ فيه
سجس قلبنا

وكان من تقدم ذكرهم يشخصون الابدية بصورة حية . مشيرين
بذلك الى خاصة الابدية المذكورة اي عدم تغييرها . اولاً لأنه كما ان
الحية ليس لها حديدن ورجلين كذلك الابدية ليس لها حد النهاية . ثانياً كما
ان الحية وان كانت عديمة الايدي والارجل والاجنحة تقفز واثبةً بخنقة
عظيمة وتسبق بعدوها وسرعة جريها بقية الحيوانات ذوات الايدي
والارجل وقد نالت ذلك كله بمحبة ما فطرت عليه من الهمة والحمية .
هكذا الابدية وان كانت بل توالي الايام والليالي التي هي بمنزلة
ارجل يجري بها الزمان تسبق بجريها كل زمن . ثالثاً ان الحية ذات
حياة مديدة كما قال فيلون الفيلسوف حتى كانها لا موت
طبيعي لها . ولذلك ليس في الحية ما في باقي الحيوانات من التغيير
كالتحول من الحداثة الى الشيخوخة ومن الصحة الى المرض . لانها تحفظ
دائماً في حداثتها . ومرات كثيرة تجدد شوبيتها بتجردها من فلوسها اي
قشرها ذلك خلا انها ليس لها طول محدود كما لبقية الحيوانات بل
تنشو وتطول دائماً شيئاً فشيئاً . هكذا الابدية لا حد لها في طولها ولا
تغير ولا تحول ولعمري ان هذا الامر ليوجس خيفةً ورعباً عظيمين في

قلوب الخطاة المهالكين . اعني الاستمرار في العذابات خلواً من علاج
وتبديل عذاب بعذاب آخر . قال القديس بولينوس عن القديس
مرتينيوس . ان راحته كانت انتقالاً من تعب الى تعب آخر . فالذي لا يزال
تعباً يُصيب راحةً اذا تبدلَ تعبهُ بتعبٍ آخر . ولعمري انه لامر يُرهب
من يتأملهُ . أن قايين اول من هلكوا وسقطوا في جهنم له الان في
العذاب ما ينيف على خمسة الاف سنة ولم يخفَّ عذابه اصلاً ولم يشعر
بعلاج ولا بتغير البتة . مع ان العالم لم يزل مشهداً للتغير في كل آن . واولاً قد
طبَّق الطوفان وجه الارض كلها وابد البشر حتى لم يبقَ منهم الاثمانية
انفار . ثم بعد ذلك حدثت تغيرات اخر مستغربة ولما كان الناس يعيشون
بحرية قهرهم الاثوريون وتسلطوا عليهم عنوةً . ثم انتقل منهم الملك الى
آخرين ولم يمضَ عليهم اكثر من الف ومائتين واربعين سنة حتى ملك
عليهم ستة وثلاثون ملكاً . واستقرَّ الملك في ايدي الماديين على اضطراب
اسياً كلها . وبعد ذلك بثلاثة سنة انتقل الملك الى الفرس ثم الى
اليونانيين ومنهم الى الرومانيين . وعلى هذه التغيرات جميعها لم يصِر
تغيرٌ ما في حال قايين اول المهالكين . هذا خلا ما عرض في مدة الزمن
المذكور من التحولات والتغيرات الكثيرة في العالم . فكم من جزيرة قد
اغرقها البحر وقد قال افلاطون ان واحدة منهن كانت اعظم من بلاد
افريقية واوربا . والبحر اخرج من عمقه جزائر جديدة . وكمن عمارة
مشيدة زعزعتها الزلازل وهدمتها . بل كم من جبال تطأطأت وتغيرت .

وكم مدن هبطت في عمق الارض وتقوّضت . وكم انهر غارت وجفت .
 واختلف جري مياهها وتحول . وكم تغيرات عرضت في بقية الاشياء .
 كم مرة تغيرت السنّة وطقوسها . كم كرّت الايام والليالي اما قايين الشقي
 اول المالكين فانه ماكث الان في ليلته المظلمة كما كان فيها اول
 يوم سقوطه . وفيما هو متعذبُ هناك قد دارت الشمس في قطبها حول
 العالم العنصري مقدار عشر كرات وستائة الف مرّة ونيف . اما قايين
 الشقي فلم يعط ان يمشي خطوة واحدة من يوم سقط في دركات النار
 الجهنمي . تأمل ما اكثر الاتعاب التي احتملتها الناس في العالم وقد
 عبرت . وما اكثر الامراض التي ادركتهم . والعذابات التي لمت
 بهم . والاوجاع التي اصابتهم . فهذا كله قد عبر وزال . اما اوجاع قايين
 الشقي وعذاباته فلم تُزل ولم تنقص بعد خمسة الاف سنة واكثر .
 فقد كان تولوماوس يتلمل من ألم الزنطارية . واريستر كوس من
 الاستقساء . وكميسيس من وجع الصرع . وطوبيا البار من العماء .
 وايوب الصديق من البرص الا ان هذه الاوجاع جميعها انتهت وبادت .
 اما اوجاع قايين فلم تنته بعد ولن تنتهي فيما بعد . سكان راباد منهم من
 نُشر من وسطه ومنهم من احترق حياً في اتون ملتهب ومنهم من قطع
 ارباً ارباً وقد شوي بريلس في جوف ثور من نحاس محمي . الا ان هذه
 العذابات جميعها قد انقضت وزالت . اما عذابات قايين الشقي فلم تنته
 ولن توشك ان تعبر وتنتهي . لانها بعد مائة الف سنة ستكون ايضاً

كما كانت في ابتدائها لا اكثر ولا اقل . فاذا يكون رجز يأسه عند
نظره ان جميع هذه التغيرات قد حدثت في كل شيء . وعذاباته لم يصبها
تغير البتة . ولعمري ان ملذات هذه الحياة لو لم تكن عرضة للتغير
لكانت عذابات مررة . فما ظنك في احتمال المهالكين عذابات عديمة
التغير . فاي غضب اذاً يستحوذ على قايين الشقي اذ يرى ان نيران القديس
لورنسيوس قد طفت . وضرب القديس اكليمنطوس الانكري
بالسياط قد كف عنه . وصليب القديس اندراوس فيني . واصوام
القديس ايلاريون انتهت . ومسح القديس سمعان العمودي عدم .
والات تقشقات القديس دومينيكوس تلاشت . وجميع عذابات الشهداء
وتقشقات المعترفين قد زالت واستحالت الى لذات ابدية . اما عذابته
فلم تعبر ولم تتغير ولا يبسم له ثغر الرجاء في انها تنتهي او تتحول . فحقاً
ان هذا من شأنه ان يوغر قلبه الماء ويفتت كبده حزناً ولا سيما اذ يرى
انه عاد من الممتنع ان يجد علاجاً ودواءً قد كان في وقته متيسراً سهلاً .
وذلك كالغني الشرير الذي كان يقدر ان يشتري الافراح الدائمة
بالبقات الساقط من مائدته . والان يرى ابراهيم الجواد ينخل عليه
بقطرة ماء

فليتنبه اذاً المسيحي من رقاده . وليفتحن عينيه . وليهتم في ما هو
قادر عليه الان . اي في مداواة ما لا يقدر على مداواته فيما بعد . فدونه الزمن
الحاضر فانه مقبول ومناسب . الان وقت الخلاص والغفران . الان في

دقيقة واحدة يمكننا ان نكسب ما لا يمكن ان نكسبه فيما بعد في مدة
الابدية كلها . وهذا النصُّ قام دليلاً عليه لهيب اتون بابل الذي ارتفع
تسعاً واربعين ذراعاً حسبما يذكر عنه الكتاب المقدس ولم يبلغ الى
الخمسين . والسرف فيه ان عدد الخمسين كان رمزاً الى الغفران
الاسرائيلي العام . فهكذا لهيب جهنم المرموز اليه باللهيب البابلي . فانه
وان كان فوق كل عذابات هذه الحياة . فلا ياول ابداً الى ربح الغفران
والفرار من العذاب ولو استمرَّ ربوات من السنين . ترى كم كان يعطى الهالك
لكي يستطيع ان يمارس التوبة مقدار ربع ساعة من الايام والاشهر
والسنين التي يصرفها الان بنو البشر باطلاً عبثاً . فلا نبذرن اذاً هذا الشيء
الجزيل الثمن . ولا نضيعن الزمن والمجد الابدي معاً . ولا نلق بانفسنا
في خطر السقوط في جهنم . ان زمن هذه الحياة لثمين بهذا المقدار حتى
ان القديس برزدوس قال عنه مبالغاً ان ثمنه يوازي ثمن الله عينه .
وذلك لانه نكسب الله نفسه . فلا نبذرن هذا الشيء الجزيل ثمنه .
بل فلنرجن به الابدية واله الابدية ايضاً . فالجهلة العالميون يقولون
لنتنعم الان . اما الحكماء الذين حنكتهم الايام فيقولون ان الاجدر بنا
ان نتخلّى عن التنعم الزائل لنتربح التنعم الابدي . العالميون يقولون لنتممكن
الان بملذات الحياة الحاضرة . اما عبيد السيد المسيح فيقولون لنتمت الان
اجسادنا لكي نحجي الى الابد . الخطاة يقولون لنتمتعن الان بتزهات العالم .
اما اتقياء الله فيقولون لنهجرن هذا العالم المتغير والمتحول سريعاً لنكون مع

القديسين في السماء الى ابد الدهور

الفصل العاشر

في ان الابدية لا مثل لها ولا شبيه

كما انه لا مناسبة ولا مشابهة بين المتناهي والغير المتناهي كذلك لا
مماثلة بين الزمني والابددي . ومن ثم كما ان حبة الرمل والجبل العظيم
يستويان بالبعد عن عزّة الله . هكذا لحظة عين ومدة الف سنة تبعدان
عن الابدية على حدٍ سوى . ولهذا قال بولسيوس ان المناسبة ما بين
دقيقة واحدة من الزمن وبين الف سنة هي اعظم من المناسبة التي
بين الف سنة والابدية . وعليه ان المرتل لما شرع يتأمل في الزمن الماضي
منذ ابتداء العالم الى عصره . لقب الاجيال السالفة بالايام بقوله تفكرت
بالايام القديمة . وليس بعجب انه دعاها هكذا حيث انه في مكان آخر
قال ان الف سنة في عيني الرب كيوم امس الذي عبر . وقد احسن
القديس يوحنا الانجيلي اذ دعا جميع السنين التي تدوم من عصره الى
انقضاء العالم ساعة واحدة . اما دنيال النبي فاذا تكلم عن مجد الرسل
القديسين قال انهم يرضون كالكوكب الساطعة الى الابديات الدائمة .
هكذا بقية الانبياء يدعون الابدية ابدية دائمة وسنين ابدية ودهور
الداهرين . وهذه كلها كلاشيء في ايضاح دوام الابدية الابددي . فلوان
قائنا عاش الى يومنا هذا متمتعاً بكل سعادة هذا العالم . ثم مات في هذا
اليوم . لما كان له من جميع هذه الايام شيء اكثر مما لاخيه هاييل الذي

قتله منذ خمسة الاف سنة ونيف . ولم يكن بقي له من كل لذاته سوى فكر
 زوالها بينما هي زهقت وضاعت كمنقطة في بحر الزمن وايام الابدية التي لا
 تحصى . لانه ان كان شر عذاب ساعة واحدة ينسينا تنعماً عظيماً كما قال ابن
 سيراح . وان كان عذاب ساعة واحدة يحو ذكر لذات سنين كثيرة . فكيف
 لا يحو عقاب ابدى ذكر لذة لم تستمر الا دقيقة واحدة والتي فاعلمها في جهنم .
 وان كانت دقيقة موت الجسد تعدم الانسان كل لذة . فما الذي تفعله ابدية
 موت النفس . فما الذي بقي للملك اليوغابولوس في ساعة موته من جميع
 ملذاته . لاشيء البتة ومنذ دفن في ابدية اللجة لم يبق له سوى عذاب فوق
 عذاب ووجع فوق وجع وشقاء على شقاء وويل ابدى بل يزاده ايضاً . ان
 الناس جميعهم في ساعة الموت متساوون بالنظر الى هذه الحياة . لان الذي
 عاش كثيراً وتنعم تنعماً وافراً والذي عاش قليلاً وتنعم قليلاً او تعب كثيراً
 يكونان مستويين في ساعة الموت . لا يشعر ذاك بعد بالتنعم ولا هذا
 بالتعب . فالقديس روموالدوس الذي اصرف مائة سنة عاشاً عيشة
 قشقة جداً لم يعد يحس بعد وفاته بشيء من جميع تقشفاته . وهكذا القديس
 المعظم سمعان العمودي لم يشعر بعد وفاته بشيء من جميع تلك التقشفات
 الغريبة التي مارمها مدة ثمانين سنة فمسخه ذلك الحشن الذي لبسه في
 هذه المدة المستطيلة ولم ينزع عنه ليلاً ولا نهاراً . لم يعد الان يورثه الماء
 ما اصلاً . واصوامه تلك المتصلة وصلواته المتتابعة لم تعد تضائقه الان بتة .
 لقد انقضت هذه وزالت ولم يبق منها اثر . لقد زالت جميع تلك العذابات

القادحة التي عذب بها الملوك والقضاة المغتصبون اكليمينوس الانكري
 مدة ثمان وعشرين سنة . والان لم يعد يشعر منها بألم اصلاً . لكنه من
 اجل اتعابه هذه يفوز الان بجوز المجد الابدي

فليتأمل الان المسيحي ما يجب عليه ان يختاره . وليذكر ان اللذات
 التي يخطأ بها الانسان والاعتاب التي يكفر بها عن خطاياها ستنتهي على
 حدٍ سوى . واما العذاب المسبب عن الخطيئة والثواب الناشئ عن
 الاعمال الصالحة فلا ينتهيان ابداً . وحينئذ هو بالخيار مما شاء وليعلم انه
 خير له ان يربح مجداً ابدياً بتعبٍ خفيف وجيز اعني به تعب التوبة .
 لان التوبة وان دامت مائة سنة . فانها بالنسبة الى الابدية بمثابة دقيقة
 واحدة من الزمان فلا يشكون من يمارس افعال التوبة من طول الحياة
 التي ليست بطويلة بازاء الابدية . وقد قال القديس اغستينوس قولاً
 حسناً : ان كل ماله نهاية فهو قصير . والحال ان الف سنة وربوات
 سنين لها نهاية . فهي اذاً قصيرة . وهكذا كل زمن وان بان لنا طويلاً
 جداً فهو قصير وبمنزلة دقيقة واحدة بالنسبة الى الابدية . فان كانت
 الارض كلها بالنسبة الى السماء ليست الا بمنزلة نقطة واحدة مع ان
 السماء محدودة . فهل من عجب ان لا يكون الزمن كله سوى دقيقة واحدة
 بالنسبة الى الابدية الغير المحدودة . فيالتفاهم جهل بني البشر الذين
 يستعظمون الزمان . ويبدلون المجهود في تحصيل اللذات الزمنية والجاه
 العالمي في هذه الحياة القصيرة . اخبرني يا صاح لو منحك الله نصف

ربع ساعة فقط من الحياة . واعلم لك انه بعد موتك ينتهي العالم كله ويتلاشى . فهل كنت تصرف ذلك الزمن في طلب الميزات والكرامات الارضية . قال القديس يوحنا البشير ان العالم في عصره كان قد بلغ ساعة انتهائه . مع ان السنين التي كانت من عصره الى انتهاء العالم كثيرة جداً . فذلك لان هذه السنين جميعها بالنسبة الى الابدية لم تكن غير ساعة واحدة . فكما انك لم تكن تفكر في ان تبقي لك ذكراً بعد موتك لو كنت تعلم ان العالم ينتهي بعد ذلك بساعة واحدة . فهكذا لا تفكرن الان في ذلك ولو بقي من الزمن اجيال كثيرة

قل لي يا هذا لو علمت يقيناً انك تعيش مائة سنة وانك لا تستطيع ان تصيب شيئاً من المأكل الضروري لمعيشتك فيها الا في ساعة واحدة لا غير . وقد اذن لك ملك جواد ان تخرج فيها من كنوزه ما تشاء لتقتات به فهل كنت تصرف تلك الساعة في الباطل . كلا . بل كنت تبادر مسرعاً وتأخذ من تلك الكنوز ما تستطيع . فلم تتواني وتتغافل وانت تعلم انه لا يكون لنفسك في الابدية غير الذي ترجه الان وتستحبه في ساعة هذه الحياة الحاضرة . فاعتبر الان ما اقصر الزمن المعطى لك لتعد فيه زاداً كافياً لابدية حياتك المستقبلية فكيف لا يهملك ذلك . لم تلهو بمنترهات هذا العالم منهمكاً بالضحك والهزء والتعجم . لم لاتهمم بعكس ذلك في اقامة ماتم الندب والندامة . ولا تمزق جسدك بصرامة تقشف التوبة . والحال انه كما قال حسناً القديس اغستينوس في تفسيره المزمو

السادس والثلاثين . قد كان يجب ان ترتضي باحتمال تعب ابدى رغبةً في اكتساب راحة ابدية . وان تُعثرُ وجعاً ابدياً طمعاً في سعادة ابدية . قال الحكيم في سفر الامثال : في يمينه طول الايام وفي شماله المجد والغنى . وبهذا اشار الى انه يجب عليك ان تفرغ كل جهدك في اكتساب الابدي وتوثر الفضيلة على كل شيء زمني . لانه كما ان اليد اليمنى ذات قوة واليسرى ضعيفة . هكذا يلزمنا ان نبذل كل قوتنا في حفظ الابدية لاني حفظ الاشياء الزمنية . لان اعظم خيرات هذا العالم واسمى مجاده ان لم تكن ابدية فلا تفيد شيئاً البتة

الفصل الحادي عشر

في ماهية الزمن على رأي اريسطوتاليس وغيره من الفلاسفة
وفي سرعة تغير هذه الحياة وزولها

انه وان كان مما تقدم ايرادهُ قد اتضح لنا ماهية الزمن والحياة الزمنية وما يعبر ويذول مع الزمن . فينبغي الان بعد ايضاح الابدية المتقدم ان نتأمل ذلك بوجه الخصوص والتفصيل لكي نفهم حسناً خسارة الاشياء الزمنية وعظمة الاشياء الابدية . فتعريف الزمن على رأي اريسطوتاليس هو هذا : معيار الحركة او قياسها . فحيث لا حركة لا زمن اصلاً . وقد اوضح ذلك ايضاً سبوسيديوس الفيلسوف بقوله . ان الزمن هو قياس سير الشمس . وقال بروكلوس انه هو عدد دوران الاجرام السماوية وزعم الفلاسفة الفيثاغوريون ان الزمن هو الكرة الاخيرة التي

تحرك الكرات الاخريات . اي هو السماء الاخيرة التي تفوق سرعة
حركتها طور العقول . وعلى حسب هذا الرأي قال البرتوس الكبير . ان
الزمن هو قياس حركة المحرك الاول . فالزمن اذا هو شيء عديم الثبوت
كالحركة . ولهذا قال ابن سينا ان الزمن هو شيء دون الحركة ايضاً .
هل يمكننا ان نعلم على الحياة البشرية التي هي عديمة الثبوت وجزيلة الضعف
وسريعة في سيرها كالشمس ونجوم السماء التي تفوق في سيرها سرعة سير
الطيور وهبوب الرياح كلها . فالباشق جزيل السرعة في انقضاضه على
العصفور . واسرع منه السهم المرعي من كبد القوس . واسرع من هذا هي
الصاعقة المنقضة المنحدرة من عنان السماء . الا ان هذه جميعها لا تريا سرعة
عدو الموت وعبور الزمن الذي يطير كنجوم السماء على حدٍ سوى .
والحال ان النجوم على حسب التحديد المرسوم من المعلم كالاوفوس
اليسوعي تقطع بسيرها في مدة ساعة واحدة اربعائة وعشرين كرة ميل .
فبهذه السرعة يسير الموت في طلبك . فكيف لا تجزع ولا ترتعد .
فالقوس موتورة مشرعة اليك . وقد طار السهم منها وقرب منك فكيف
لا تطأطأ رأسك قلما يكون . وكيف لا تتضع نادماً . انك ان عرفت بان
واحداً وضع ناراً على مدفع ليطلقه عليك . اما كان يأخذك الخوف
والرجفة والرعب . وان قيل لك ان السهم المميت قد رُشق وطار اليك
اما كنت تموت من شدة الخوف والرعب والحال انه من المحقق ان
الموت الاتي اليك يسير في طلبك باعظم من سرعة السهم . وانه في

كل ربع ساعة يقطع عشر كرات من المراحل ليصل اليك ولست
 تعلم متى رُشِقَ . ومن ثم عليك ان تتوقع حدوثه في كل دقيقة
 واعتبر فوق ما اعتبرت في سرعة الزمن صفةً أُخرى له وهي التي عينها
 اريسطو تاليس بقوله . الزمن قياس الحركة . وبالتالي انه شيء مُركب من
 اجزاء سيالة منسربة يتبع بعضها بعضاً . وهذه الصفة على ما لاحظهُ الامام
 ابن راشد الاندلسي . هي من متعلقات الزمن ضرورةً وجوهراً . فيستحيل ان
 يأتي الزمن باشياء متحدة مقترنٍ بعضها ببعض . بل انما يأتي بشيء بعد
 آخر . فلا يمكن ان يكون الشيء الثاني في حيز الوجود الا بعد زوال
 الشيء الاول . فالخيرات التي يمكن الانسان ان يتمتع بها وهو طفل
 تبارحه اذا شب وتعبها خيرات الشبوبة . وكذلك هذه تغادره اذا
 شاخ ووظه الشيب . فامعن الان النظر في ما عبر من حياتك وتامل
 اين الان طفوليتك وصباك وشبوبيتك . فتجد فيك ميّات مختلفة .
 فافحص هكذا عن الرجولية والشينوخة فتجد انك قد متّ مرات كثيرة
 وقد اصاب اليلسوف بقوله انه ما من دقيقة واحدة من الزمن الا قسمها
 الموت بينه وبيننا فآخذ منها نصيبه . واذا ما احسنا النظر واطلنا الفكرة ترى
 اننا لانعيش اكثر من دقيقة واحدة من الزمن . لانه ليس لنا من الحياة
 الا الدقيقة الحاضرة لان السنين العابرة قد ذهبت سلفاً وليس لنا الان
 منها شيء البتة . فكاننا قد متنا نظراً اليها . اما السنون المستقبلية فلم ندخلها
 بعد ولم نصب منها شيئاً . فكاننا لم نولد بعد . فنهار امس قد مضى .

ونهار غدٍ لانعلم هل نحظى به ام لا . وقد عبرت ساعات كثيرة من اليوم الحاضر وزالت منّا . والساعات الباقية المستقبلية لانعلم هل تبلغ اليها . وعليه فلسنا نتمتع بالحياة الا في هذه الدقيقة التي نحن فيها وفيها نفسها نحن ايضاً مائتون . وبالنتيجة لا يسوغ لنا ان نعبر عن مدّة حياتنا الا بنصف دقيقة او شيء غير قابل التجزّي بل ينازعنا الموت هذه الدقيقة الغير المتجزّية ايضاً وبكل صدق وصواب يمكننا ان نسمي هذه الحياة مع زكريا النبي ظل الموت . لان الموت ياتينا تحت ظلها . فكم ان كل خطوة يمسيها الانسان يليه فيها ظلّه . هكذا كل خطوة من حياتنا هذه تتبّعها خطوة الموت . فالحياة اذا عكس الابدية . لان الابدية تبتدى دائماً وليست الا ابتداءً دائماً . اما حياتنا الزمنية فتنتهي في كل دقيقة . ويمكننا ان ندعوها انتهاءً او موتاً متصلاً . ولهذا لا يمكن التمتع بخيرات حياة مثل هذه الحياة . لانه اية لذة يمكن ان يحصل عليها من ينظر جواداً قوياً مسوماً مزيناً بسرجه ان كان لا يزال جارياً راكضاً بكل عزمه . فهكذا الاشياء الزمنية تجري مسرعة في ميدان هذه الحياة . ولذلك لا يمكن التمتع بها

الفصل الثاني عشر

في ان قصر هذه الحياة يصير كل شيء زمني
اهلاً بالاحتقار

حقاً ان الحياة الزمنية هي اسرع زوالاً من جميع الاشياء التي يتمتع

بها الانسان. لان الارزاق والمواريث والثروة وما يضاهاها تبقى موجودة
 بعد موت الانسان. اما الحياة فلا. لانها لفرط لطافتها وضعفها تزل
 وتبيد بقليل من البرد او الحر او من قبل رائحة يسيرة او نفس شخص
 مريض او مقدار ذرة سماً. فمثل هذه الاشياء اليسيرة تكفي لهدمها
 وازالتها. ومن يتأملها جيداً يجدها اسرع عطباً من الزجاج. لان الزجاج
 يستقيم اذا لم يلمسه احد. واما حياتنا فانها تبيد وتفنى ولو لم يلمسها احد.
 والزجاج اذا حفظ باحتراس يدوم دهوراً كثيرة. اما حياتنا فلا يمكن ان
 نحفظها وان ابذلنا البغ الاحتراس. وهذا قد فهمه جيداً اسعد ملوك
 اسرائيل وفضلهم اقتداراً اعني به داود الملك العظيم. الذي ضم الى ملكه
 مملكتي يهوذا واسرائيل. ومدّه طامحاً الى اقليم اخر. وملاء خزائنه من
 الفضة والذهب فهذا الملك العظيمة سطوته والجزيلة سعادته. لما رأى ان
 عزته هذه العظيمة لها يوم تنتهي فيه. دعا ملكه وكنوزه حتى حياته
 باطلاً. ولهذا قال هوذا جعلت ايامي محدودة وقوامي كلا شيء امامك
 (مز ٣٨: ٦) فكانه يقول ان كل الذي امتلكته من الغنى والسطوة فهو باطل.
 وحياتي نفسها هي باطلة بل اكثر بطلاناً من بقية الاشياء. فهذه حال
 الاشياء الزمنية وان ازمعنا ان نتمتع بها الف سنة. فما الذي يجب علينا
 فعله اذ ازمعت ان تنتهي سريعاً وقبل الوقت الذي نخاله. فياليتنا نفهم
 جيداً قصر هذه الحياة. لقد كنا ندرى بلذتها الباطلة ونحترق تعمها
 الزائل. ان هذا الامر ضروري وجزيل الاهمية. حتى ان الله تعالى امر

احد انبيائه ان يخرج الى الازقة والشوارع . ويطوف المدينة صارخاً
 كبوق حي . قائلاً ما اقصر حياتنا وأسرع زوالها . واذ كان اشعيا العظيم
 منذراً بروح النبوة باعظم الاسرار واغمضها اعني به سر تجسد الكلمة
 الازلي . سمع بغتة صوت الرب قائلاً له اصرخ اصرخ . فاجاب النبي
 قائلاً : ما الذي تريد يا رب ان انادي به صارخاً . فاجابه الرب قل هو
 كل ذي لحم حشيش (اش ٤٠ : ٦) . لانه كما ان الحشيش الذي اخذ
 صباحاً يحف مساءً وينفئ . والزهر يذبل بدقيقة واحدة من الزمن .
 هكذا حياة كل ذي لحم تنفئ سريعاً . ويتضمر وجه جمالها ويضمحل
 بهاؤها في يوم واحد

وقد اراد الله بالنبي ان ينادي منذراً بقصر حياتنا حينما كان ينذر
 بالسر المحجوب عن افهام البشر وهو سر التجسد الالهي . وذلك لان
 ضرورة معرفة هذه الحقيقة اعني قصر حياة الانسان وصعوبة فهمها
 هي بمنزلة سر خفي . لانه ولئن كانت الامثال والنموجات اليومية تعلمنا
 هذه الحقيقة . فمع ذلك يظن الاكثرون ان انتهاء حياتهم لم يزل بعيداً .
 فلنستوعبن اذاً هذه الحقيقة . ولننتقن ان كل ذي لحم حشيش . وكل عمر
 قصير . وكل زمن وجيز . وكل حياة مضحكة . وانه مجموع السنين وان
 عظم في عدده عدم

ولنتعلم ايضاً هذه الحقيقة ممن كان خبيراً بمعرفة هذه الحياة وان
 خالج قلبك انك تعيش مائة عام . وخال لك انها حياة مديدة . فأصغر

لما قاله أيوب البار الذي عاش مائتين وثمانين واربعين سنة . ومن ثم امكنه
ان يعرف حسناً ماهية حياتنا ويقف على ما فيها من سعادة وشقاء . قال :
ان سني ليست شيئاً . فعنده اذاً ان الحياة التي تدوم ثلثة اجيال ليست
بشيء . وقد تكلم مرات كثيرة في هذا الشأن عن قصر الحياة . وفي
ايراده ذلك اقام تشابيه واستعارات مختلفة . فتارة تسمعه يقول ان ايامه
اسرع من ساعي البريد . وطوراً يخبر انها مرتت اسرع من مرور سفينة في
بحر تكدها ريح شديدة او اسرع من نسر منقض على طائر . وحيناً ان
ايامه انقضت باعجل من ثوب قصه حائك . ومرة ان حياة الانسان
كزهريداس حينما يزهر وانها تضحل كظل لا ثبات له . ولعمري فلا
جرم ان ذهب مذهبه لا الذين عاشوا ثلثة اجيال فقط بل الذين عاشوا
اكثر من ذلك كالذين كانوا قبل الطوفان اكثرهم الان في جهنم .
اسمع ما يقوله هؤلاء الان ماذا نفعنا الكبرياء ولم يُغن عنا شيئاً من
عذاب الغنى والافتخار . لقد عبرت هذه كلها وجازت كالظل . فان كان
الهاكون هكذا يقولون ويحككون على عمر ثمانمائة سنة انه ظل وانهم
كالذين توفوا بعد ولادتهم بدقيقة واحدة . فكيف يُخيّل لك انك تعيش
عيشة مستطيلة وفي عصرنا البلوغ الى عمر ستين سنة شيء عظيم . ولذلك
شبه اوميرس الشاعر اليوناني حياة الانسان بورق الشجر الذي لا يدوم
اكثر من فصل سنوي . وكان الفلاسفة والتديسون لم يجدوا عبارة
يستوفى بها قصر هذه الحياة . ولا عثروا على تشبيه واف بايضاح هذه

الحقيقة. وقالوا انه لا عدو البريد ولا سرعة جري السفينة في البحر ولا طيران
الباشق ولا مروق السهم في الهواء يعبر لنا اتمّ تعبير عن قصر هذه
الحياة وسرعة زوالها. ولهذا قال فيلاموس ان حياة الانسان ليست
الا ولادة وموتاً. وانا عند ولادتنا نخرج من قبر مظلم وعند موتنا نلج
قبراً اظلم وافزع. ثم اذا اسقطت من مدة هذه الحياة القصيرة ما يمضي
بالنوم فتكون قد اسقطت ثلثها. وان وجب ان لا يحسب زمن الطفولية
او غيره مما يمنعنا عن معرفة ثمرة الحياة والتمتع بها. فلا يبقى لنا منها سوى
نصفها. وهذا النصف الذي ازلته في حسابك منزلة محقق اكيد. اظنه
انا غير محقق ولا صحيحاً. وانك لضال في حسابك هذا لان الحكيم يقول
ان الانسان لا يعرف يوم انتهائه. ولذلك كما ان السمك والطائر حينما
يظنان انهما بعيدان عن الشرك يقعان فيه بسرعة. هكذا الموت يمشي
وراء الناس ويقتصمهم حينما يكونون متعافلين متغاضين عنه. فتأمل اذا
ما احقر الاشياء الزمنية وما اسرع زوال كل مجدٍ عالمي. لان جميع
خيرات الارض لا ترافقنا الا في زمن حياتنا. فان كانت الحياة عينها
شيئاً دنيئاً. فالخيرات الزمنية التي ليست بخيرات الا بالنسبة الى هذه
الحياة احقر وادنى. ان ذلك التمثال الذي رآه بختصر الملك وان كان
مولفاً من معادن ثمينة كالفضة والذهب فكان قائماً على قوائم من خرفٍ.
فلما صدمته حصيٌ صغيرةٌ سُحق جذاذاً. فما احقر وادنى هذا المجد
العالمي المتأسس على هذه الحياة التي تفنيها الاقطعة حجر فقط بل بزره

واحدة من عنقود . فحسناً قد قال المرتل ان الانسان وكل ما في حياته باطل بطلاناً . لان قصر الحياة وحده لكافٍ ان يردَّ كل خيرات الانسان دنيّةً . فالكرامات الدنيوية باطلة . وباطلة هي ثروة هذه الحياة ولذاتها اذ كانت الحياة نفسها باطلة زائلة

قد ذُكر عن الانبا غيريكوس من رهبانية القديس دومينيكوس . الذي قبل دخوله الرهبانية المذكورة كان فيلسوفاً وطيباً ماهراً واصار بعد ذلك معلماً لاهوتياً بارعاً . انه اذ سمع يوماً قراءة الاصحاح الخامس من سفر التكوين حيث يورد الكتاب المقدس نسبة آدم ونسله : عاش آدم تسعمائة وثلاثين سنة ثم مات . وعاش ابنه شيت تسعمائة واثني عشرة سنة ثم مات . فشرع يقول في نفسه : ان كان مثل هؤلاء الرجال المعظمين الذين عاشوا مثل هذا العمر المديد حدث بهم حادث الموت واتمته حياتهم . فلا يسوغ لنا من الان فصاعداً ان نضيع الزمن في هذا العالم . بل يجب علينا ان نجعل حياتنا في حالة ذات طمأنينة وامان . لكي لانخسرها عند انتهائها . (آه) وعليه ترك العالم وترهب في رهبانية القديس دومينيكوس حيث قضى حياته بعيشة مقدسة . فيا لكشافة جهل البشر الذين مع علمهم بقصر هذه الحياة يهتمون جداً في اطالتها وقال سينيكا الفيلسوف : انه لاشك ان الجميع يستطيعون ان يعيشوا عيشةً صالحةً . وما من احدٍ يستطيع ان يعيش عيشةً مستطيلةً

فكل ما له نهاية شيء يسير دني لأن مرجعه الى التلاشي . فلماذا
 تريد ان تخسر الكثير لاجل شيء يسير . وتفقد العين طالباً بعدها الاثر .
 فامسك نفسك عن لذة ما لئلا تعدم جميع اللذات الى ابد الابد . احتمال
 الان بعض التعب احترازاً من ان تضطر الى احتمال عذاب غير محدود
 في زمن غير متناه . لانه كما قال القديس اغستينوس . قليل من المرارة
 في الحلق خير من عذاب ابدى في الاحشاء . فعلنا السيد المسيح ان كل ما
 يزول مع الزمن هو شيء قليل . اذ دعا زمن الامه وجزاً . وان كانت
 الالوجاع التي كابدها فيه مرة وشديدة جداً . هكذا الزمن الذي احتملت فيه
 رسله اضطهادات شديدة وعذابات قاسية وميتات هائلة دعاه أيضاً قصيراً .
 وكذلك الزمن الذي نصرفه نحن في هذه الحياة هو قليل ايضاً ويسير
 جداً بالنسبة الى سني الابدية . الا ان هذا الزمن القليل زمن حياتنا هذه
 يبين لنا كما قال القديس اغستينوس زمناً مديداً طويلاً لاننا نتقلب
 فيه . فاذا انتهى نعلم ما كان اقصره . فلو عددنا انفسنا مشرفين على
 الموت لعرفنا حينئذٍ فرط قصرها . وان كل شيء فيها ولو مهما بان لنا
 عظيماً هو كاشي . بالنسبة الى الابدية

ان السيد المسيح ارسل الى الانبا كريستوفروس اليسوعي
 الجزيل الفضيلة والاعتبار من يقول له ان يتأمل جيداً هتتين
 القضيتين : ما اعظم : وما اقل . فكأنه تعالى يقول ما اعظم الابدية
 التي لانهاية لها . ما اعظم الحظوة بالله الى الابد . ما اعظم الجلوس

مع السيد المسيح على كرسي مجدي ابدى . وما اقل واقصر واحقر
 زمن هذه الحياة وكل ما فيها من التمتع الزمني . وهكذا القديس
 برزبوس لم يزل يكرر على رهبانه قول القديس ابرونيوس . انه لا يجوز
 لنا ان نستصعب التعب والعذاب الذي به نرجح المجد الابدي ولا ان
 نشكو من طول مدته . فقد استخف يعقوب البار بتعب خدمته لابان
 مدة سبع سنين . وذلك لا فرط حبه لراحيل . فكيف يجوز لنا نحن ان
 نستصعب ونستثقل الزمن الذي نصرفه في خدمة الله . فاعتبر متأملاً من
 الذي تخدمه ولماذا تخدمه . ومن ذا الذي كان يخدمه يعقوب ولماذا كان
 يخدمه . فترى انك تخدم الها حقاً حياً بمجد ابدى . وان يعقوب كان يخدم
 رجلاً وثنياً خبيثاً حياً بجمال راحيل . فقابل الان خدمتك مع خدمة
 يعقوب . وانظر هل لك الان في خدمة الله عشرون سنة مدة خدم فيها
 يعقوب لابان خاله . انظر هل يمكنك ان تقول عن نفسك ما قاله
 يعقوب عن نفسه . احرقني الحر في النهار والبرد في الليل . وكان النوم
 يطير عن جفني . فهذه الخدمة الحسنة خدم رجل صديق رجلاً وثنياً .
 فكيف يجب عليك ان تخدم الله وانت متعب له . اما يجب ان يبين
 لديك قليلاً كل ما تفعله في خدمة هذا الرب العظيم رجاء اجر عظيم .
 فانظر ما الذي تصرف فيه سنك القصيرة التي من بها عليك لكي
 تستحق بها سعادة ابدية . وانت تدعها تجري عابرة عبثاً . لا تجني منها
 فائدة ولا نفعاً

الفصل الثالث عشر

في ان الزمن هو فرصة الابدية

ان الزمن مهما كان قصيراً سريع الزوال . خصَّ بصفة جزيلة الثمن والاعتبار . وهي كونهُ فرصة الابدية . لاننا بمدةٍ يسيرة منه نستطيع ان نربح ما نحن مزمعون ان نتنعم به الى الابد . ولهذا قول القديس يوحنا الانجيلي المحرر في النسخة اللاتينية : قد اقترب الزمن : يقرأ ايضاً في النسخة اليونانية : قد اقتربت الفرصة (رواً ١ : ٣) . وذلك لان زمن هذه الحياة فرصة بها نستطيع ان نكتسب الحياة الابدية . فالاقدمون لمعرفتهم بضرورة نفع الفرصة وعظم فائدتها جعلوها الهماً ليدنوا بذلك الفوائد الجليلة الواصلة منها للذين ينتهزونها . وكانوا يرمزون اليها بامرأة على بكرةٍ تدور دائماً . ولها على رجليها اجنحة كانوا يشيرون بها الى سرعة جريها . وكانت ذوائب شعرها المسدولة على وجهها تصدّها عن النظر . وكان ذلك دليلاً على صعوبة معرفة الفرصة . واذا حضرت واستعرفت اليك فلك ان تقبض عليها بشعرها اما من وراء فلا شعر لها . بل رأسها من ورائها جرد . لان الفرصة اذا فاتت مدبرةً فلن تجد من ورائها ماتسكها به اما اوسانيوس الشاعر الوثني . فزاد على ذلك ما يدل به على الندامة التي تستحوذ على من يدع الفرصة ان تجتاز باطلاً قال : ان الندامة مركبة على منكبها . لانه بعد مرورها لا يبقى شيء اخر غير الندامة . واخرون صوروا الفرصة بايدٍ مملوءة هدايا واموالاً وافرة تجتذب

بها اليها اناساً كثيرين من الانام . سائرة صحبة الزمن الذي كانوا
 يصوروه بزى متغرب ذي اربعة اجنحة . فلو أمر ملك قدير معلماً ماهراً
 بان يهيئ له صنيعاً يفرغ في عمله صناعته ويعد له لوقت يريد الملك
 ويطلبه منه . وكان هذا العمل يقتضي مهلة سنة فلا يمكن ان
 يطلبه الملك قبل تمام هذه المدة . واذا خالف امره قضي عليه بالموت .
 هل كان هذا المعلم يتهاون في تكميل هذا العمل . فقل لي الان
 يا هذا السنن الذين توعدنا الله بخسارة الحياة الابدية ان لم نكن بحجنا في
 نفوسنا صورته تعالى وثبتنا في نعمته . فكيف اذا نتهاون في هذا العمل
 الذي امرنا تعالى به بوصية صارمة . وندع فرصة ربح خلاصنا ان تجتاز
 باطلاً

قال تالوفرستوس وديموكريتوس الفيلسوفان . ان الزمن هو نفقة
 ثمينة جداً . وقال زينون الفيلسوف ان الزمن هو الشيء الذي يحتاج
 اليه الانسان اشد احتياج . اما بلينيوس فكان يعتبر الزمن عظيماً . حتى
 انه لم يكن يضيع منه دقيقة واحدة . واذا ابصر يوماً ابن اخيه متشيئاً تنزهاً
 زجره ووجهه على ذلك قائلاً : لقد كان يمكنك ان تصرف هذا الزمن في
 امر افضل وانفع . ومرة اخرى اذ كان ذلك الشاب يسمع احد خدامه
 يقرأ عليه كتاباً وانفق ان اخطأ القارئ اوقفه الشاب ليصحح غلطه . فعند
 ذلك بلينيوس نقيصة في ابن اخيه وتضيع زمن وواخذه على ذلك وونبه
 ايضاً . وكان سينيكا الفيلسوف لما وفر في نفسه من اعتباره الزمن كان

يفضّله على كل شيء . ومن ثم قال في هذا الصدد : من تراه يستطيع
ان يقدر الزمن حق قدره . فان كان العلماء الوثنيون قد اعتبروا الزمن
بهذا المقدار مع انهم لم يكونوا يعلنون انه به ترجح الحياة الابدية . فما الذي
ينبغي ان نفعله نحن المسيحيين

فاعتبرن الان ان ندامتك ستكون ابدية ان لم تنتهز فرصة الزمن
لتكتسب ملكوت السماء . ليت شعري ماذا يكون حزنك لما تفكر انه
كان يمكنك بقليل من الاجتهاد ان تربح هذا الملك السماوي . وقد
خسرته لاجل لذة وقتية . فما اشد ما كان غيظ عيسو وما أمر أسفه لما
استفاق من غفلته ورأى ان اخاه الصغير قد اكتسب بركة بكورته لانه
قد كان باعه اياها باكلة عدس . فكان يلتجب ويتهد الصعداء
والزفرات من شدة حزنه . ويتململ غيظاً من فرط رجزه . فهذا مثلك
وهذه مرآة تعكس لك عملك فاعتبر انك قد بعث ملكوت السماء لاجل
لذة يسيرة زائلة . فما الذي كنت تفعله لو تسقط في جهنم الا ان تحزن
متوجعاً بدموع ابدية على ما خسرته بزمن وجيز . ولات حين ندامة . ان اخوان
لوط الذين كان حشهم على الخروج من المدينة والهرب معه كان يمكنهم
ان ينجوا من النار فلم يرتضوا بمشورة لوط بل ازدروا بها . فاذا رأوا المطر
الناري هاطلاً عليهم ومحرقاً اجسادهم والمدينة معاً . كم تأسفوا وما كان
حزنهم على رذلهم المشورة الحميدة واهمالهم الفرصة الخلاصية . هكذا
حنون الملك وجد فرصة مناسبة جداً لمسالمة داود الذي كان ارسل اليه

يقترضون عليه شروط الصلح يدعونهُ الى السلام فلم يرضخ لدعوتِهِ فلما شاهد الملك الجاهل مدنه فريسةً للنار وسكانها يُذبحون كالغنم في الجزرة ففترى ما الذي كان يتمنى ان يعطيه ردَّ الفرصة ينتفع بها ويوادع مثل هذا الملك العظيم ويحفظ ملكه في سلام. فلان مناسبة بين هذا وبين رجز الخاطيء الهالك الذي ينظر ذاته وقوداً لنار لانهاية لاضطرامها. ويلاحظ انه صار عدواً للملك السماء الى الابد. وانه من المستحيل ان يملك مع القديسين . فباله من حزنٍ مديب ورجز شديد كلي يعترية الى الابد

ان اللص الشرير الذي صلب مع السيد المسيح ووجد ورفيقه اللص الآخر فرصة سعيدة لربح الخلاص فلم ينتفع بها . ما اعظم الان ندامته على جهله وما اسخن دموعه على غباوته . وما اشدَّ تأسِّي ذلك الغني الشرير الذي وجد ايضاً فرصة جيدة كان يستطيع بها ان يكفّر عن خطاياهُ لو اخذته شفقةٌ ورحمةٌ على لعازر المسكين . فلم ينتهز تلك الفرصة بل تغاضى عنها معرضاً وظهر نحو ذلك المسكين اشدَّ قساوة من الوحوش . اذ كانت الكلاب تحنو عليه وتجلس جراحاته مداوية لها . وهو لم يسعفه ولا بفتات مائدته . فما الذي يقوله الان وما الذي يندب به نفسه اذ قد فقد كل شيء ولا يمكن ان يسعف بشيء حتى ولا بنقطة ماء . وذلك لانه ابى ان يوجد بفتات مائدته على الفقراء

فاعتبر الان ان زمن حياتنا كله هو بالحقيقة فرصة لربح

المجد الابدي . ومع ذلك فقد تعرض في مدة حياتنا فرص اخر يتعلق
 بها امر خلاصنا تعلقاً خصوصياً . واذا انتهزناها واستفدنا بها نلزم الله بان
 يعيننا عوناً خصوصياً كما عرض ليوسف الصديق حين فرّ مدبراً عن
 سيده وغادر رده في يدها لئلا يعيظ الله خالقه . فانه بهذا الفعل العظيم
 جداً لزم الله بان يهتم به اهتماماً خصوصياً . وينعم عليه بحسنات جليلة .
 وهكذا سوسنة العفيفة قد اغتتمت الفرصة التي عرضت لها . وفازت بها
 بالخلاص . لانها اذ آثرت الموت على الارضاء باللذة الدنسة التي كان
 يفريها بها ذاك الشيخان . حازت استحقاقات غزيرة ونعماً جليلة . فلنحذرن
 اذاً من ان نهمل فرصة ممارسة عمل صالح يمكن ان ندعو الله به الى الاهتمام
 بامر تخليصنا اهتماماً خصوصياً . وفي هذا قال الحكيم لا تفوتن يوماً
 صالحاً ولا تعدينك جزء من عطية صالحه (سيراخ ١٤ : ١٤)

وقد قال شيشرون في تعريفه الفرصة : انها جزء زمن مناسب
 لفعل شيء وقال ميتريدانس ان الفرصة ام جميع الاشياء الواجب فعلها .
 وقال بوليبيوس ان الفرصة رأس كل امر بشري . ومن ثم لما تكلم بعض
 المعلمين الروحيين عن انتهاز الفرصة لممارسة عمل صالح . قالوا ذلك دليل
 على الانتخاب للمجد الابدي . فانظر كيف اجتهدت راحيل مسرعة في
 اخفاء اوثنان ابيا التي كانت استرققتها . اعتبر كيف بادرت ايجائيل الى
 ملاقاته داود الملك لئلا تفوت الفرصة المناسبة لتسكين غضبه . فلو
 تاخرت قليلاً فلاريب انها كانت قد غدت وزوجها واهل بيته في

خطر فقد الحياة . لاحظ كيف جدَّ ابو الالباء ابراهيم في طلب الثلاثة الملوك الذين كانوا اسروا لوط ابن اخيه . فلو اهمل الفرصة لم ينجح لوط من الاسر ولم يفز ابراهيم بالظفر . وبأيما جهد وسرعة جمع شاوول الملك جيشاً لينجد مدينة يابيش جلعاد في الوقت المناسب . فلانكن اذا في هذا الامر اي في انتهاز فرصة الخلاص اقل اجتهاداً وسرعة مما كان اجتهاد اولئك في الاشياء العالمية . فلنصغين الى مشورة الحكيم القائل : ان كفتل صديقك فخلص نفسك لانك قد حصلت بين يدي قريبك (امثال ٦ : ١) . فليتأمل اولئك الذين ابرموا عهداً مع الشيطان ووقعوا عليها بخطاياهم . ولينظروا باية سرعة ينبغي ان يفروا من يديه ولا يضيعوا فرصة وزمناً . وليتأمل ايضاً اولئك المغرمون بالله لكثرة احساناته اليهم وعظمتها ولما عاهدوا به الله عز وجل معتبرين بأي اجتهاد وسرعة يجب عليهم ان يفوا ما هم ملتزمون به . وهذا قد نبهنا اليه الرسول بقوله : فاقول هذا ايها الاخوة ان الزمن قصير (١ كورنتس ٧ : ٢٩)

المقالة الثانية

في ما بين الزمني والابدئي من الفرق بالنظر الى نهاية الحياة الزمنية
والزمان مطلقاً وفيها تسعة فصول

الفصل الاول

في نهاية الحياة الزمنية

فلنعتبرن الان اعراض حياتنا هذه الشقية الكثيرة المباشرة
لاعراض الابدية واولها ان حياتنا هذه لها انتهاء . وانا في هذا الامر
شيئان يجب ان نتأملهما . اولهما انتهاء حياتنا . وثانيهما كيفية انتهائها .
فلو فرضنا أنّ انتهاء حياتنا في اختيارنا . وسني سمكننا هنا
منوطة بسلطاننا . او كانت كيفية خروجنا من هذا العالم من دون مرض
وموت . لقد كان مجرد كون الاشياء الزمنية على وشك الانتهاء سبباً
كافياً لان نحتقرها . انا الببور البهي لو يدوم نظير الذهب لكان اثنان
من الذهب نفسه . واما اذ كان سريع العطب فلا اعتبار له . وليس من
المستحيل ان يُحفظ زماناً مستطيلاً . وهذه الشائبة تشين حياتنا هذه .
بل سرعة عطبها وزوالها اعظم من سرعة عطب البلور . لان حياتنا
متعرضة لالوف الوف من المخاطر بل وان سلمت من هذه الاخطار
جميعها وجب علينا ان نحتقرها وكل خيراتها الزمنية . لانها سوف تنتهي
وتزول . واما الذي يلاحظ بعد ذلك كيفية انتهائها بالموت والامراض
والكوارث التي تتقدم الموت وتمهد له سبباً فله ان يتعجب منذهلاً من

ان الانسان المولود للموت يوجه اعتباره للسعادة الزمنية وهو عارف
بالشقاء الممتزج بها. فلنلاحظن ما حلَّ من الشقاء بانتيوخوس الذي استولى
على اقاليم جزيرة العدد. فانه اذ كان زاهياً بالظفر استحوذت عليه ما ينجوليا
مهلكت اماطت عن جفنه لذة النوم وسلبت عقله. فعاد لا يُغمض جفنيه
الوسن ليلاً ولا نهاراً واخذ يقذف أمعاه من حلقة. وتخلعت مفاصله
فصار عاجزاً عن كل شيء الا التأملم. فالذي كان قبلاً يُخيّل له ان له
سلطاناً على امواج البحر وانه ضابط في يده اعلی الجبال ملكه العجز عن كل
حركة واصبح لا يستطيع ان يخطو خطوة واحدة. والذي كان بالامس
موشحاً بالحز والارجوان يجر اذيال الحلل الثمينة المزخرفة وتفوح منه
الروائح الذكية. غدا بعتة جيفةً مستكرهة تذبث عنه نثانة لا تطاق حتى
اضطر الامر خدامه الى ان يبتعدوا عنه هاربين. واذ كان حياً بعد
امتلاء جسمه دوداً كان يستأكله ويرعاه. الى ان فاض اخيراً بروحه
الشقية مجدفاً. فتأمل اذا انتيوخوس هذا حين كان يتلألاً افضل من
الذهب على خيل مسومة. ترج الارض من صولاته وسلطته وكثرة
عساكره. ولاحظه بعد ذلك ملقى على فراش خائر القوى كمد اللون
متن الرائحة متروكاً من الجميع فسكانه مزبلة او مأوى للدود. فمن ذا الذي
بعد مشاهدته ما صار اليه انتيوخوس يحسده ويشتهي ما كان عليه. من
ذا الذي بعد تأمله هذا الموت يطلب سعادة الحياة الزمنية. من ذا الذي
يختار وظيفة جزاؤها هذا الشقاء العظيم

فاعتبرنَّ اذَّ ايها المؤمن مآلَ خيرات هذه الحياة ومثلها كمثل مياه
 الاردن الصافية التي تنتهي الى حمأة البحيرة السادومية المميتة . تأمل كيف
 انتهت حياة الهيرودسين اعني الاسكالوني واغريبيا . فذاك غدا ما كلاً
 للدود . وهذا امسى ما كلاً للقمل . لاحظ ايضاً كيف انتهى اجل احآب
 الملك الذي انتصر على بلاد سوريا وعلى اثنين وثلاثين ملكاً . فقد انتهى
 ملكه واعدمه الحياة سهم نفلتته واحشأه . فخاضت مركبته الملوكية بدمه
 ولحست الكلاب دمه كدم فريسة . ومثله انتهت حياة ابنه يورام . فان
 اعداه طعنوه بسيفٍ اخترق ظهره وقلبه فطرح مائتاً وتثرت لحمه العقبان .
 ولم يُعطَ من ارض مملكته ستة اشبار يدفن فيها . ومن ذا الذي عند
 مشاهدته يقصر المظفر المكلل بالكاليل انتصاراته العديدة . يُخاطر له
 ببال انه سيراه بعد ذلك مائتاً مثخناً بالجراح مخضباً بدمه المراق من ثلثة
 وعشرين ككماً ومن كان يعتقد ان قورش الذي اخضع لقضيب
 ساطته اعناق الماديين والاثوريين والكلدانيين . واملاً ذكر انتصاراته
 المتصلة في مدة ثلاثين سنة العالم دهشة ورهبة لمزمع ان يموت بحيلة
 امرأة . ومن ذا الذي لا يتخبر عند نظره الاسكندر الكبير الذي بقوة
 سيفه انتصر على بلاد العجم والهند واستقر له ملك العالم . تخور اخيراً
 قوته كماها بحمي يسيرة تدنفه ويتلاشى بها اقتدار العالم وعزُد
 فبالصواب اذَّ قال احد الفلاسفة ان راس الاشياء هو عين الانتهاء .
 لانه كما ان الناس تُعرف من الوجه . كذلك يجب علينا ان نعرف الاشياء

من انتهائها . وَا كَانَتِ الْحَيَاةُ تَنْتَهِي بِالشِّفَاءِ كَانَتِ الْحَيَاةُ كُلُّهَا لَا تَكُونُ
 الْأَشْقِيَةَ . فَلَا يَنْخَدَعَنَّ أَمْرٌ بِعَافِيَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَثَرْوَتِهِ وَسُلْطَتِهِ وَعِزَّتِهِ
 وَعِظْمَةُ بِلَاطِهِ وَكَثْرَةُ أَصْدِقَائِهِ وَجَمَالُ بَرْدَتِهِ وَسُمُورِ تَبَتِهِ أَوْ دَرَجَتِهِ . لِأَنَّهُ
 بِمَقْدَارِ سَمُو سَعَادَتِهِ يَكُونُ عَظْمُ شِقَائِهِ . لِأَنَّ انْتِهَاءَ كُلِّ سَعَادَةٍ هُوَ عَيْنُ الشَّقَاءِ .
 وَلِهَذَا مَسَمِعَ أَجِيْزُ بِلَاوُسِ الْمَلِكِ أَنَا سَائِمِدْحُونَ سَعَادَةَ بَرِيَامُوسِ مَلِكِ
 الْعِجْمِ . قَالَ لَهُمْ : كَفُّوا عَنِ هَذَا الْاِمْتِدَاحِ لِأَنَّ حَيَاةَ بَرِيَامُوسِ تَنْتَهِي
 بِالْاَوْجَاعِ وَقَدْ أَيَّدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مَاغُونُ قَائِدُ جَيْشِ قَرَطْنَجَةَ وَأَخُو أَنْبِيَالِ
 الْمَظْفَرِ فَانَّهُ إِذْ سَقَطَ مُصَاباً بِمَجْرَحٍ مُمِيتٍ . أَخَذَ يُخَاطِبُ إِخَاهُ أَنْبِيَالِ
 قَائِلاً : مَا هَذَا الْاِنْتِهَاءُ انْتِهَاءُ الْحَيَاةِ وَالسَّعَادَةِ الْعَالِمِيَّةِ . فَمَا اعْظُمَ جَهْلُ
 الَّذِينَ يَرْغَبُونَ الْقِيَامَ فِي مَكَانِ شَاخِ سَامٍ . إِنْ حَالَ الْمُقْتَدِرِينَ مِنْ شَأْنِهَا
 إِنْ تَجَلَّبَ الْعَوَاصِفُ . وَعِنْدَ الْاِنْتِهَاءِ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى شَفِيرِ الْهَآوِيَةِ
 وَوَشْكَ الْاِسْتِغْرَاقِ . فَيَا لِعَظْمِ خَطَرِ قَمَةِ الْكِرَامَاتِ السَّامِيَّةِ مَا أَخْدَعُ
 رِجَاءَ أَصْحَابِهَا وَمَا أَبْطَلَ مَجْدَهُمُ الْمَبْنِيَّ عَلَى الْغُرُورِ وَالْكَذْبِ . وَيَا لَشَقَاءِ
 حَيَاةٍ قَدْ حُكِمَ عَلَيْهَا بِتَعَبٍ مُتَّصِلٍ . فَمَا إِذَا تَفَعَّلِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الَّتِي
 أَحْرَقَتْ فِيهَا فِخْرَ الْقُصُورِ وَأَحْصَنَ الْمَدْنَ الَّتِي هَدَمْتَهَا وَفَتَكْتَ بِشَعُوبِهَا .
 وَمَا إِذَا تَفَعَّلِي الْاِنْتِهَاءَ تِلْكَ الْمَنَازِلِ الَّتِي شَيَّدْتَهَا وَزَيَّنْتَهَا بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .
 وَأَنَا الْاِنْتِهَاءُ جَرِيحٌ عَلَى الْاَرْضِ أَمُوتِ أَيْسَافِي هَذَا الْقَمْرِ . فَمَا أَكْثَرَ الْمَقَاصِدِ
 الَّتِي دَدَّهَا الْاِنْتِهَاءُ يَا أَخِي فِي عَقْلِكَ وَتَعَقَّدَ عَلَيْهَا قَلْبِكَ . وَلَسْتَ تَعْلَمُ مَا يَكُونُ
 انْتِهَآؤُهَا الْمَرَّةَ . وَلَنْ تَرَانِي الْاِنْتِهَاءُ نَظْمًا عَنكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ سَتُرْحَلُ بَعْدِي

وتتبعني سريعاً . هذا ما قاله ماغون لانيبال اخيه

فلنكتفين بهذا ولنضربنَّ صفحاً عن كل انواع الموت . بل
فلناحظنَّ ما تعدُّه الناس موتاً سعيداً . اعني ان يموت حتف انفه
لاقتلاً ولا فجأةً . بل بمرض يعتريه . فاقول هل من شقاء اعظم من شقاء
من يُعدُّ سعيداً لكونه شقيماً . وما اكثر اوجاع من يموت على هذا النحو .
فكم تضايقة اعراض هذا الموت من حرارة حمى تحرق احشاهُ . وعطش
مذيب ينشف شفثيه وييسهما ويصدُّه عن التكلم . ووجع رأس يمنعه
عن الفهم . وانقباض قلب تمزقه ويبلغ به الى غشي مميت . وغير ذلك
من الاوجاع التي هي اكثر عدداً من اعضاء الجسد ولا علاج لها الا الادوية
المرّة المستكرهه التي لا تؤلمه اقلّ من الوجع . وضمف الى ذلك
سجس افكاره اذ يكره على مفارقة من يحب وما يحب . فضلاً عن انه لا
يدري اي مكان ينتهي اليه أجهنم ام السماء . فان كان مجرد ذكر
الموت مرّاً فماذا يكون مخبره والاجتياز به . ان شاول الملك قد كان
بطلاً باسلاً ذا قلب شجاع . ومع ذلك لما سمع وتحقق انه سيموت في الغد
سقط على الارض مغشياً عليه من شدة خوفه . فاما من امر اراهب للخاطي
وافزع من ان يقال له : انك الان تموت وتبين كل لذاتك . وتكره على
ان تؤدّي لله حساباً عن جميع حياتك . فلو ضربت قرعة لرجل مذنب
مستوجب الموت على اية ميتة يموت . أقتلاً بالسيف ام خنفاً . وهل
يكون ذلك بتمزيق اللحم ام بترضيض الاعضاء . فكيف يكون حال قلبه

وهو منتظر نهاية امره وما نصيبه من تلك القرعة. قل عن حال رجل يفكر
وهو في نزع الحياة انه بعد ساعة او اكثر قليلاً يبرز الحكم عليه بالابدية
إما في جهنم واما في السماء. لعمرى ان حالة هذه لاسواء واشقى حال.
فما هي اذا الحياة التي ندعوها سعيدة. فان كان مثل هذا الانتهاء يترأى لنا
سعيداً ولم نرد ان نعتد على رأينا هذا. فلندن ممن هو في حال النزع ولنسأله
عن رأيه في هذه الحياة. ولنستخبره عن ذلك حين يضيق صدره
وتغور عيناه. ويضفر انفه وتيس رجلاه وتبرد ركبته. ويكمد لون
وجهه وتسترخي مفاصله وتكاد أن تسكن حركتها وتضيق أنزاسه
ويكون ماسكاً باحدى يديه ايقونة السيد المسيح. وبالاخرى شمعة
مكرسة. والكاهن يساعفه في ان يموت موتاً صالحاً ويحمله على فعل
الندامة. فاذا ذلك سله لتعلم ماذا يقول عن حياته فلا شك انه بمقدار
ما كانت اوفر سعادة. بقدر ذلك يراها حينئذ اكثر خداعاً وغوراً
لانتهائها على النحو المذكور. فما الذي كان حينئذ يبدله بجميع خيرات
الارض. إني لاظنه انه يهبها كلها مجاناً. بل يعطى ما هو اثن منها لكي
لا يكون امتلاكها قبلاً ان كانت قد صارت له سبباً للخطيئة. ولقد كان
يبدل كل شيء لكي يوهل الى اعتراف جيد. قال فيليس الثالث ملك
اسبانيا التي كانت لاتغرب الشمس عن حدود ملكها إني لاشتهي ان
اكون استلت بدلاً من هذا الحكم العظيم مفاتيح وظيفة بواب في
رهبانية حقيرة. فحقاً ان الموت ياتينا بنور عظيم نكشف به عن خداع

العالم . تعلم انك عند الموت تفرح لو عملت ما لا يقدر الموت على سلبه .
 فافعله اذا الان وانت قادر عليه . فلو تمتع امرؤ بجميع لذات العالم الى
 ساعة موته . فما الذي يبقى له منها في تلك الساعة . لاشيء البتة . بل انما
 يبقى له انقباض قلب أليم ويأس مميت . مثله قُل عن افعال التوبة
 والسيرة القشفة . فلو احتمل امرؤ حباً بالسيد المسيح ما احتمله الشهداء
 جميعهم فلا يشعر عند حلول المنون بشيء من ذلك . بل انما يفوز باوفر سرور
 واعظم عزاء .

ناشدتك الله يا صاح اصغ وتامل قليلاً ما هي الغاية التي خلقك
 الله لها وتركك لاجلها في هذه الحياة وكان قادراً ان ينقلك الى السماء .
 أعلّ قصده تعالى بذلك كان ان تفرغ جهدك في ان تضعي الزمن كوحش
 يتلخ بحمأة الشهوات الحسية المحمية او ان تسعى في طلب كرامات
 خيالية . لالعر الله . بل انه تركك على الارض لكي تمارس افعال
 الفضيلة وتستحق بها ملكوت السماء . فاعلم انه امر مقضي عليك به لبارئك .
 ان تظهر امانتك ولا تأبى في خدمته احتمال مشقة . لهذا ادخلك
 تحت رايته لتحارب عنه وتغار على كرامته . ولهذا قبلك في جنديّة هذه
 الحياة كما يدعوها ايوب الصديق . فما رأيك في جندي يخلع عنه الاسلحة
 اذا سبت نار الحرب وبدلاً من ان يحارب مكافئاً يلهو ويمرح لاعباً . وما
 قولك عن رجل حكّم عليه بالموت وهو يمزح ضاحكاً فيما هو ذاهب
 الى القتل . فالانسان منذ خروجه من مستودع امه لا يزال ساعياً الى

الموت الذي حُكِمَ بِهِ عَلَيْهِ . ولا يدري هل يُساق بعد موته الى موت ابدى في جهنم . الا انه في الاقل يعرف ان ذلك لا يستحيل . فكيف اذ ينسبط في لذات هذا العالم لاهياً . لو عرف التاجر انه عند وصول مركبه الى المينا يدركه العرق . فهل كان يشحنه شيئاً ثميناً . فيما اكثر الذين بعد أن بلغوا جانباً عظيماً من الخيرات الزائنة هلكوا عند الموت . لانهم لم يريدوا ان يبارحوها وان بارحتهم هي

قد خبر امبرتوس عن رجل كثير الغنى انه اذ ناهزه الموت امر بخدمه ان يأتوه بكل انية بيته الذهبية والفضية . فلما وضعوا ذلك تجاه عينيه طفق يخاطب نفسه قائلاً : انظري يا نفسي هذه كلها . اني اعاهدك بان امتعك بجميعها بل باكثر منها جداً ان كنت لا تفارقين جسدي . قال : فاشتدت عليه اوجاع مرضه . فصرخ حينئذ برجز عظيم قائلاً : ايتها النفس العديمة الوفاء . اذ لا تريدان ان تفعلي ما ارغبه منك وهو ان تستمري مقية في جسدي فاذهبي الى الشيطان . قال هذا ففاضت نفسه الشقية . فمن هذا الخبر يمكننا ان نفهم بطلان الاشياء الزمنية والضرر الناشئ عنها ان يعاق قلبه فيها بمجة مفرطة لانه هل من بطلان اعظم من بطلان شي غير نافع عند الاحتياج الكلي . وهل من شر اعظم من كون شي مضرًا بالنفس قد ذكر المعلم روبرتوس ليسيوس انه اذ كان يبحث مريضاً على الاعتراف بذنوبه والاهتمام في خلاص نفسه . كان اهل بيته يتراكون في داره من جهة الى اخرى مجتهدين ومجدين في اختلاس ما تصل اليه

يدهم . فلما شاهد ذلك المريض . وجه افسكاره من امر خلاصه الى ما
 يُسرق من امواله ومَتاعه . فأخذ يتهد الزفرات ويصرخ قائلاً : الويل
 لي ثم الويل لاني كثيرًا ما عُتيت بربح هذا الغني الغزير والان تضطرنني
 الضرورة لا الى تركه فقط بل الى مشاهدة اختلاسه مني ايضاً . فيا أموالني
 ويا ذخائري أهكذا تنتقلين مني الى ايدي غريبة . واذ كان يشكو امره ويلوم
 نفسه على ذلك قضى نحبهُ وهو متغاضٍ عن خلاص نفسه ومات موت
 وثني . وقد خبر المعلم فيسنسيوس عن رجل كان اقراض واحداً اربعة
 دنانير بشرط ان يردّها له اثني عشر ديناراً بعد اربع سنين . فقبل انقضاء
 هذه المدة حضرت ساعته الاخيرة . فافتقده كاهن وشرع يجتذبه الى
 الاعتراف الا ان المريض لم يكن يجبه الا بهذه الكلمة لا غير . لي عند
 فلان اثنا عشر ديناراً . واذ كان يقول هذا فارقت نفسه جسمه ومات .
 وخبرنا القديس برزدينوس انه اذ كان احد الكهنة يجرّض مريضاً على
 التوبة كان المريض يسأل الكاهن عن سعر الحرير وثمان الجوخ . فمع ان
 الكاهن كان ينهبه بغيرة عظيمة قائلاً له : دع عنك هذه الامور جانباً
 وافكر في خلاص نفسك . فلم يتصح المريض بل كان يكرّر سوالاته
 المتقدم ذكرها مستخبراً عن التجارة والارباح الدنيوية . ولما كان الكاهن
 يشدد عليه التنبيه مستحثاً اياه على الاعتراف بالحاح أجابه المريض مرز
 فوره يا ابانا غير ممكن لي ان اعترف . فهذا كان اعترافه . ولم يقل هذا
 حتى توفاه الله وهلك

فهاكم الثواب الذي تكافي به الخيرات الارضية الذين
أحبوها . فآها من جهل بني آدم . انهم قد رزقوا هذه الحياة القصيرة
ليربحوا بها الخيرات السموية الراهنة . وهوذا هم يصرفونها في ربح
الخيرات الارضية الزائلة . التي لا فراط جبهم اياها فهي مزمنة ان تهلكهم
الى الابد

فها ان نتاد في القول . متأملين انساناً يموت في
اسعد حالة . وحسبنا ان ننظر كيفية هيئته عند انفصال النفس
من الجسد . فما اشنع ما تكون جثته حينئذ وما ارهبها . فترى محبيه
 واصحابه جميعهم يبتعدون عنه هاربين . ولا يطيق احدهم ان يمكث
 وحده لديه ليلة واحدة . واما اقرباؤه فيجهدون في ان يخرجوه سريعاً
 في كفن خلق وبعد دفنهم اياه بيومين ان تذكروه احياناً فذلك امر
 عظيم . فهوذا الذي كانت اوسع المنازل ضيقة لديه . قد حطّ وامتدّ
 كله في مكان طوله عشرة اشبار . والذي كان يضلّج على الفرش
 الوتيرة الناعمة قد غدا مهاده السوس وغطاؤه الدود كما قال اشعيا النبي .
 واذ يكون مرعىً ومستأكلاً للدود والحيات تكون اقرباؤه مبتهجين
 بموته متنعمين بميراثه فتقرس ان استطعت في جثته بعد موته بثمانية ايام .
 ما اكره منظره وارهبه . فهل من فرق بينه وبين كلب ميت مدود
 ملقى على المزابل . فهذا حال جسدك الذي تعزّه الان وتشمه . الذي ربما
 يكن بعد اربعة ايام مرعىً ومأكلاً للدود والحشرات

خبرنا المعلم اسكندر انه فتح يوماً قبر احد الامراء . فابصر الحاضرون
ضفدعة ضخمة جداً تستأكل وجه الامير . ومعها حشرات كثيرة مختلفة
الانواع تقرض لحمه بانبيها . فلما اخبر به ابن الامير . وكان اذ ذاك شاباً في
عنفوان صبوته . بادر مسرعاً ليرى ما سمع به . واذا ابصر ذلك قال .
متهدداً ومتأسفاً . أفهذا اذا جئينا الذي نزيه في التعم . ونضجعه على
الفرش الوتيرة في المنازل المبهجة . وتغذيه بالذم المأكول وانتمها ونعلله
بالطف المشارب وأروقها . ونكسوه فخر الملابس وانعمها . فالاولى بي ان
اعامله الان بصرامة . وأميته بأفعال التوبة حتى اذا مات وانا حي لا
يضطهدني وانا ميت . قال هذا وعزم على خلع الامارة وأباطيل العالم .
واختار حال الفقر حباً بالسيد المسيح . فذهب محتجياً الى رومية . وهناك
اخذ يعذب جسده بأصم التقشفات . ممارساً افعال القداسة . وكان
يقيت جسده مما يربحه من صناعة عمل الفحم . فاخيراً اتفق يوماً وهو
ماض الى رومية لبيع فحمه . أن اعتراه بعتة مرض عضال فاحتمله بصبر
عجيب . ثم اسلم نفسه المباركة بيدي سيده . وفي حين موته صوتت كل
اجراس رومية من ذاتها . فاندعش من هذه العجوبة الخبر الاعظم
وكل اكابر بلاطه . فاخبره راهب بسبب العجب . وكان ذلك الراهب معلم
اعتراف ذلك الامير المتوفي . واتفق أن كان وقتئذ في رومية جنود وقواد
مرسلون من بلاده ليفتشوا عن اميرهم المذكور . فنقلوا جسده الى
مدينته بكل اكرام وتوقير

وذكر أيضاً عن القديس فرنسيس بورجيا اليسوعي الذي كان قبل
 ترهبه نائب ملك اسبانيا في بلاد كاتالونيا انه بعد موت الملكة اليبابات
 امرأة كارلوس الخامس . سُلم له جسدها ليدفنه في مدينة غرانا . وكان
 جسدها محفوظاً داخل تابوت من رصاص . فلما وصل الى المدينة وفتح
 التابوت ليسلم جسد الميتة امام شهود . فرأى الجسد قد تغير تغيراً تاماً
 وصار منظره مستكرهاً مرعباً . حتى انه لم يعد يجسر أن يُثبت بقسم
 كالمولف العادة ان هذا جسد تلك الملكة التي كانت غرة دهرها بهاءً
 وجمالاً . واذا ابصر ذلك الملتئمون ارتدوا عنه راجعين ولم يقدرُوا ان
 يشاهدوا هذا المنظر الشنيع وقاموا نافرين من التتانة المنبعثة منه . فمن ذا
 لا يستدل من هذا على بطلان العالم . لانه هل من شيء افضل شرقاً وكراماً
 من شخص الملك او الملكة في حياتهما . فها هو ذا بعد موتهما تهرب منهما
 كل حواشيهما مشمأزين منهما ومُستكرهين منظرهما . واذا كانا في قيد
 الحياة من يفوز بالقرب منهما ويكلمهما جاثياً امامهما يعدُّ حظه سعيداً .
 الا انه بعد وفاتهما يفر منهما كل احد ويتركهما الجميع قوتاً للددو او الكلاب
 وهذا كان من حال اليبابات الملكة . فلنعد الى صددنا ان نائب الملك المتقدم
 ذكره اعني به فرنسيس بورجيا . اذ تفرّس في هذا المنظر الخيف . اخذ
 يتأمل في ما كانت عليه الملكة وهي حية وما صارت اليه وهي ميتة . وكان
 يقول في نفسه : اين ذلك الوجه البهي . لقد استحال الى مادة منتنة
 ومرعى للددو . اين تلك الغرة والهيبة المتألثة قبلاً في كل جسدها .

وهاد قلبه الى الله من تأمله ذلك وعزم على ترك الاشيا الزمنية رغبةً في
الاشياء الابدية . وعقد من ثم ضميره على الأيعد رباً الآ الذي لا يعتره
الموت

ولقد كان فلاسفة الهند المعروفون بالبراهمة يحفرون امام ابوابهم
قبوراً مفتحة لكي يتذكروا الموت أن دخولهم وخروجهم على الدوام لانهم
كانوا يعلمون ان ذكر الموت يفيد جداً لاصلاح السيرة . وما قاله أفلاطون
في هذا الصدد هو عين الصواب الحقيقة هي : ان الحكمة التأمل في الموت .
وقد خبرنا المورخون عن رجل سيّ السيرة اعترف للحبر الاعظم بخطايا
ثقيلة جداً ولما فرغ من اعترافه قال انه لا يقوى على ممارسة الصوم او
فعل من بقية افعال التوبة القشنة ومن ثم طلب الى البابا الأيكافه قانوناً
ثقيلاً . فوهبه الحبر الاعظم خاتماً محفوراً فيه هذه الكلمات : تذكر الموت .
وامره بان يقرأ تلك الكتابة ويتذكر الموت كلما وقع نظره على الخاتم .
فلما فعل هكذا مدة بعض ساعات . اثر ذكر الموت في قلبه تأثيراً عظيماً
حتى انه رجع الى الحبر الاعظم متصدياً لمكابدة اشق القوانين واصعبها .
فاعدوا الجهنمي يبذل كل جهده في ان يلهينا عن ذكر الموت والتأمل به .
انني لا تعجب حقاً من ان فكر ضرر زائل او خسارة زمنية من عادته ان
يسلب من الناس الرقاد ويحرمهم لذة الوسن . واما حقيقة الموت الذي
هو ارب من كل الاشياء المرهبة فلا تؤثر في قلوبهم ولا تحركها الى
التوبة

الفصل الثاني

في صفات نهاية الحياة الزمنية

انه ما عدا ما يلحق بالسعادة العالمية من الشقاء . توجد اعراض اخر
باهظة تقترن بنهاية حياتنا يجب علينا كل الوجوب ان نعتبرها لكي نختصر
جميع خيارات هذه الحياة . وعليه فمدار كلامنا الان . اولاً على ان الموت
محقق اكد الحدوث ولا حيلة في صدّه ولا سبيل الى الهرب منه . ثانياً
ان وقت حدوثه مبهم ولا وسيلة الى معرفة كيفيته . لانه ما من احد
يعرف متى يأتيه الموت ولا كيف يأتيه . ثالثاً واخيراً ان الموت يحدث
مرة لا غير . فيمتنع من ثم ان نصلح بموتٍ ثانٍ نقص الموت الاول . وفي
اول الامر نقول ان لزوم الموت هو اكد محقق

ان الله لم يسنّ قط شريعة ثابتة مقرّرة لا يشوبها انحلال نظير
شريعة الموت لانه تعالى حلّ مراراً نظام الطبيعة وشرائعها . الا انه لم يحلّ قط
شريعة الموت ولن يحلها ابداً . وهذا الحكم الالهي لم ينفذ في الذين
كانوا يستحقون الموت فقط . بل في من كان يقتضي العدل ان يكون
برياً منه ايضاً . قد انحلت في الحبل في سيدنا يسوع المسيح الشرائع
الطبيعية القديمة ان يكون التناسل البشري بواسطة رجل وقد بتولية
الوالدة . فلكي لا يكون هذا في ولادة السيد المسيح قد اضطرّ اليه هذه
الشريعة الطبيعية الى اعجوبتين مذهبتين فولد ابنة الازلي من أمّ بتول .
اما شريعة الموت فلم يبرئته تعالى منها وان لم تسنّ عليه فانه كان

واضع الشريعة وبرياً من كل خطيئة حتى الاصلية التي توجب علينا الموت بل كان يحق لجسده الاقدس عدم الموت وهو احد الاربعة الكمالات المجيدة. ذلك لان نفسه القديسة كانت تشاهد الجوهر الالهي. فمع هذا كله لم يدع ابنه يتمتع بمجته هذا الكلي الصواب والعدل بل بقوة يده الضابطة الكل حبس في نفسه المجيدة تلك الكمالات السعيدة وصدها عن ان تبرز منها في جسده كما كان ينبغي. وهذا كله لكي يموت. وان قال قائل ان ابن الله اذ كان قد ضمن بفداء الجنس البشري لاق لذلك بجلال جنوه ومحبتة ان يموت موت الصليب. أُجيب ان هذه الحجة لا يصح ايرادها عن والدته المثلثة الغبطة. لانها اذ كانت برية من الخطيئة الاصلية لم تكن خاضعة لشريعة الموت. ومع هذا لم يرد الله ان يبرئها من الشريعة العامة. فما اذا هذا السحر الذي يفتن عقولنا ولا يصدنا عن ان نتحقق جيداً ضرورة الموت مع انها محققة غاية التحقيق

ولعمري لو كان الموت امرًا غير محقق لكان مع ذلك من شأنه ان يجعل الانسان مستيقظاً محسناً الحذر على الدوام. لانه على فرض ان الله خلق العالم واملاه بشراً. وقبل ان يموت احدهم عرف ان واحداً من الناس اعترته حمى وبائية. وشوهد طريح الفراش يتقلب في اوجاع المرض الميت من انقباض قلب وغشي مرعب وعطش مذيّب. وسجس مخيبة واضطراب. والنحوال قوى الى ان يبلغ اخيراً برأى من الجميع الى

حال النزع . ويكمد لونه وتنقطع انفاسه ويموت . ويعود جسده بارداً
 عديم الحركة . اما كان الجميع يندهلون من هذا المنظر متحيرين . أو اما
 كان يأخذهم الخوف والرعب بزيادة اذا ما شاهدوه بعد ذلك بثلاثة او
 اربعة ايام منتفخاً منتناً وقد ابتدأ ان يدود . فلا شك انهم كانوا يرتجفون
 فرقاً من ان يصيبهم ما اصابه . وان الله قال لهم : اني لست اريد
 ان جميع الناس يموتون بل البعض منهم . ولم يقل تعالى من هم الذين لا
 يموتون افما كان يثبت كل واحدٍ منهم قلقاً في غاية الانزعاج . خائفاً من ان
 يكون حظه مع الذين يدركهم شقاء الموت والحال ان هذا يصيدنا جميعنا بلا
 شك ونحن لا نفتكر به . فان كان الموت الذي يحوم حوله شك
 وارتباب من شأنه ان يخيفنا هكذا . فكيف لا يخيفنا الموت المحقق عندنا
 والمؤكد غاية التوكيد . فلو قال عز وجل ان لا يموت من الجنس
 البشري جميعه الا واحد فقط . لكان الجميع يفرعون . فلم لاتفرع انت
 اذ قد اضطر الجميع الى الموت . ولست تدري هل لايفاجئك قبل الجميع .
 فلوان الله عين الشخص المزمع ان يموت قبل الجميع . ومع ذلك عاش
 هذا ملتئماً متغاضياً عن الموت . فما الذي كانت تقوله بقية الناس عنه .
 أما كانوا يندهشون من غباوة تغافله عن هذا الامر المرهوب . فبلا شك
 انهم كانوا يزدرون به ويوبخونه شديداً عن لهيه القطيع في هذا الامر
 الباهظ قائلين له : كيف وانت عتيد ان تعود الى تراب تنعم جسديك
 الذي عمّا قريب يدفع مأكلاً للدود . كيف وانت انسان سوف

تمثل بازاء عرش الله لا تفكر في الحساب الاخير الذي سيطلب منك .
 كيف لا تردري بكل هذه الاشياء الزمنية وتحقرها وقد حُكِمَ عليك
 بالموت وانت عتيد ان تفارقها . اما نحن فيحق لنا ان نهتم في تشييد
 المنازل وجمع الاموال لان حياتنا لا تنتهي . وانت حياتك مستعارة
 مضطراً الى ان تردّها غداً فما بالك مهمماً في بناء القصور واحتشاد الاموال
 التي لا تحتاج اليها . فكيف لا تختار لسكنائك كوخاً تُعدّ فيه نفسك
 للسكنى في القبر المعدّ لك

قد ذكر احد المعلمين خبراً من شأنه ان ينكب بنا عن الضلال هذا
 قال . ان جندياً خدم سيده خدمة نصوحاً سنين عديدة . وحلّ عنده
 بمكانة من الكرامة والاعتبار فاتفق ان ذلك الجندي مرض مرض الموت .
 فاذا علم سيده بذلك اتاهُ حالاً باطباء حاذقين يعالجونه ابتغاء الشفاء . وطلب
 اليه بالحاح ان يكشفه بكل ما يهواه قلبه وقال اني لمستعد ان ارضي
 خاطرک في كل ما ترغب وتشاء . ولا ابالي بالاسراف ولا يشق عليّ تعب
 ولا أعبأ بنصب . واسهب في الكلام في هذا المعنى . فاجابه المريض اني
 ابغى منك احد امور ثلاثة اما النجاة من الموت الذي قد ناهزني . واما
 تخفيف اوجاعي الشديدة مدة ساعة واحدة لا غير . واما ان تهيب لي بعد
 الموت منزلاً حسناً اوي اليه واستريح فيه ليلة واحدة فقط . قال سيده
 ان هذا كله منوطٌ بارادة الله وحده وقوته الضابطة الكل . فتمنّ غير
 ذلك ممّا اقوى عليه اهباك اياهُ مهما كان ثميناً فكل غرض لك مقضي ان

استطعت اليه سبيلاً فقال الجندي لقد ذهب اذاً باطلاً كل ما تكبدت في خدمتك من التعب ولم اجن نفعاً من كل ما فعلته لاجلك في جميع ايام حياتي . ثم اقبل بوجهه على الحاضرين المحدثين به وقال لهم بتأسفٍ ودموع منهلةً انظروا يا اخوتي كيف بدت الزمن باطلاً في خدمة هذا السيد . لقد انجزت اوامره بما بي من الاجتهاد والحرس وغررت بنفسي مطوحاً بها في خطر الهلاك الابدي . فتأملوا الان ضيق درعه عن اسعافي . فانه لا يستطيع ان يمد يده الغوث ولا يظطع على مساعدتي ساعة واحدة في ضيقتي هذه الشديدة . فاني انصحكم واحضضكم ايها الاخوة بالمسيح ان تمنعوا النظر منتهين مصغين لنصحي وتتعضوا بضلالي وتقوموا بمنحاةٍ من مثل هذا الخطر العظيم . فاجتهدوا ان تخدموا في هذه الحياة سيداً يقدر ان يكفيكم شر الشقاء الزمني ويكللكم باكليل المجد في الملك الابدي . ليت صحتي تعود الي ساعة باذن الله فآلي به ان لا اخدم من الان وصاعداً اصلاً سيداً عاجزاً عن مكافاتي على خدمتي . بل افرغ جهدي كله في ان اكرم من وسع كل شيء علماً وهو التقدير ان يسترني ويستتر العالم جميعه . قال هذا وندم المريض ندامةً شديدة وتوفي وابق لنا نموذجاً فاعلاً يدعوننا به الى ان نصرف حسناً الزمن الموهوب لنا من الله ونزج به الثواب الابدي

فها ان نعبر ما اوردناه ثانياً وهو ان الموت مُبهم . فنقول حقاً ان الموت شيء مؤكده . الا ان وقت حدوثه هو غير معروف ويجوم

حوله شك . لانه من ذا يعلم هل يموت شيئاً او شاباً . بمرض ام صعقاً
 بصاعقة او بسيف . بخور القوة شيئاً فشيئاً ام فجأة . هل يموت بين
 الناس ام في البراري المقفرة . فلموت لا يزال بابه مفتوحاً . وهذا العدو
 لا يبرح مشهراً حراًه ليصمى بها فؤادنا يوم لاندرى . فان الرعاة لا يزالون
 متيقظين حرساً على رعاياهم مع كلابهم المنتبهة وان لم لا يترجم عندهم
 ان الذئب يطرقهم ويفترس شيئاً من رعيتهم فلا يستحيل وقوع الامر
 المحذور . كذلك المدن الحصينة فخراسها يسهرون ليلهم ناضين الخفارة
 عليها حتى في ازمة الصلح والسلام حيث لا يخشى هجمة الأعداء . ذلك
 احترازاً من ان يغتالهم عدو على حين غفلة . وان سمعت يا هذا بلصوص
 يخرجون عليك ليلاً . تارق لي لك تهجداً لئلا يفاجؤك وانت نائم
 فينبهون امتعتك . والحال ان طروق الموت لا يرتاب فيه . بل هو امر
 في غاية التحقيق فلم لا تلبث ساهراً مستيقظاً على نفسك . ولست تعلم
 متى تموت . فلو كنت جالسا تحت سيف مرهف ثقيل معلق فوق
 رأسك بخيط رفيع . اما كنت تتحذره كل الحذر ولا تغافل عن هذا
 الخطر . فكيف يمكنك ان تستمر دقيقة واحدة من الزمن في حال
 الخطية المميتة وانت معلق فوق لجة جهنم بخيط رفيع خيط هذه الحياة
 السريع انقطاعه والممكن جزؤه في كل وقت بانواع كثيرة . منها قطع
 عرق في الصدر او انفتاح دمل في الاحشاء . او تصاعد بخار الى
 الدماغ او انحدار نقطة على القلب . او غير ذلك من الحوادث الجزيلة

العدد التي كل منها كافٍ لان يجرعك كأس المنون
ان الاسرائيليين اذ كانوا يجهلون وقت سفرهم . استمروا مستعدين
على الدوام للسفر مدة الاربعين سنة التي مكثوها في البرية . فكان
اذاً مستعداً دائماً . فما ادراك متى يكون رحيلك . فان عزمت على السفر
يوماً واحداً تُعدّ بجرص كل اهبتة . وان بالغت في التأهب يتفق غالباً
انك نسيت شيئاً مما يلزم فهو ذانت على وشك الرحيل الى الابدية فهل
تظنّ انك ان لم تؤهل نفسك له تكن قد احسنت الاستعداد . فمن
ذا لا يشتهي ان لا يوافيه الموت الا بعد المواظبة على خدمة الله قلّ ما
يكون سنتين والحال انه ليس لك ولا سنة واحدة مؤكدة . فحتماً التمهّل
والتقاعد عن خدمته تعالى فلا تثقن بشدة باسك وصحة مزاجك وغفوّ
شبابك . لانه يتفق مراراً ان يثب الموت بغتة في حين لا تتفكر به . ويوم
الرب ياتي كالصّ في الليل كما قال الرسول ولا يعلم احد باتيانه ولربما
يجي ساعة يكون رب البيت مستغرقاً في نومٍ ثقيل . انه في اليوم
السابق يوم خروج بني اسرائيل من مصر كان عطاء المصريين يجهدون
الفكرة في عظيم الامور ويعزمون على انجازها بعد يوم او سنة . فلم يبلغ
احدهم الى صبيحة الغد

قد اخبر غيدو المؤرخ عن رجلٍ حكيمٍ قال دعاه صاحب له ان
يوأكله في الغد . فقال : لم يا صاح تدعوني ان آتي الى وليمتك
في الغد وانا منذ سنين كثيرة لا اتجرأ ان أعد نفسي به . لكنني اتوقع

الموت في كل ساعة . وما المراد بما قاله النبي : غربت الشمس وقت
الظهيرة (ارميا ١٥ : ٩) . انما يراد به انه لما يَجْلُ للناس انهم في نصف
طريق حياتهم وفي ريعان صبوتهم وعليه يترجون سنين واموالاً
غزيرة وعرساً معتبراً او كرامات عالمية يفاجئهم وقتئذ الموت وتلاعب بهم
ايديه وتحول بينهم وبين متنزهاتهم المعدة وتجبط آمالهم في يوم
اعدوه للملاهي . كما حدث في قصة رواها اسكندر فايا قال : ان
لاديسلاوس ملك اونغاريا وبويميا كان قد خطب لابنه ابنة كارلوس ملك
فرنسا . فلما حان وقت زيجتهما . بعث موكباً من اشرف مملكته ليرافقوا
في الطريق عروس ابنه ابنة ملك فرنسا . وكان من اعظم المرسلين
شرفاً استق مدينة باسو . وكان المبعوثون ستمائة شريف وكانوا متوشحين
بافخر الملابس الملوكة وارسل من جنس الاناث اربعمائة بنت من
اجمل بنات الدولة . وكن كلهن مزيينات باثمن الحلل وابهى الحلي .
وكانت مركباتهن مصفحة بصفائح الذهب وزف معهن هدايا ثمينة الى
الخطيبة . فلما دخل هذا الموكب العظيم مدينة باريس وقبل ان يصلوا
الى البلاط المعد لهم . اذا بريدٌ بعث به ملك اونغاريا وقد عليهم على
فرس يعدوسننا وبيده مكتوب من الملك المذكور فيه ان ابنة العروس
قدمت . فياله من حزن عظيم وغم جسيم استحوذ على قلب الرسل
وعلى قلب ملك فرنسا ايضاً . فاخذ الكرب من نفسه اشد مأخذ حتى
لم يستطع ان يواجههم . فارتد المرسلون الى بلادهم وبأوا بالويل والثبور .

هكذا يردُّ ربك الفرح نعمًا ويحيل نهار البهجة والفرح الى ظلام الكره
والكدرك كما قال النبي (عاموص ٨ : ١٠)

فقل لي الان يا من تَوَجَّجَل توبتك وانت متكل على الرحمة الالهية
أني تعلم انك تُعطي زمناً لتستغيث بها . واذا أُعطيته . فمن اين تعلم انها
تستجيب لك . وكيف تقول تخاف العدل الالهي وانت تَوَجَّجَل
توبتك الى اجل غير محدود من السنين ولا تترك الرذائل الا ان تترك
هي . ان بعض الناس يعاملون الله سبحانه كما عامل ديونيسيوس الملك
صنم اوفوللو . ان هذا الملك نزع عن الصنم ثوبه المصنوع بالذهب وقال
له : ان هذا الثوب لا يناسبك في زمن الشتاء لانه بارد . ولا يصلح لك
في زمن الحر لانه ثقيل جداً . كذلك هؤلاء لا يجدون نسقاً مناسباً
لخدمة الله . لانهم في زمن الصبوة والشبوية يقولون انه لم يأتِ الزمن
بعد . فاذا اقبلت الشينوخة واشعلت رأسنا شيئاً حينئذٍ نعتني بممارسة
الفضيلة . اما الان فلسنا نريد ان نوهن قوانا ونذيل نضارة عمرنا ونكدر
كاس رغدنا بافعال التوبة حذراً من ان يتعد بنا العجز في ما يتبقى من
حياتنا عن ان نشرع بعمل . فاذا بلغوا سن الشينوخة يتعلمون بغير ذلك
قائلين اننا ممنون بسقام ولا نقوى علي ممارسة افعال العيشة القشفة .
كذلك يخادعون الله ولا يخدعون الا انفسهم . وقد رذل القديس
يعقوب الرسول قول من يقول : اننا ننطلق اليوم او غداً الى مدينة
كذا ونقيم هناك سنة ونجبر ونربح (٤ : ١٣) . فان كان

القول: اننا نستطيع كذا في الغد . لا يصح نظراً الى الاشياء الزمنية . فكيف لا يكون قول جهالة وغباءة بالنظر الى خلاص النفس الابدي وبه نعد اننا بعد عشر سنين او عشرين سنة او في حين الشيخوخة نعني في ما يتعلق بأمر خلاصنا . لانه يمكن اننا لا نبلغ الى هذا الزمن . فلم نوجَّه الى الغد امرًا جزيل الاعتبار يجب علينا تنجزه بأسرع ما يكون . وان لم نفرع من عمله اليوم فيمكن الأنبغ الى الغد لتنجزه . وهذا عين ما كان منخدعاً به القديس اغستينوس قبل توبته ولذلك اخبر عن نفسه قائلاً : اني كنت اشعر بان نفسي كانت مسيكةً لحطايائي ولاصقةً بها . وكنت اصرخ متنهدياً قائلاً الى م اقول غداً غداً . ولم لا ينقطع دنس سيرتي في هذه الساعة . هذا ما كنت اقله وانا مذرف دموعاً سخينةً بقلب منسحق .
(آه)

اما في بيان ما اوردناه اخيراً عن الموت من انه لا يحدث الأمرة واحدة حتى لا يستطيع ان يصلح بموت ثانٍ نقص الموت الاول . فنقول ان الله قد جعل الانسان من كل حس شفعاً كالعينين والاذنين واليدين والرجلين . اذ فقدت الواحدة تغني الاخرى غناءً . اما الموت فاخص به موتاً واحداً . فان صالحاً نجونا وان شريراً هلكنا الى الابد . فما ارب وحة الموت هذه وما اربها فان اجل الامور واجزلها اعتباراً اي الموت . لا يجرب ولا يختبر ولا يعالج . بين ان امر الابدية منوط بهذا الوقت الاخير . لم نكن نموت الأمرة واحدة . وسوء هذا الموت الوحيد لا

اصلاح له أصلاً . خبرنا بلوتركوس عن قائد يدعى ليسيكس . انه أمر
 بالمواخدة يوماً على جندي عن زلة زهقت منه في الحرب . فوعده
 الجندي ألا يعاودها أصلاً . فاجابه القائد الحكيم : ما هذا الكلام .
 الست تعلم ان الحرب لا يزل فيها احد مرتين (اه) . فلو تعطى قوس
 لرجل فلاح لم يبصر قط سماً حياته كلها . ويومر بان يرمي الغرض
 المتبعد عنه جداً بسهم نافذ . وان زل المرة الاولى واخطأ الغرض يحرق
 حياً . وان اصابه يعطى اموالاً غزيرة وهبات جليلة . فمن لنا ان يصف
 ضيق هذا الرجل وخوفه حين يضطر الى فعل امر مستصعب جداً لم
 يباشره في حياته قط وهو يعلم انه ليس له ان يصلح خطأ الرمية الاولى
 برمية ثانية . فهذه الحال حالنا . فاننا لما تمت ولا مرة واحدة . ولما نجرب
 قط هذا الامر العسير . ونحن مزعمون ان نموت مرة واحدة . وبهذا
 الموت الاول والوحيد تتوط اما ابدية العقاب الجهنمي واما ابدية الثواب
 السماوي

فحتم التغاضي عما يؤهنا الى ان نموت ميتة صالحة ولها انما
 قد خلقنا الله . فدأبك من الافعال البشرية الممكن تكرارها ان تصلح
 ما ركسته وتحسن فعلاً اسأته قبلاً . ومن ثم فما نخسره أولاً يعوض منه
 ثانياً . فالتاجر اذا غرقت له مركبة موسوقة في البحر فيمكنه ان يربح بمرة
 اخرى ما خسره بالمرة الاولى . اما الموت فان كان مرة شريفاً فلن يمكن
 ان يصلح ابداً . ولقد احسن احد المعلمين العابدين اذ قال . نرى ان

الذين يريدون ان يباشروا صناعة او يدخلوا في امر عالمي ذي اهمية يطيلون الفكرة في اخذ الوسائط المناسبة والمؤدية بهم الى بلوغ ما ارادوا . فكيف اذا يتغاضى الاكثرون عن التروي في ما يفضي بهم الى الموت ميتةً صالحةً وهو اصعب الامور الدنيوية كلها واعظمها وحقيق بان تجهد فيه البصيرة . فليكن اذا سلوكننا على الارض سلوك اناس زمعين ان يموتوا . ولنعقدن يقيناً باننا سنموت حقاً مظهرين بافعالنا اننا عارفون بما سيصيبنا . الا اننا نجعل متى يوافينا . فليجتهد كل منا في ان يمارس كل عمل من اعماله كأنه العمل الاخير . وكأنه عند فراغه منه تنتهي حياته . ولا سيما اصلاح سيرته فلا يتمهل فيه . ولا يتأخر عن قمع اهوائه المنحرفة . وتجريد افكاره من الارض ورفعها مع قلبه الى السماء . وذلك بتوجيه عواطفه الى الله خالقه . ان الشجرة المعوجة ان قطعها تسقط حيث كانت مائلة . فان كنا ما دمنا احياء على الارض معرضين عن السماء غير مائلين اليها . فما هي الجهة التي نسقط فيها . فلنخف ثم فلنخف من جهنم

الفصل الثالث

في الدقيقة التي بين الزمن والابدية وفي ان هذه الدقيقة

مخيفة جداً لانه بها تنتهي حياتنا

فيايتها الدقيقة دقيقة حياتنا الاخيرة وبدء الابدية ما اربك وارعبك . لاننا بك نفارق الحياة وحينئذ نكره على ان نوّدي حساباً عن حياتنا . وان نلج بلداً غريباً لانعرفه . انه بدقيقة واحدة تزول حياتي .

وفي هذه الدقيقة نفسها امثل امام الديان . وحينئذٍ تتصب نصب عيني
 جميع خطايي الجزيلة العدد والفضيحة جداً . ويقضى عليّ بالخلود اما في
 السماء واما في جهنم . ولم يكن لهذا الامر الذي هو اعظم الامور اكثر من
 دقيقة واحدة . فلا يعود سبيل الاحتجاج او اعتذار ولا سيلة لرفع الدعوى
 الى محكمة اخرى ولات ساعة اجتهاد ولا استشفاع . فيا لها من دقيقة
 مفزعة نيطت بها كل هذه الامور الباهظة . ويا لها من دقيقة عظيمة انها
 اعظم من جميع دقائق الزمن والابدية . يا لها من دقيقة ليست زمناً ولا
 ابدية بل مدار الزمن والابدية . وبها يتميز الزمن من الابدية . يا لها من
 دقيقة يسيرة ضيقة وعظيمة جسيمة . تقضى بها اعظم الامور وتستوعب
 امورٌ جسيمة

فلكي نفهم جيداً ما اخوف هذه الدقيقة التي لا يستطيع الخاطي
 ان يجوبها من عدل الديان الغضوب . لا تجزي عنه شفاعة القديسين ولا
 تغني عنه صلوات الكهنة . ينبغي ان نورد ما ذكره القديس داميانوس
 في رسالته الى البابا اسكندر الثاني مما كانت تنقبض منه فرائص هذا
 القديس ويشعر بدنه خوفاً ورعباً كلما كان يتذكره قال : ذهب رجلان
 الى حرشٍ ليحطبا . فخرج عليهما تينين ضخمن جداً ذو رأسين يدلع لسانيه
 وكانهما سهمان . وعيناهُ توريان شرراً . فبرز اليه اشجع الرجلين ولبا دنا
 منه بادرهُ بضربةٍ بفأس كانت بيده قطع احد رأسيه . غير ان الفأس
 افلتت من يده بعد الضربة . فلما شعر التينين بالمرحى هجم على الرجل

وأنشِب فيه أزيابه . فشرع يصرخ المسكين طالباً من رفيقه ان يسرع الى
 عونهِ أو يناولهُ الطبر ليتخلص من ذلك التين الذي كان يسحبهُ الى وكرهِ .
 الا ان رفيقه العديم الشجاعة لم يقوَ إلا على الهرب . ففر مغادراً رفيقه
 في يد التين الذي سحبهُ الى وكرهِ وافترسه هناك . قال القديس
 داميانوس : انني لا اقدر ان اصف كم يرعيني هذا الخبر . وانني اتامل مرات
 كثيرة حال هذا التين وحال هذا الرجل في تلك المغارة . حيث لم يكن
 من يقضي بينهما ويحسم النزاع . فلامعين ولا منقذ . ولا تغني عن الرجل
 فريسة التين شجاعته ولا قوته ولا صراخه . فان كان تأمل القديس
 حال انسان ايس من كل معونة في خطر موت زمني قد افعم قلبه رعباً
 وحرناً هذا عظم مقدارها . فاذا يكون رعب الخاطي وخوفه في تلك
 الدقيقة المرعبة التي فيها يحكم الله عليه حكماً لا يردُّ . وفيها لا يعود للشقي
 رجاء عون او علاج او خلاص ويسألم لاثاب التين الجهنمي الذي
 يقبض عليه حالاً . ويغفل نفسه ويستحبها الى اللجة المظلمة الجهنمية .
 فردد بخوف في ذهنك ما قاله النبي عن الشيطان : لئلا تخطفوا مثل
 الاسد نفسي حيث لا منقذ ولا مخلص (مز ٧ : ٣) . فيا ما اربح
 الوقوع تحت مخالب اركون الشياطين حين يكون الخاطي متروكاً من
 جميع البشر والملسكة . ومن ملكة البشر والملسكة ومن ابي المراحم
 قال الانبا الياس : ثلاثة ترييني وارعد فرقاً عند ذكرها . الدقيقة
 التي فيها تفارق نفسي جسدي . والدقيقة التي فيها امثل امام الله

للدينونة . والدقيقة التي فيها يبرز القضاء علي . والحال ان هذه الثلاثة
 تتم في دقيقة الموت . فيا لها من دقيقة مرهبة تقطع خيط الزمن وتمد
 سدى الابدية المنوطة بالموت الذي سيفاجئنا اذ نكون مهتمين في اطالة
 حياتنا . وفي هذا الصدد قد اورد بولس اميلوس خبراً عن كارلوس
 ملك نافارا . قال : ان هذا الملك اذ خارت قوته من افراط انهماكه في
 اللذات اللحمية الدنسة . امرت اطباء بان يلحف جسمه ملاءة مبتلة من
 مياه مستقطرة من عصير العنب . فلفه احد خدامه وخاط عليه الملاحف
 المبتلة بالماء المذكور . واذ لم يجد لديه مقصاً يقطع به الخيط . احرقه بشمعة
 متقدة . فعلق الالهيب بالخيط ثم بالملاحف المبتلة بالعرق وغدا الملك
 مستغرقاً في الالهيب فمات لساعته . فكان حياته متعلقة بخيط . فقدها
 بمثل هذا الموت المرثي له . ولعمري ان خيط حياتنا لاسرع قطعاً من
 خيط كتان . ومن ذا يقدر ان يحصي كثرة الاسباب والطرق التي ياتينا
 منها الموت وبها . وما اصغر واحقر الاشياء المنوطة بها حياتنا اذ انها تنوط
 بخيط رفيع بل بشعرة واحدة . كذلك انقضت حياة فايوس احد القضاة
 الرومانيين القدماء . علق شعرة بحلقومه اذ كان يشرب حليباً فاحتق
 بها ومات . والموت لا يجد باباً مغلقاً دونه . بل يخرق مسام الهواء
 ويصادم الحياة ويقتنصها . لقد صدقتنا الاخبار ان اناكراون الشاعر
 مات من حبة عنب . واخر يقال له دروسوس اذ كان يلعب بتفاحة
 صغيرة وقفت في حلقومه وخنقته . فلا جرم ان شهوات النفس ولذات

الجسم تهد الطريق للموت وتوسعه . وهكذا اوميروس اعظم شعراء اليونانيين قتله الم الماينوليا . وقيل عن شاعر اخر يدعى سوفوكليس انه توفي بغتة من افراط فرح . وديونيسيوس الملك مات من افراط فرحه لما بلغه من خبر انتصار عسكري على الاعداء . واوريليانوس الملك قضى اجله وهو يرقص في يوم عرسه مع ابنة دوميسيانوس الملك عروسه . وكورنيليوس غالوس وتيطوس اتيروس وغيرها كثير من ماتوا وهم يرتكبون فعل الزنى . فليتنصحن كل قارىء ويتعظ ولا يقل اني لست اموت اليوم . لان من ماتوا بغتة لم يظن احدهم انه يموت في ذلك اليوم . فما عرض لغيرك يمكن ان يعرض لك ايضا . وما طرأ على غيرك لربما يطرأ عليك فاحذروا نته

الفصل الرابع

في السبب الذي من اجله يكون انتهاء الحياة

الزمنية مخيفاً

فان كان الموت من شأنه ان يُرعبنا جداً لان به ينتهي كل ما لنا في هذه الحياة . فما يكون اربعه اذا حملنا قهراً على ان نوّدي حساباً عاماً لذلك الديان العادل يوم لا تاخذ منه شفقة وقد مات لكي نحسن استعمال كل شيء . فكان ايوب الصديق يحسن حساب حياته . ومن اجل ذلك افتخر الله به انه خليه . وقد شهد الروح القدس انه لم يزر وزراً في كل ما قاله ان مضايقه . ولم يعذبه الله من خطيئة صدرت منه . بل

قدمه لنا مثلاً الصبر وقدوة للفضيلة . وهو قال عن نفسه ان ضميره لم
يكنه على نقص وقع فيه (ايوب ٢٧: ٦) . ومع هذا فقد اشار الى ان تادية
الحساب الاخير لله لرهب جداً . حتى انه لفرط خوفه من صرامته قال :
من يعطيني ان تعضدني في الحجيم وتسترنني حتى يجوز غضبك (ايوب
١٤: ١٣) . ومجرد النظر الى الرب يوم يغضب ويوم يكون تعالى هو الشاهد
والديان معاً سيكون مرهباً مرعباً جداً حتى ان الذهبي فمه قال في عظته
الرابعة والعشرين على انجيل متى . خير لنا ان تنقض علينا الصواعق من
ان نرى ذلك الوجه الوديع المحبوب قد استحال الى وجه غضوب يرذلنا
ويقصينا عنه وتضعفنا السماء خير من ان نشاهد تينك العينين المملوءتين
حنواً ورافة تشران الينا وترمقانا رماق الغضب

وقد اتفق يوماً في هذه الحياة حيث تسود الرحمة . ان ايقونة سيدنا
يسوع المسيح المصلوب اصرفت عينيها بغضب عن جماعة من الاشرار اذ كانوا
ينظرون اليها . فما عتم ان صعق منهم ثلثائة نفس على الارض وخروا
مغشياً عليهم ولبثوا على هذه الحال ساعات لا يستطيعون نهوضاً . فما
عساه يجل بالخطاة من الخوف اذا نظروا لا الى ايقونة ابن الله المصلوب
بل الى اقنومه الالهي نفسه . وما اذ شاهدوه ليس على حال اهانة
الصليب . بل في منبر عزته وسدة عدله . وما يغشاهم من الرعب اذا
راوه لافي زمن الرحمة . بل في محل الصرامة القسوى . ليس عرياناً
وبايد مسمرة . بل متسلحاً مشرعاً الى الخطاة سنان رجزه وغضبه ليدينهم

ويثأربهم وينتقم من معاصيهم . ولعمري ان حُقن نهر عظيم وُحسب
عن جريهِ السريع مدة عشرين او ثلاثين سنة يجمع في باطنهِ مقداراً
عظيماً من الماء . فان اطلقت بعد ذلك تلك المياه فيكون عظم جريها
عظيماً حتى انه لا جسر ولا حاجز حصين يقوى على الثبوت امامه .
وعدل الله المدعو من دانيال النبي نهرأ نارياً . كانه حقين ومحبوس مدة
عشرين او ثلاثين سنة اعني مدة حياة الانسان . فما اعظم ما تكون لجة
هذا الغضب المجموع وما اشد ما يكون عزم جريهِ على الخاطيء في
ساعة الموت . فهذا هو عين الغضب الشديد الجزيل الصرامة الذي سوف
يبصر الهالك الشقي لوائحه على وجه الديان فيأخذه منه عظيم النجمل
وكبير الرعب . ولا فراط نخله وخوفه يخر مغمياً عليه ويسقط
آيساً . ومن ثم قال دانيال النبي ان النار تتطاير من وجهه تعالى وعرشه
يكون من لهيب وبكراته من جمر نار (دانيال ٧: ٩) . لانه تعالى يكون
ملتهباً ناراً وصرامةً وعدلاً . وان بكرات عرش الله الديان الرهيب يكني
بها عن سرعة جري قدرته الضابطة الكل في ادراك ثاره من الخطاة
وانتقامه من اوزارهم . فاما هوشع النبي فمثله تعالى بوحش غضوب .
وجعل على لسانه تعالى هذه الكلمات : انا امضي الى ملاقاتهم مثل
الدب الذي خطف جروه . وامزق احشاهم واهشمهم وافنيهم
كالاسد (هوشع ١٣: ٨) . وحقاً انه لا يوجد بين الوحوش اشرس
طبعاً واسئ خلقاً من الاسد والدب اذ خطف جرو احدهما .

فانهما يشبان برجز مفرط على كل من مرَّابه والويا عليه . تأمل الانبا
 اغاتون على الحقيقة وهو مشرف على الموت . فاستحوذ عليه التحير ولبث
 في هذه الحال ثلثة ايام فاتحاً عينيه شاخصاً . ومن شدة خوفه لم يستطع
 ان يتحرك يمينا ولا شمالاً . فان الله الذي تكلف الصبر عليكم اياماً كثيرة
 فانه سوف يصبح بكم في ذلك اليوم الذي تكلم عنه على لسان اشعيا
 النبي قائلاً : اني حتى الان لبثت صامتاً وصابراً فالان اتكلم مثل الطالقة
 وأبدد وأبتلع معاً (اشعيا ٤٢ : ١٤) . فذلك اليوم اذاً وتلك الساعة يكونان
 زمن عدل محضاً لا تمازجه رحمة . فلا يكون لاحد رجاء شفقة او عون
 ولا يشفع فيه إلا اعماله الصالحة

فيا ايها الانسان الذي لم تزل بعد في قيد الحياة . اذكر متأملاً انك
 ستعرف يوماً حال هذا الزمن الذي لا يكفر فيه عنك دم السيد المسيح
 ولا صلبه ولا تنفعك شفاعة مريم الكلية الحنوّ . ولا صلوات القديسين .
 ولا رحمة الله بل مراحمة السالقة تدعوه تعالى الى ان يشدد عليك
 لافي عدله . يوم لا يكون لك من نصير وساعة اذا استشفعت فيها
 يشفع لك . بل يقوم الجميع عليك . والعذراء ام الرحمة نفسها بل رحمة
 الله عينها ودم المسيح مخلصك . وملكك الحارس والقديسون جميعهم
 يخاصمونك ويقامونك ويهملونك ولا يدافع عنك او ينتصر لك الا
 اعمالك . فانظر الان كيف يجب ان تعد نفسك لهذا اليوم . فاجتهدن
 الان في ان تنتفع بدم السيد المسيح وتصيره مفيداً لخلصك . والاعاد

سبباً وداعيةً لهلاكك . فان صدقنا القول وما من امر اصدق منه . فلم
لا نتأملهُ ولم لا نتجنب كل ما يصدنا عن تأمله ولم لا نتصح بنصيحة الانبا
امون : انه لما استشاره راهب حديث مستخبراً عما ينبغي ان يفعله لكي
ينمو في الفضيلة . قال الشيخ : اذهب وكن مردداً في ذهنك الفكر الذي
يردده في عقلم المجرمون المسجونون فلا يزالون يسألون عن القاضي
اين هو ومتى يجي . واذ يترقبون ساعة العذاب لا يبرحون مذرفين
الدموع . كذلك يجب على الراهب ان يستفره على الدوام الخوف
والرعبة ويوب نفسه قائلاً : ويل لي انا الشقي ترى كيف يكون وقوفي
امام منبر ابن الله . وما يكون الحساب عن افعالي . فانك ان تأملت هذا
تأملًا متصلًا . يتيسر لك الخلاص . ولعمري انه ولو مهما اجتهدت في
البلوغ الى هذه الحال . فلا تكون قد بالغت به

وساعة الموت سوف يرى فيها الانسان مشهداً اخر مرعباً يجعل
هذه الساعة مخيفة كل الخوف . سوف يرى بشاعة الخطيئة ويقدر
حينئذ جسمامة قبحها حق قدرها . واليه اشار دانيال النبي اذ قال : ان
منبر الله من لهيب نار (دانيال ٧ : ٩) . ففضلاً عن ان النار تحرق
انها تبرق وتضي وتنير . كذلك في الدينونة الالهية لا يحكم الله بصرامة
العدل فقط بل يكشف تفاقم خباثة البشر ايضاً كقول المرتل . انك قد
اقت اثامنا امامك ودهرنا في ضو وجهك (مزمو ٨٩ : ٧) . فالخشبة
ان طفت في الماء وركدت فيمكن صبي من تحريكها بسهولة وان ثقلت

وضخمت . وما ذاك إلا لان نصفها مستغرق في الماء . فاذا اخرجت منه علم انها ضخمة وجزيل ثقلها . ويحتاج الى اناس اقوياء في تحريكها لانه يبين كل جرمها كذلك لان شعر الان بثقل اثامنا مادامت مستغرقة في مياه هذه الحياة الكدرة المتوجة ونصفها محجوب عن بصرنا . فاذا بارحنا هذا العالم فاننا نجدها غير محتملة لافراط ثقلها وكبير جرمها يملانا من الخزي والنجل . وضمير الخاطي يطعن بسيفين . احدهما يرشق به اذ يشاهد كثرة خطاياها التي لا يحصى عددها . والاخر اذ يرى عظم قبحها واولاً ينذهل متحيراً اذ يبصر خطاياها كثيرة لم يفطن اليها قبلاً . وامر من هذا ان ما كان يظنه صلاحاً يجده حينئذ اثمًا . لانه اذا ان الاجل المسمى من الله للقضاء الاخير . فيقضي حينئذ قضاء عادلاً على الاعمال الصالحة كقوله تعالى بقم النبي . اذ اخذت انا دولة قضيت بالعدل (مز ٧٤ : ٣) . فما بعد الخلاف بين حكم الله وحكم البشر . لان الروح القدس يقول عن احكام الله انها تشبه لجة عميقة . وان افكاره لبعيدة عن افكار بني البشر كبعد الارض من السماء . فان كان الناس الروحيون المتصفون بعقل ناقب حاذق يجدون ناقصاً ما يتبين لبقية الناس كاملاً . ويرذلون صواباً ما يمدحه اولئك توهماً فما انفذ نظر الله وهو نفاذ بذات الصدور ولا تتزده امامه عن شائبة ولا نقص طهارة تضاهي طهارة الملكة فان كان تعالى اكتشف شرراً في الملكة كما قال الكتاب المقدس . فكيف يمكن ان تجب عنه ذنوب البشر . وان كان يفحص عن اورشليم المقدسة

بتدقيق بليغ . فإيَّ فحوص يفحص عن بابل الدنسة . وان كان قد عامل الإبرار
بصرامة المعاملة فبإية معاملة يقصد أعداءهُ

فهنالك تظهر عياناً جميع الاعمال التي مارسناها وتلك التي اهملناها .
هنالك ياثمك الله ليس في الشر الذي ارتكبته فقط بل في الخير الذي
اهملته وكان يجب عليك ان تفعله . والخير الذي وان فعلته لم تحسن
فعله يُعدُّ عليك اثماً . ويقام الفحص على كل امر ويرفع عنه كل حجاب
ويشتهر ويقوم الشيطان المشتكي وينقُر عن عيبك وسرك وينفشي
بكل ما عرف من ذنوبك . وما لا يعرفه الشيطان لا يواريه ضميرك
ولا يكتمه بل يشكوك به ويقاومك فيه وان فات ضميرك شيء من
اثامك . فما كُنك الحارس الذي هو الان معينك ومعضدك يكون
حينئذ خصمك . والذي لا يكشفه الشيطان ولا يعترف به الضمير ولا
يشهد به الملك الحارس فلا يمكن ان يحجب عن الديان الذي سيكون
حينئذ هو الشاهد والخصم معاً . فانه تعالى عليم بذات الصدور فيكشفه
ويشهره بحكمته الغير المتناهية لان عينه عز اسمه احق من عيون
القطا . فتنفذ الى اعق مخدع ارادتنا وترى هناك اشياء كثيرة ردية
كنا نعدّها حميدة . فبالها من تحاكمة عظيمة غريبة حيث لا منكر ولا
جاحد والجميع مشتكون حتى المذنب عينه . فبالها من حكم مريع ليس
لك فيه من شفيع او نصير . والمشتكون ثم اربعة الشيطان وضميرك
وملكك وديانك نفسه . فديانك انما يشتكي حينئذ عليك مورداً

لك اشياء كثيرة كنت تعول عايتها في تركية نفسك
فما يكون حزنك وخجلك اذا عدّ عليك الله شرّاً ما اعتقدته خيراً .
قل لي نشدتك الله من ذا الذي لم يكن يظن ان عزا الاسرائلي قد
احسن فعلاً لما دنا من تابوت العهد وسنده بيده اذ كان مشرفاً على
السقوط . الا ان الله لا يرى فيه مثل الذي رأيت بل عدّ فعله هذا اثماً
وصعته بالموت من اجله ايذاناً بان احكامه الالهية تباين جداً احكام البشر .
ومن ذا لا يستصوب ما فعله داود ان رام ان يعرف عدد شعبه ويظنه
ضرباً من الحكمة وحسن التدبير والله يحسب هذا العمل اثماً . ومن
اجله عاقبه بطاعون لم ير مثله الى يومنا هذا . ولما تبطأ صموئيل في
الحضور ضحى شاول الملك لله القرابين واستحسن فعله وظنه عملاً حسناً
ناشئاً عن تقوى وخالوص عبادة . اما الله فحسب هذا العمل نفسه
خطية وردله من اجلها . كذلك عدّ غفران اخاب لبهداد ملك سوريا
بعد انتصاره عليه فعلاً صالحاً حميداً جداً وكبر مقتاً عند الرب فعله هذا
وتغيظ الله منه شديداً . فارسل الى الملك اخاب نبياً يبشره بالموت
عقاباً بذنبه . وينذره بان ما حُقّ على اهل سوريا وملكهم من الاذى
يلتحق به وبشعبه . فان ظهرت في هذه الحياة احكام الله مختلفة عن
احكام البشر ومباينة لها . فماذا يكون في تلك الساعة المرهبة التي قد
اعدّها الله لابراز كل صرامة عدله هي ساعة تظهر فيها جسامه شرّ
الخطية ومناقضتها للعقل النطقي ويتضح ببلغ شناعتها التي تورثها للنفس

عظمة الاسبية الى الله رب البرية . وينجلي عدم الوفاء والكفران بجميل دم سيدنا يسوع المسيح اللذان سببتهما هذه الاسبية وجزيل الضرر الذي وصل منها الى الخاطي نفسه . وماهية جهنم الذي يسقط فيها لاجلها . والمجد الابدي الذي يخسره بسببها ويجد الخاطي في كل مما ذكر داعيةً للحنن والنعمة والتعويض مما من شأنه ان يجري من عينه الدموع مدراراً وبدون انقطاع . فمادياتأى له من كلها معاً . فان كان النظر الى شيطان واحد يخيف اخافة شديدة . حتى ان كثيرين من النساء فضلوا ان يكابدوا جميع عذابات هذه الحياة على ان يبصروه خزاه الله دقيقة واحدة . ولم تصدر شناعته المستمجة الا عن خطيئة واحدة فقط . فكيف تكون حينئذ حال الخاطي اذ نظر ليس الشيطان فقط وسماحته بل ذاته الشنعة نظير الشيطان . بل لربما تكون اكثر بشاعة من بشاعة شياطين كثيرين . فينتصح اذاً كل منا وليتعظ . فسوف نساق جميعنا الى منبر الديان الرهيب . الذي يكشف لنا كل شيء ويحاسبنا على ادنى ما يكون

وهذا الحساب الاخير الرهيب لا يجري على وجه العموم والاجمال بل بالتدقيق عن كل شيء فرداً فرداً بالتفصيل والتصريح . ويقيم الرب على قهر مانه حساباً عن تصرفه بكل فلس من ارزاقه . فالشرعية البشرية رسمت الا يقبل الحاكم في محكمته دعوى على شيء دني طفيف . اما في المحكمة الالهية فتقبل الدعوى على شيء باهظ ودني على حدٍ سوى . واثباتاً لذلك خبرنا مورخون كثيرون عن راهبين سائرين سيرة مقدسة

وكان يجب احدها الاخر محبةً خالصةً ويخلص له المودة . فمات احدهما .
واذ كان الاخر خاراً مصلياً لله عليه . تراءى له الميت بمنظر حزين كئيب
لابساً اثواباً حقيرة رثة . فسأله الراهب الحي عن سبب ذلك . فاجابه الميت
قائلاً ثلاث مرات : ليس يصدق احد . ليس يصدق احد . ليس يصدق احد .
فطلب منه الحي شرح هذه الكلمات . فأجابه الميت قائلاً : لا يستطيع
احد ان يدرك ما يستعمل الله من الدقة اذا اقام الحساب على كل شيء
وان صغيراً وما اعظم ما يوقع الله من العذاب بالانسان لاجله قال هذا
وتوارى عنه

ولعمري يمكننا ان نفهم ما ارهب ما يكون الحساب في ساعة الموت
مما حدث لكثيرين من عبيد الله قبل خروجهم من هذه الحياة . خبرنا
القديس يوحنا كليمكوس عن راهب يقال له استفانوس قال : ان هذا
بعد المواظبة على الرياضات الرهبانية اعواماً كثيرة . نال من الله موهبة
الدموع ومواهب اخر جزيلة جليلة . فتاق الى كمال الوحدة والانفراد
فابتنى له قلاليةً في منحدر جبل حوريب حيث رأى ايليا النبي تلك
الرؤيا العظيمة . ثم بعد ذلك رغب ان يصرف ايامه في سيرة اكثر تقشفاً .
فذهب الى مكان يدعى سيدن وهو منفرد للتوحدين ويبعد عن المدن
واهل العالم زهاء سبعين ميلاً . فمكث هناك زمناً مديداً بعيشة ضيقة
وتعب عظيم . ثم انكف عنه الى دير الاول المقدس وكان له تليذان
راهبان من بلاد فلسطين . فمكث معهما زماناً يسيراً . ثم اعتراه مرض

عضال واذا كان في نزع الحياة بُهت بغتةً واخذهُ الاندهاش . وشرع
ينظر ذات اليمين والشمال مشيراً الى ان اناساً اتوا ليحاسبوه وكان يجيبهم
مرةً قائلاً : اي نعم اني صنعت هذا الكني صمت تكفيراً عنه سنيئاً .
واخرى : لقد كذبت لانني لم اترف هذا ابداً . ومرة اخرى قال :
انني لست انكر هذا الا انني ندمت عليه وكرهته ونحت عليه وبكيتهُ
زمناً مديداً . وكثيراً ما مارست من افعال المحبة نحو القريب . ثم بعد ذلك
قال : اما هذا الذي توردونه الان علي فليس لي ما اجيب به عنه غير
اني اتكل على الرحمة الالهية وهي حسبي . لعمرى انه كان منظرًا
مخيفاً يرثى له . ثم يعقب القديس كليمكس قوله بقوله . ويل لي ويل ماذا
تكون حالي والى م مصيري ومثل هذا الناسك المتوحد يقول انه ليس
له ما يجيب به اعتذاراً عن نفسه . مع انه قد امضى في الرهبانية اربعين
سنة . واعطى من الله موهبة الدموع . وقد شهد لي بعض ان هذا
الناسك كان في البرية يطعم بيده نمرأ برياً شرساً . فمع جميع هذه
العلامات الدالة على بره وقداسته سيرته جرى الحساب عليه في وقت
موته بصرامة وتدقيق عظيمين . حتى ارتاب في ما تكون حاله ومنقلبه .
وقد جاء ايضاً في توارخ رهبنة القديس فرنسيس عن راهب مبتدئ .
انه لما مرض وقارب الموت . صرخ صراخاً مرعباً قائلاً : ليتني لم اخلق
اصلاً . ثم قال : اعدلوا باوزانكم . ثم قال : اضيفوا من استحقاقات
الام سيدنا يسوع المسيح . ثم بعد ذلك برهته قال : احسنتم الان . اما

الرهبان الحاضرون لديه . فاذ سمعوا ما كان ينطق به هذا الشاب
الفاضل بصوت مرهب مرعب . امتلاوا دهشة ورهبة . فلما استفاق
سألوه عما قاله وعن سبب صراخه الرهيب . فاجابهم قائلاً : انني في
هذه الرؤيا رايتني في مكان الدينونة الاخيرة . ورأيت الحساب عن ادنى
شيء وعن كل كلمة بطلاة دقيقاً صارماً بنوع ان استحقاق الانسان بالنسبة
الى الخطايا هو كلا شيء . ولهذا صرحت ذلك الصراخ الاول المرعب .
وبعد ذلك رأيت ان شرور الانسان تزان بجرص عظيم . واما افعاله
الصالحة فتعتبر قليلاً . ولذلك قلت الكلام الثاني . واذ ظهر لي ما
فعلته من الخير كأنه امر لا يعتد به . قلت الكلام الثالث تبرئة لنفسي .
فأضيف استحقاق الام سيدي الى اعمال الصالحة فرجحت لي كفة الميزان
ومالت . فحكمت لي حالاً بالنجاة والخلص ولهذا قلت حسن . قال
هذا وتوفي فائضاً بروحه راجعاً الى خالقها

ولللخطة منظر آخر مرعب جداً يشهدونه اذا انقضت حياتهم فانهم
يقفون على عظمة المواهب الالهية وعدم وفائهم بها بل كفرانهم بالجميل .
وقد اشار الى ذلك دانيال النبي بقوله : انه يخرج من أمام الديان نهر
ملتهب (دانيال ٧ : ١٠) . فبلطفة نهر يشير الى كثرة الحسنات الالهية
التي يفيضها الله ذاته فانه يشركنا بخيراته . وبقوله ان هذا النهر العظيم
يكون في ذلك اليوم من نار يدل على شدة الصرامة التي بها يطلب الله
ان نوفيهِ هباته وهو حق علينا ويدل ايضاً على اننا نعرف جلياً مبلغ هذا

الدين وعلى ما سوف يخامرنا من الالتهاش والنجل اذ نذكر ازدرائنا
 بهذه الحسنات ومكافأتنا الجود الالهي بالحيانة . ولعدري ان الخطاة
 يعتبرهم من افراط الحزبي والخوف اللذين يستحوذان عليهم عند نظرهم
 سمو جلال الخيرات التي من الله عليهم بها . وانه تعالى فعل لاجلهم ما
 كان بوسعهِ ان يفعله . وهم لم ينتفعوا اصلاً

فتأمل الان هذه العطايا الالهية مفصلاً . فالعطية الاولى انه خلقنا من
 تراب ومنحنا الوجود . وقد اشار الى ذلك سيدنا يسوع المسيح اذ ضرب مثلاً
 عن رب البيت الذي غرس كرماً . فما الذي كان يمكن ان يصنع الله في
 ذلك اكثر من الذي صنع . لانه جل سخاؤه منحك بذلك الاحسان كل
 ما انت عليه من حيث الجسد والنفس . فلو كنت تحتاج الى يد واحدة
 لكنت تشكر فضل من يعطيكها . فكيف لا تشكر فضل الله الذي خولك يدين
 ورجلين وقلباً ونفساً وكل مالك . فماذا كنت قبل ان يبدعك . لم تكن
 شيئاً . والان انت على كيانٍ ليس شيء افضل منه في العالم العنصري .
 قالت الفلاسفة ان بين الوجود وعدمه بعداً بعيداً لا يتناهى . فانت اذاً
 ممنونٌ لله على نوعٍ غير متناهٍ لا بما خولك من الكيان الشريف فقط .
 بل لانه منحك بحجة غير متناهية . واختارك به وفضلك على خلق لا يحصى
 عددهم كان قادراً ان يبرأهم ولم يبرأ واصطفاك من بينهم ولم يدعه
 اليه استحقاق منك . ولم يكتفِ تعالى بذلك اي انه خلقك ومنحك هذا
 الكيان الشريف . بل انه خلقك لسعادة فائقة الطبيعة . وجعل لك غايةً

اجل غاية وهي الحظوة بخالقك الى الابد . ومن المحال ان توجد خليفة
تسموك قدراً وشرافاً من حيث هذه الغاية السامية . فما الذي كان يقدر الله
ان يفعله لاجلك افضل من ذلك . حقاً انه لاجل هذه العطية فقط
كان يجب عليك الا تحرك يدك ولا تميل طرفك الا ابتغاء وجه الله .
فالذي يغرس شجرة يحق له ان يتلذذ باثمارها . فالله خلقك وبرأك فله
حق في كل افعالك لانها بمثابة ثمار الانسان

الا ان موهبة الوجود ولئن كانت عظيمة جداً فليست باعظم من
الموهبة الثانية التي هي حفظ الوجود موهبة بها حفظ الله حياتك حتى
الان وصبر عليك بطول اناة ولم يُلقك في جهنم كما استحقته مراراً وتستحقه
بخطاياك . انظر كم من الناس لم يحفظهم الله في هذه الحياة . ولم يحتلمهم
بعد ارتكابهم الخطيئة مرة واحدة لكنه طرحهم في دركات الجحيم . ولو
نال بعضهم ما نلت من الصنع والمغفرة لاحسنوا الوفا واسدوا لله شكراً
جزئياً واجزل منك . فانظر كم من الملائكة قد طردهم الله حالاً من السماء
ولم يقترفوا الا خطيئة واحدة . ومن ثم فانت ممنون لله بحفظه اياك
اكثر مما انت ممنون له بتكوينك . لانه وان كنت عدواً له تعالى فقد
حفظ حياتك واحتملك . نعم لم تستحق ان يخلقك . الا انك لم تكن
فعلت شيئاً حمله تعالى على ان يمسك عنك هذا الاحسان . اما الان
فقد استحققت مرات كثيرة ان يعدمك هذا الوجود . ويسلب منك
هذا الاحسان

ان الاحسان الثالث هو احسان التجسد الالهي ويسمى على
الاحسانين المتقدم ذكرهما سموً لا يحد. ويشير الى ذلك السيد المسيح
بقوله: ان رب الكرم ارسل اليهم ابنه (متى ٢١: ٣٧). فهل كان ممكناً ان
يفعل الله لاجل خلاصك اكثر من انه يرسل الى العالم ابنه الوحيد
ليصير انساناً. لعمرى ان قدرة يد الله الضابطة السكل تعجز عن ان تصنع
لاجلك افضل من هذا. فاعتبر انه تعالى لم يفعل لاجل الملكة ما فعل
لاجلك. فكيف تدع ان يحبه الساروفيم اكثر مما تحبه انت. تأمل ايضاً
انه تعالى كان يقدر ان يفديك بصيرورته ملائكة ويجرد صلته عليك .
الا انه احب ان يصير من اجلك انساناً لئلا يفوت طبيعتك هذا الشرف
الوسيم . وقد ذهب قوم من العلماء اللاهوتيين الى ان سبب سقوط
الملكة هو لانهم ابوا ان يخضعوا لمن كان دونهم من حيث الطبيعة .
فانه اذ فتح الله لهم علم الغيب واوعز اليهم ان سوف يلتزمون بالسجود
لانسان يكون الهاماً معاً ويتخذ سلطاناً مطلقاً على جميع مراتبهم فتكبروا
وتردوا . فان كان هذا الرأي مصيباً فتأمل كم تكون ممنوناً لله بهذا
الاحسان العظيم اذ احب ان يصير انساناً لاجلك لئلا تهلك . مع ان
احسانه هذا كان مزماً ان يصير سبباً لهلاك جميع اولئك الملكة وهم
افضل منك طبعاً

واعلم انه بهذا الاحسان قد انقذك من الخطيئة وانتشلك من
الحجيم حينما كنت آيساً من خلاصك وما من معين او نصير . تأمل انه

تعالى بلغ بك غاية من فضله ونعمته واقامك وريثاً لملكه . تأمل انه انجز احسانه هذا الوسيم اليك بمجبة لا تحدد وتكلف لا يقدر . لانه كما قال الرسول اخلى ذاته اخذاً صورة عبد لكي يرفعك . فأخذ طبيعتك اختيارياً وبدون اضطرار . ولم يقصد في ذلك الا ان يمن عليك باكرام لم يمنحه للملكة . فانظر هل استطاع الله ان يصنع لاجلك افضل مما صنع . وهل كنت تقدرات ان تسي اليه اكثر مما اسأت

وتناسب هذه الموهبة او تضاهيها الموهبة الرابعة وهي موهبة القداء الذي افتدانا به السيد المسيح بالامه وموته . وقد اخبرنا عن ذلك قبل موته قائلاً : ان الابن المرسل من رب الكرم قتله الكرامون . فهل تيسر لابن الله ان يفعل لاجلك اكثر من ان يموت ويريق دمه الزكي فداءً عنك وحباً بخلاصك ولم يكن هذا لازماً وضرورياً لخلاصك . نعم انه كان من الوجوب ان يصير الله انساناً او ملاكاً لكي يفتديك بكل ما تقتضيه صرامة العدل . الا انه لم يكن ضرورياً ان يتألم ويموت . والحال انه اذا اثر التألم . لم يرتض به صغيراً . بل اراد ان يتألم بافراط الألم حتى اتضح جلياً انه ما من اوجاع على الارض اعظم من اوجاعه . فتشخص نصب عينيك سيدنا يسوع المسيح مصلوباً على جبل الجلجلة . هل يمكن ان يصيب احداً ما اصابه من الهوان . فانه تعالى صلب بين لصين بعد ان حكم عليه بظلم كلي انه رجل مفتن عاص على قيصر . مبتدع تعليمًا مخالفاً . والحال ان هذين الاثمين الذين قرفوا بهما السيد

المسيح فريّةً واعتداءً من شأنهما ان يشينا عرض المثلوب بهما اكثر مما تشينه بقية الاثام . لانهما يلحقان الهوان والاحتقار . ليس بالمثلوب بهما فقط بل بنسله ايضاً جيلاً فجيلاً . ثم تأمل ما ارقّ حاله فقراً عند موته . فانه لما كان متردداً في الناس لم يكن له ما يسند اليه رأسه . بل كان متردياً باثواب لستره جسده . اما في حين الامه وموته فترك عرياناً ولم ينل نقطة ماء لاطفاء غليل عطشه . تأمل ما اشدّ اوجاع موته الاتراهُ مُتخنناً بالجراح مخضباً بدمه حتى لا تجد من هامته الى قدميه عضواً من اعضائه لا يتالم شديد الالم . لاحظ يديه ورجليه انها مثقوبة بمسامير حادة ورأسه مكمل بالشوك . تروّف تجد انه تعالى مصاب بما عظم من الآلام ومتململ على صليب اوجاع قاذحة وبعث به اليه فرط محبته اياك . واحب ان يقاسي من اجلك ما استطاع . فتأمل الان ما الذي يجب عليك ان تفعله انت وتحتمله حباً بابن الله الذي قبل مثل هذه الآلام فداءً عنك . ولاجلك صنع كل ما كان قادراً عليه وهو التقدير على كل ما يشاء

ووظف الى هذه الاحسانات جميعها الموهبة الخامسة وهي الاحسان الالهي الفائق الذي به منحك الله تعالى ذاته مأكلاً ومشرباً في سرّ القربان المقدّس . ولعمري تترآى لي ان الاقانيم الالهية الثلاثة قد اعتصبت يداً واحدةً غيرة على حب الانسان . فالاب الازلي بتسليمه ابنه الوحيد للموت حباً بالبشر قد اقترح فعلاً لا يبارى فضلاً وعظمة . وابن الله اقترح ما يفوق ذلك ورسم السرّ الاقدس الذي به بلغت

محبته الى اقصى مبلغ . وانتهت على نوع ما احساناته الالهية الى غاية كمالها .
 اذ انه تعالى بهذا الاحسان يهبنا ذاته ويدخل الى قلبنا لكي يكتسب
 محبتنا . فالذي لا يحبهُ تعالى لاجل هذا الاحسان فما اعظم ما تكون
 دينوته . فلذلك قد قال حسناً الرسول الالهي : ان من يأكل
 جسد الرب ويشرب دمه وهو على خلاف الاستحقاق . انما يأكل
 ويشرب دينوته لنفسه (١ كو ١١ : ٢٩) . اي انه يتبع كأس رجز
 غضب الديان المرهوب

فبم يحيب الخطاي حين يحاسب عن جميع هذه الحسنات .
 ولعمري ان القاتل مثلاً اذا حضر موت انسان شرير حكم عليه بالموت
 اذا هو يداخله الخوف ويرتجف فرقاً من ان يقبض عليه ايضاً ويحكم
 عليه بمثله . فكيف لا يخاف من هو سبب موت الله . وبما اذا يعتذر
 حينما يشتكي منه عليه بهذا الاثم الجسيم . لان السيد المسيح كما قال
 الذهبي فهُ يخاطبه قائلاً : اني برأتك ولم تكن في حيز الوجود وسلطتك
 على ما في الارض طراً مما خلق . ومن اجلك ابدعت السماء والجو والبحر
 والارض وجميع ما في العالم . واما انت فقصدتني بالاهانة وسوء المعاملة
 وزلتني منزلة احقر الاشياء وعددتني دون الشيطان نفسه . ومع هذا
 فقد ضاعفت احساناتي الاولى اليك واضفت اليها احسانات اخرى
 جديدة . ومن اجلك اخترت انا الاله والرب والسيد ان اصير عبداً
 واسيراً . وقد لطمت وبُصق على وجهي كاسير مجرم . وقد ارتضيت

بالموت موت الصليب لكي انقذك من الموت . ثم من بعد هذا جميعه
 فقد قمت لك شفيعاً في السماء فمخّطك الروح القدس . ودعوتك الى
 الملك السماوي . واحببت ان اكون لك رأساً وعروساً وثوباً ومسكناً
 ومأكلاً ومشرباً وراعياً واخاً واصطفيتك الى ميراث المجد الابدي .
 وانتشلتك من ظلام الموت الى نور حياة الابد . فاذا سرد لنا السيد
 المسيح مورداً ما حملته محبته المفرطة على عمله . فباي جواب نجيبه وكيف
 تكون لنا معذرة . حقاً انه ليثملنا حينئذ الخزي المميت من عدم وفائنا .
 ومن كوننا قد جعلنا للشيطان سبيلاً لان يستهزي بخلصنا قائلاً نحوه تعالى
 مزدرياً . انت قد خلقت هذا الانسان ولاجله صرت بشراً وقضيت
 حياتك على الارض في مشاق الاتعاب . ولاجله مت من شدة الآلام
 والابواب . اما انا فبخلاف ذلك لم افعل لاجله شيئاً اصلاً . بل لم ازل
 راغباً له كل يوم الف جهنم . ومن شدة بغضي له كنت اود لو فنيته .
 ومع هذا كله فقد افرغ جهده كله في ان يرضيني ولم يفكر في رضاك
 اصلاً . انت هيات له المجد الابدي اجرأ وثوباً . وانا عقدت قلبي على
 ان اسومه شرراً في لجة جهنم . وخدمني بامانة مجاناً . انت اعددت له
 اجرأ عظيماً . وهو قد كافأك بالخيانة . فلو كنت انا خلقتة وبذلت نفسي
 دونه لكنت عدت ذلك احتقاراً لي منه . فالان اذ قد فضاني عليك
 واحب ان يكون لي من ان يكون لك . فحق لي ان استرقه لانه عاهدني
 في نفسه مرات كثيرة وعلى اوجه مختلفة

ان الحساب الاخير لا يقيم علينا عن المواهب العامة فقط بل عن الخاصة ايضاً . ومنها الامثلة الصالحة التي كانت تدعوننا الى الصلاح . والمذاكرات الحميدة التي سمعناها . والالهامات الالهية التي اوحيت الينا وشعرنا بها فلترتعدن اذاً عند ذكرنا هذا الحساب الصارم الدقيق الذي من اجله كان الانبا تاليلالوس يرتعب ويبيكي بكاءً مرّاً واذا سئل عن سبب ذلك قال : اننا قد اعطينا هذا الزمن فان اهملناه واغفلنا عنه فيكون الحساب عنه عظيماً ويطاب منا كثيرٌ

الفصل الخامس

في ان الله يحكم بصرامة شديدة

في هذه الحياة ايضاً

انه لكي نفهم جيداً صرامة حكم السيد المسيح على الخطايء حين انقضاء هذه الحياة نورد شيئاً قليلاً من صرامة حكمه تعالى عليه في هذه الحياة نفسها حيث يعامله برحمة . ونستدل من ثم على كيفية حكمه تعالى عليه حين يعمل بالعدل فقط . فقد خاطب الله شعبه بضم حزقيال نبيه قائلاً : اني عن قريب اسكب عليك غضبي . واتم فيك رجزي . واحكم عليك بحسب طرقتك . واضع عليك جميع اثامك (حز ٧ : ٨) . ولعمري انه ليس بمعجب ان يصيب الخطاة الذين تباعدوا عن الله وتركوه مثل هذا المصاب . اذ انه تعالى يعامل بهذه الصرامة نفسها الذين يغارون لمجده . فلننظرن كيف يصور لنا زكريا النبي هذه الدينونة

الالهية في شخص يسوع بن يوصادق الحبر الاعظم . الذي كان عائشاً في ذلك العصر . فالنبي راي الحبر الاعظم ماثلاً بازاء ملاك الرب والشيطان قائماً من عن يمينه يقاومه . وقد ظهر الحبر المذكور في هذه الدينونة كحجر جهنمي ملتهب مسود الاثواب من الدخان . لان الكتاب المقدس يدعوه قُبساً منشولاً من النار باثواب مدنسة (زكريا ٣ : ١) . فان كان مثل هذا الحبر الغيور تلى مجد الله بغيره مضطربة نخيل امام ملاك الرب وبان على هذه الحال . فترى كيف يظهر الانسان الخاطئ امام الاله الذي احتقر ناموسه اذا حسَّ بأسه وانقلمه

وهذا المعنى قد اوضحه السيد المسيح في سفر الرؤيا حيث حكم على اساقفة اسيا السبعة وهم احياء . وقد كان منهم قديسون معتبرون معظمون كالقديس تيموتاوس تلميذ الرسول بولس . والقديس بوليكر بوس . والقديس كوادراتوس . والقديس كار بوس . والقديس ساغار بوس . فلننظر اولاً كيف كان سيدنا يسوع المسيح جالساً حينما دانهم وباية صرامة حكم عليهم . قال الكتاب المقدس اولاً انه تعالى كان جالساً بين منارات متقدمة ينبثق منها نور عظيم . وكان في يده سبعة كواكب نيرة جداً . ووجهه يلمع كالشمس في رابعة النهار . وكان ينجلي بنوره عن كل امر ظلام الجهل ويشق حجاب الستر . وعيناه كانتا متقدتين كالليب (رؤ ١ : ١٤) . فهذه جميعها تشير الى دقة الحساب الالهى وجللاء ظهور جميع الخطايا . وانه تعالى لا يمكن ان يخفى عليه شيء .

ثم انه يقول ثانياً وكان في فمه سيف ذو حدين (رؤ ١: ١٦) . وبهذا يشير الى ان فعله يكون اكثر صرامة من قوله . ثم يقول اخيراً انه عز وجل قد كان في كل اوجه هذه الرؤيا مرهباً مرعباً . حتى ان القديس يوحنا صاحب الجليان وان لم يكن من جمهور المدانين ارتعب فرقاً وسقط على الارض مغشياً عليه (رؤيا ١: ١٧) . فان كان التليذ الحبيب الذي لم يكن الله ليسخط عليه خراً صعفاً اذ علم التهديدات الالهية على اناس آخرين كان يريد سبحانه ان يعاملهم برحمة . فماذا يكون بعد هذه الحياة اذا ظهر ابن الله وتجلّى للخاطي بكل رجز غضبه وليس ثم رجاء رحمة . فحقاً انه لو امكن الائنس ان تموت لماتت الف مرة عند مشاهدتها هذه الرؤيا المهيلة المرعبة

فلنتظرن ثانياً ما رآه عينا السيد المسيح الناريتان لما فحص عن اعمال الاساقفة المتقدم ذكرهم . الذين وان كان قد دعاهم تعالى ملكة . فمع ذلك وجد عليهم سبيلاً ورأى فيهم ما يوجب التوبخ . وذلك ليم قول ايوب الصديق ان الله وجد شرّاً في مائكته (ايوب ٤ : ١٨) . فمن ذا الذي كان يمكن ان يُخطره ببال ان السيد المسيح ينهر القديس تيموتاوس المحبوب والمدوح من القديس بولس الرسول . وانه جلّ اسمه يتوعده بالطرد من الكرسي الافسسي ان لم يتب ويصالح سيرته بالارتداد الى نشاطه الاول . وانه تعالى يجد في القديس كاربوس اسقف برغاموس وكذلك في اسقف تياتيرا ما يستلزم الندم والتوبة . وان اسقف نيرديس

المعروف بالقداسة يجده تُقدس اسمه في حال خطيئة مميته. وان اسقف
 اللاذقية الذي لم يبكته ضميره على شيء يدعوهُ رب المجد شقيًا وفقيرًا
 فأقدًا كل فضيلة واعمى وعريانًا. فما اصدق ما قاله الحكيم ان الانسان
 لا يعرف هل يستحق المحبة او البغضاء (جامعة ٩: ١). ولهذا كان
 الملك والنبي داود يطلب من الله ان ينقيه ويطهره من الخطايا المجهولة منه
 قائلًا: من خفاياي نقيني مز ١٨: ١٣

فيا ايها الرب القدوس والديان المرهوب. كيف لا تخافك الناس
 لاجل خطاياهم المعروفة منهم. مع انه كان ينبغي ان يخافوا جدًّا من
 اجل خطاياهم الخفية عنهم. فالله اذا يداق بالحساب مداقة هذا
 حدها. حتى انه من سبعة اساقفة مشتهرين بالقداسة وجد ستة ذير
 منزهين عما يوجب اللوم والتوبيخ. اذ وجد في احدهم التواني. وفي
 الاخر عدم الثبات في الخير. وفي الثالث الجبانة. وفي الرابع الكسل.
 وفي الخامس الخوف والفرع الباطل. وفي السادس الجهل وعدم الافراز.
 وكان اثنان منهم في حال الخطيئة. فان وجدت عين الله زلات في
 مثل هؤلاء الملئكة. فما الذي تجده فينا نحن الخطاة

وقد جنى هؤلاء الاساقفة جزيل نفع من علمهم بدينوتهم من الله.
 واقد ثبت ان الذين عرفنا اسماءهم. قد توفوا قديسين وحررت اسمائهم
 في سنكسار الكنيسة. كذلك يفيدنا جدًّا علمنا باننا سندان بهذه الصرامة
 وتصدنا معرفتنا هذه عن ان نأسي الى المحسن الينا بحسنات لاحد لعددها

ولا تقدير لعظمتها . وعن ان نباشر خدمته تعالى بتوان وكسل . وتحرضنا
 على ان نمارس افعالاً صالحة مملوءة كمالاً . فلا يسمع احدنا ما قيل لاحد هؤلاء
 الاساقفة ليتك باردٌ او حارٌ . لكن لانك فاتر لا بارد ولا حار فسايتدي
 ان اتقاءك من في (رؤيا ٣ : ١٦) . فلنحذر من ان نجعل للسيد المسيح
 سبيلاً لان يتقاءنا . اي ان يبغضنا ويرذلنا . ولننظر هل محبتنا خالصة .
 لانها لا تخلص ان كنا نحب هذا ولا نحب ذاك . اذا اشتبهنا خيراً للمحسن
 الينا وبغضنا من اساء الينا . ان كنا نضع الخير ولا نريد ان نحتمل الشر .
 فانظر هل تحتمل القريب كنفسك . الا تؤثر مرغوبك على رأي الغير
 ومرغوبه . اعتبر هل محبتك لله تحملك على تجشم صعاب الامور برضى .
 اأست ربما تحبه تعالى بالكلام لا بالافعال . تأمل هل اتضاعك كامل .
 وذلك ليس بالهرب من الكرامات الزمنية فقط . بل بابتغاء الاهانات
 والسعي بطلبها ايضاً . لا بالآستأثر لنفسك الاعتبار دون غيرك . بل ان
 تحمل نفسك محلاً دون غيرك ايضاً . انظر هل صبرك جميل . اعني هل
 تحتمل ما يطرأ عليك من جهة او من اخرى على حدٍ سوى . هل
 تحتمل ذلك كمن لا يسأم من صعوبة . افكر هل طاعتك حسنة . فلربما
 تطيع في الاشياء الخفيفة السهلة لافي ما تجده ثقيلاً وعسراً . او تطيع من
 هو نظيرك لا من هو دونك وتلاحظ فيه كونه انساناً لا كونه نائب الله .
 ومن ثم تخضع قهراً لا بطيبة القلب . فاعتبرن قوله تعالى لا سقف
 سارديس : فاذا كركيف نلت وسمعت واحفظ وتب (رؤيا ٣ : ٣) . فلا

يقول لك الرب اذكر ما نلت وقبته بل كيف نلته . لاننا لسنا
ممنونين لله بجوهر الحسنات الالهية فقط . بل بنوع منحها ايضاً واعراضها .
فاذ قد تكلف الله لاجل خيرك فعلاً ناشئاً عن قدرته الضابطة الكل .
فابذل انت ايضاً لقاء ذلك كل ما بك من الجد في تعجده تعالى
وخدمته

الفصل السادس

في انقضاء كل زمن

اذا انقضى زمن حياتنا فسوف ينتهي كل زمن ايضاً ومعه كل شيء
سوف ينتهي . فما اعظم بطلان الاشياء التي يريد الناس ان يبقوا فيها من
بعدهم ذكراً مخلداً . ويشيدون المنازل الملوكة وما شاكل ذلك . والحال
انه ستهدم المدن وتدمر المنازل الملوكة . وينتهي كل شيء لان كل زمني
ينتهي . فما اكثر ما كان يرغب المجد العالمي شيشرون القنصل الروماني
والخطيب الفصيح ومعلم الخطباء وامامهم . فهذا كتب رسالة مطنبة الى
احد اصحابه يذكر فيها واقعة كان اثارها حبا بتشريف اسمه وابقاء ذكره
مخبراً عما فعل الا انه اذ تأمل ذلك ان الزمن سوف ينتهي مع العالم
علم جيتذ وتحقق انه لا مجد ولا ذكر يدوم في العالم . ولذلك قال انه لاجل
حريق الارض الذي لا بد ان يكون في وقت معيّن . لا يمكننا ان نكتسب
مجداً لا ابدياً ولا مديداً

قال التلميذ الحبيب في جليانه . انه ابصر ملكاً شديداً البأس منحدرًا

من السماء . ملتخفاً بسحابة ومكلاً بقوس قزح . ووجهه منير كالشمس .
 ورجلاه كعمودي نار . فالقى احدهما على البحر والاخرى على البر .
 وصرخ بصوت عظيم مرهب جداً كاسد زائر . فارتجفت الارض
 بسبعة رعود هائلة . وللوقت رفع ذلك الملك العظيم يده الى السماء
 (رؤيا ١٠ : ١٠ - ٥) . فان قلت وما سبب هذه الامور المرهبة والحوادث
 المرعبة وما هو مدلولها . اجبتك ان الله اراد ان ينادي هكذا بانتهاء الزمن .
 ليكون اعتمادنا بذلك وثيقاً فاقسم الملك العظيم بالحلي القيوم الى دهر الداهرين
 من خلق السماء وما فيها والارض وما فيها . والبحر وما فيه . انه لن يكون
 زمن فيما بعد . كفي بقسم ملك سموي اثباتاً راهناً على انتهاء الزمن
 والنبات التي وردت عن انتهاء الزمن هي مخيفة مرعبة جداً . حتى
 انه لو لم ينطق بها الروح القدس لما امكن بشر ان يميل الى تصديقها .
 ومن ثم بعد ان اورد السيد المسيح بعضاً منها لتلاميذه . أعقب قوله
 بصورة يمين كما آلف تعالى ان يصنع اذا قصد ان يثبت امرأً باهظاً فقال :
 الحق اقول لكم ان هذا الجيل لا يزول حتى يكون هذا كله (متى ٢٤ : ٣٤) .
 فاذا قد تقرر اذا وتحقق ان الذكر البشري وان كان على جانب من
 الشهرة فسوف يمحي لاحالة مع زوال البشر . فلنبذلن جهدنا في ان نكسب
 لنا ذكراً ابدياً ذكراً لا يعتوره زوال . قال النبي ان ذكر الصديق يدوم الى
 الابد (مز ١١١ : ٧) . اي ان الله الازلي الابد يذكره الى الابد . اما
 ذكر الناس لنا فيزول بزوالهم

الفصل السابع
في كيف تتغير العناصر والسماء
عند انتهاء الزمن

فها ان نعتبر كيف ينتهي العالم كله . ويستبدل من نوع
زواله المرعب ان الناس قد تصرفت بالاشياء العالمية تصرفاً ردياً . لانه
لولا كثرة شرور العالم لما كان انتهائه هكذا شقياً . قال القديس
اكلينزوس الحبر الروماني ناقلاً ما كان تعلمه من القديس بطرس
الرسول . ان الله عين من الازل يوماً يسليط العذابات على اهل الاثام .
ويقال لهذا اليوم في الكتاب المقدس يوم الرب . فان كان رعب
ذلك اليوم على قدر كثرة الخطايا وعظمتها . فلا انذهل مما تقوله
الكتب المقدسة والاباء القديسون عن افراط هولاه . وما يجري في
الحروب يحدث في ذلك اليوم الرهيب . فقبل ان يلتقي الجيشان ويلجما
القتال ويتصادما ضرباً وطعنًا يبرز من المعسكرين بعض الجنود وتثار
وقائع جزئية قبل اثاره الحرب . كذلك في ذلك اليوم الرهيب الذي فيه
يلتقي جيش العذابات وجيش الاثام . فينزل الله اولاً بلايا متنوعة شيئاً
فشيئاً كأنهما جماعة من العسكر يتقدمون المعركة بحرب صغيرة
وهذا ما اشار اليه الرسول يوحنا في جليانه حيث يقول : انه
رأى بعضاً من الجنود يبرزون الى الميدان على خيل بيض وحمرة وسود

وخضر (رؤيا ٦ : ٢ - ٨) . فيتقدم الله ويرسل تارةً جوعاً . وطوراً
 طاعوناً . وحيناً حرباً . واوناً طوفاناً . ووقتاً زلازل . وزمناً قحطاً وغير
 ذلك . فان تضيق الناس جداً من هذه البلايا . فإذا تكون حال الخطاة
 اذا جرد الله سيف عدله . وقامت كل خليفة عليهم وقاومتهم . وكان
 قائد هذا الجيش غيرة العدل الالهي . لانه كما قال الحكيم تاخذ
 حينئذ غيرة الرب سلاحاً . ويدحج الخليقة بسلاح الانتقام لكي يدرك
 ثأره من اعدائه . والعالم يجارب معه الجهال اي الخطاة (حكمة
 ١٨ : ٥)

ولعمري ليس مبالغة في قول الانجيل المقدس : تزهق الناس من
 الخوف وانتظار ما يأتي على المسكونة فان قوات السماوات تتزعزع (لو
 ٢١ : ٢٦) . لانه كما ان الانسان المقول عنه انه عالمٌ صغيرٌ . اذا دنا اجله
 تنقبض فرائضه . وتظلم ابصاره التي هي كالنيرات والنجوم . ويتشوش
 العقل الذي هو بمنزلة القوى السماوية . هذا عينه بل اعظم منه يحدث
 في العالم الكبير اعني المسكونة كلها . لان الشمس تستحيل الى ظلام والقمر
 الى دم . والنجوم تتساقط . وكان العالم اذا شعر بدنو انقضائه وانهدامه
 يضطرب اضطراباً عظيماً قبل ان ينحل . فان كان القمر والشمس وبقية
 الاجرام السماوية المظنون بها انها غير قابلة للفساد سوف تتغير وتظلم على
 النحو المذكور . فوالذي يجري بالعناصر المرتبطة بها والتي طبعت على
 التغيير والانحلال . فيهبج الهواء من الزوابع والريح الزعازع وتركم السحب

وتخرج من خلالها البروق اللوامع وتنقض الصواعق . وتاتي السماء
بالرعد السوابق . فترتجف الارض من الزلازل وتتفلق من كل ناحية
انفلاقاً مذهلاً . وتخرج من جوفها جبال نار ملتبهة قبتلع المدن وتتقوض
القلاع الشاخنة وتندك دكاً دكاً . ومن لنا ان يصف شدة احيج البحر وعجيجه
فتراكم حينئذ امواجه متعالية حتى تغرق الارض كلها اوتسكاد . والبحر
المحيط يزيد ويهيج حتى تسكاد الناس تموت خوفاً . ولهذا قال سيدنا
يسوع المسيح : ويكون على الارض كربٌ للامم حيرة من عجيح البحر
وجيشانه (لو ٢١ : ٢٥)

فاذا كيف يكون حينئذ حال البشر في هذا كله اعني في اضطراب
الارض وتبليها . فانهم يبهتون بهتة الموت مرتعدين فرقا من تفرسهم
بعضهم بعضاً . وعدا هذا وهذا يبطل الاخذ والعطاء . وتخلو الشوارع
والمحاكم من اهليها ولا يكون وقتئذ من يرغب الكرامات العالمية والمذات
اللحمية والكنوز الارضية . ولا من يسكن في القصور والمنازل الملوكة .
ولا من يفكر في المآكل والمشرب بل يفكرون جميعهم في ان يجدوا
لهم ملجأً ينجون به من الطوفان والزلازل والرعود والصواعق . فلا يجدوا
وباطلاً يطلبون حينئذ مهرباً وملجأً يأوون اليه . لانه ان المحيص والمقر
واين المهرب والمناص . من ذا يفخر حينئذ بشجاعته وعقله . من يتذكر
البهاء والجمال وما يضاهاه ذلك من الاشياء المعتبرة الان . لانه ان نسي
كل ما يخصه فكيف يذكر ما يخص غيره . من يفكر حينئذ في بطش

اسكندر الملك وعظم اريسطوتا ليس . او حكمة اعظم حكماء العالم .
 فيفنى وقتئذ ذكركهم ويضمحل مع العالم الى الابد . تامل حال النوتية
 اذا اشرفوا على الغرق . فتراهم يفقدون الصواب لما يطرقتهم من
 النواب والهول اذا شاهدوا اختباط الامواج . فيصرخون وينذرون
 ويصلون . ويتجددون حينئذ تجرداً كائياً من محبة الخيرات الدنيوية .
 فتراهم يهبون الى القاء الوسق في البحر غير مأسوف عليه . فكيف اذا تكون
 حال الناس في ذلك اليوم ولا سيما حال الخطاة الذين بسببهم تحدث
 هذه الاشياء المرعبة

فان شئت ان تدرك عظم الخوف الذي سوف يستحوذ على الجميع
 حينما يقوم العالم نفسه متصراً لله على الخطاة فاعتبر ما حدث من
 الحوادث الطبيعية وما طرأ من الطوارئ . وتعلم من ذلك ما اربها ما
 يكون منظر مجموع البلايا . خبرنا الكردينال يعقوب البادواني . انه في
 عصره اعني في سنة الف وستمائة وست وخمسين في اليوم الخامس من
 شهر كانون الاول تزلزلت مملكة نابولي مدة ثلاث ساعات قبل الصبح .
 وانفتح قلب الارض وابتلع قصوراً وقلاعاً عظيمة . فهلك من الناس زهاء
 سبعين الفاً . فاعلته ثابت عند البشر ان كانت الارض التي يطأونها
 لا ثابت لها . واين عادوا يجدون شيئاً راسخاً بعد ان ترزع ما كان في العالم
 متمكناً ثابتاً . فلموت رقيب علينا واقف لنا بالمرصاد . وقد خبرنا افانغريوس
 المورخ انه في ليلة عرس موريسوس الملك . حدثت في انطاكية زلزلة

عظيمة هدمت اكثر منازل المدينة . وبادت تحت ردمها زهاء سبعين الفاً .
ويذكر ايضاً بلينيوس انه في زمن طيباريوس قيصر دكت بزلزلة واحدة
اثنتا عشرة مدينة كبيرة . وقد اخبر نيكيفوروس انه في زمن تاودوسيوس
الملك حدث رجفة عظيمة اتصلت من الاسكندرية الى انطاكية . والى
ممالك اخر شرقاً وغرباً . واستقامت ثلاثة اشهر حتى خيل للناس ان العالم
سوف يهدم قاعاً صافصفاً . ويجب ان نورد ما كتبه القديس ارونيموس
واميانوس المؤرخ الذي شاهد الامر عياناً . قال انه بعد موت الملك
يوليانوس العاصي حدثت زلزلة عظيمة ارتجفت منها الارض كلها . وتجاوز
البحر حدوده حتى ظن الناس ان الطوفان عاد ثانية وان تلاشي العالم .
لان السفن طفت فوق اعلى منازل الاسكندرية . بل تعالت فوق الجبال
ايضاً . ولما سكن البحر ورجع حقيناً بين حدوده . استمرت تلك السفن
على اسطحة المدينة المذكورة كما يشهد نيكيفوروس المؤرخ اليوناني . خبرنا
ايضاً تريتيوس وغيره من المؤرخين انه في سنة الف ومائتين وثمان
عشرة . هاج البحر وتراكت امواجه في اسواق فريسيا . فمات من الناس
اكثر من مائة الف نفر مرة اخرى دخل البحر المدينة المذكورة وذلك
في سنة الف ومائتين وسبع وثمانين فغرق ثمانون الف نفس . وقد ذكر
سوريوس المؤرخ انه في سنة الف وخمسمائة وتسع . في اليوم الرابع عشر
من شهر ايلول . ثار البحر بين القسطنطينية وباراوهاج حتى ارتفع فوق
الاسوار . واهلك اناساً كثيرين . فاذا يكون اذا امر ربك بالانصر

ان تثب على الخطاة . وتقوم كل الخليقة على قدم وساق لتنتقم لخالقها
من الائمة الذين كافأوا حسناته بالحيانة والكفران
والهواء ايضاً ذاك العنصر اللطيف . الذي به نسمة حياتنا اذا
اطلق الله له الاعنة يتخذ من الضعف قوّة هذا عظم مقدارها . حتى
انه يقوّض ويهدم كل ما هبّ عليه ويستأصل الاشجار ويرمي بها بعيداً .
وقد ذكر سوريوس المؤرخ انه في سنة الف وخمسمائة وسبع في اليوم
الثامن والعشرين من ايار ثارت في مملكة النمسا ريح عاصفة زعزعت
اليوت فانفجرت السطوح بعضها عن بعض . وخبرنا مؤرخ اخر انه
شاهد بعينه في عصر الملك انريكوس السادس اخشاباً ضخمة جداً متطائرة
في الجو في مسافة ميل من شدة الريح لا غير . فليس اذاً لنا ان نتعجب
مما ذكره يوسيفوس المؤرخ اليهودي واوسايبوس القيصري . من ان
برج بابل معجزة العالم هدمه الله بقوّة الريح لا غير . وكيف نفصح عن غريب
الحوادث التي يحدثها هذا العنصر اللطيف ونحن نعلم ان الهواء انما حمل
البرد الذي قتل انعام مصر . وفي بلاد فلسطين وقع برد ثقيل كبير قتل
من الاموريين اناساً لا يحصى عددهم . وقد ذكر ايضاً انه في سنة الف
 وخمسمائة واربع وعشرين وقع في بلاد ايطاليا في مدينة كريمونا برد بقدر
ريضة الدجاجة . وانه في سنة الف وخمسمائة وسبع وثلاثين . امطر الله على
مدينة بولونيا حجارة يعدل كل منها اربعة ارطال ونصف . وفي بلاد
التينين وقع برد يوازن جماجم الانسان . وفي سنة ثلثمائة وتسع وستين

وقع برد على القسطنطينية مثل قطع الصخور. فلم يكن اذاً في ما اورده
 النبي حزقيال اعياء وافراطاً اذ قال : انه في انتهاء العالم تهبط حجارة
 ثقيلة جداً (حزقيال ١٣ : ١٣) . ويقول صاحب الجليان : انه سينزل
 من السماء على الناس بردٌ ضخيم نحو وزن (رؤيا ١٦ : ٢١) . فالريح انما ترمي
 بحجارة هذا عظم مقدارها . فاذا يكون ضجيج الرعود الناشئة عنها . قيل انه
 في بلاد سبتيا سمعت رعود مفزعة حتى مات من صوت قصفها خلقٌ كثير .
 فاذا يكون ضجيج العواصف الاخيرة وما اشدّ الرعب اذا اراد الله ان
 يلاشي هذا العالم . فجميع ما ذكرناه من هذه البلايا السائلة أمرٌ لا يُذكر
 او ذِكراً لا يُؤثر اولا في الحرب بالنسبة الى ما سوف يلمُّ بالخطاة اذا اطبقت
 بهم كل خليقة وقاومتهم مستقمةً لله خالقها

خبرنا القديس غريغوريوس الكبير انه شاهد في رومة في زمن
 الطاعون صواعق منقضة من السماء تنزل بالناس وتهلكهم . فاذا يكون
 حال الناس حينما تمطر السماء عليهم قطعاً كالصخور من الكواكب . لقد
 ارتجف العالم وتحير لما اظلمت الشمس سبعة عشر يوماً على زمن ايريني
 الملكة وقسطنطين الملك . ولما اكفئت الشمس وكسف القمر في زمن
 اسباسيانوس الملك . فاذا يكون اذاً لما تحجب الشمس اشعتها والقمر ينقلب
 لونه الى احمر ادم . دليلاً على انه قد حان الزمن الذي تنهض فيه الخليقة
 لمحاربة الخطاة الذين احتقروا خالقهم . فترى الارض ترتجف بزلازلها
 وتكاد لا تطيق ان تحملهم . والمياه تحرق بهم وتطيف منازلهم .

والهواء يحول بينهم وبين ارزاقهم . ومن ثم فلا جرم ان تودّ الخطاة
 لو تنقض عليهم الجبال . وتخفيهم الاكام في اجوافها . أيم الله ان
 ذلك يكل عن وصفه كل قلم او بيان . ويقد العجز عن ايضاحه بكل
 لسان . وتكاد الخلائق المسخرات لنا باذنه تعالى تكتئب وتحزن من ان
 الخطاة يستخدمونها لاحتقار خالقها . اما في انتهاء الازمنة فتلقني عنها نير
 الطاعة والخدمة وتنقم منا لاستخدامنا اياها ظلماً وقصدنا بها احتقار
 بارئها . فتستعير حينئذٍ وتختبئ العناصر وكل خليفة تخلف امر من اخلقوا
 الله عهدهم

فلنوردن الان هذه البالايا المقدم ذكرها ونثبتها بما رواه شاهد
 مقنع اظهار استتبابها . فنقول ان القديس يوحنا الانجيلي قد ذكر في سفر
 الرؤيا : انه سيكون برد ونار ومطر دموي يحرق ثلث المسكونة مع الشجر
 والعشب كله (رؤيا ٨ : ٧) . ولا تقف البلية عند هذه الحدود . لانه
 بعد ذلك يظهر حالاً جبل عظيم من نار ويسقط في البحر . فيكون ثلث
 مياهه دماً . ويحترق ثلث ما فيه من المخلوقات وثلث ما عليه من السفن .
 ثم يسقط من السماء نجم عظيم من نار يلتهب كمصباح متقد . وينجذ
 الى شرار كثير . فيسقط في الينابيع والانهر . وفضلاً عن انه يجعل المياه مرة
 كالعقم فيصيرها مميتة مهلكة ايضاً . فيموت كل من يشرب منها . ثم
 بعد هذا يظهر ملاك فيضرب الشمس والقمر والنجوم فيذهب ثلث نورها .
 ومع جميع هذه البالايا يفتح فم الهاوية السفلى . فيصعد منها دخان تظلم

منه الشمس والهواء . ويخرج منه جراد كثير يطبق وجه الارض . لا
يضر بعشب ولا نبات أخضر بل انما يجارب الخطاة اعداء الله في مدة
خمسة اشهر . لا يبرح بها يعذبهم بلدغ انكأ من لدغ العقارب . ولا عجب
فيه فان بعض المعلمين المعتبرين زعموا ان الجراد المذكور يكون شياطين
بزي جراد . وقد ينزل الله على الخطاة في تلك الازمنة الاخيرة ببلايا
اخر كثيرة . لانه كما ان الله قبل ان اهلك المصريين في بحر القلزم
وخلص شعبه ضرب مصر بضربات شديدة مريعة كما ذكر في سفر
الخروج . كذلك قبل ان يفرق الخطاة في بحر النار الجهنمية المنتشرة
حينئذ على وجه الارض وقبل ان يتقدم قديسيه . يتقدم فيضرب
الارض بضربات اخوف وأعظم من ضربات مصر بقدر ما العالم يكون شر
من بني مصر . لانه تعالى سيديث زلزالاً لم يُر مثله . فينسف به جميع
الجزائر ويزجها في لبح البحر . وتهدم الجبال وتندك فتعود سهلاً . وخلا
الرعود المهيلة والصواعق القاصفة تتساقط حجارة عظمى رجماً على وجه
الارض

فتأمل الان ما اشقى ما تكون حال الخطاة بعد هذه الضربات
كلها حين تظهر تلك النار الآكلة المذكورة في الكتاب المقدس .
التي تنحدر من السماء او تدرج من جهنم او تكون من الموضعين معاً كما
قال البرتوس الكبير . تلك النار التي تحرق كل شيء وتحول كل ما
تمسه الى رماد . فاذا تنفع حينئذ اولي العالم وانبيهم الذهبية والفضية

وأثوابهم الخزية . ومنازلهم المزينة وقصورهم المشيدة . وبقية الاشياء
المعتبرة على الارض . ماذا تفيدهم حينئذٍ وهي تحترق تجاه اعينهم .
فلا يعود احد وقتئذٍ يذكر في المدارس اريسطوتاليس ولا شيشرون ولا
افلاطون ولا سينيكا ولا اسكندر . لان كل صيت يسهل وكل ذكر
يتلاشى ويذول

فان أردت الان ان تعلم ما اشد الخوف الذي سوف يستحوذ على
الناس يوم تحرق النار وجه البسيطة . فاعتبر شدة الخوف الذي يعترى
الناس اذا نشبت النار في منازلهم . فاعظم ما كان ضيغ الناس وعجيهم
في رومة العظمى يوم احترقت ستة ايام وست ليال . واي بكاء وعويل
كان في مدينة تروايا لما دُفعت وقوداً لنار آكلة . واي صراخ وتولول
حدث في صادوم وعامورة والخمس المدن لما امطر الله عليها ناراً وكبريتاً
ملتهباً فرمدت . وكيف كان حزن أهل اورشليم اذ شاهدوا النار شابة في
الهيكل الذي كان من معجزات العالم وغرائبه . واما ما سلف قريباً اعصارنا
هذه فإظنك كيف كان حال أهل مدينة استوكلمو من مملكة سواسيا
حينما قصفت على المدينة المذكورة صاعقة أبادت اكثر شعبها الذي كان
عدده يُنيف على ستة عشر الفا . واذ لاذ غيرهم بركوب السفن والحرب
على البحر للنجاة من النار غرقوا فيه جميعهم . فليعتبر كل منا حال شقاء
اولئك المساكين اذ كانوا يبصرون النار تحرق منازلهم وجميع اموالهم .
ولم يمكنهم ان ينتشلوا منها شيئاً . وكان الرجل يسمع ولولة امرأته وصراخ

بنيه وهم يتعلمون متحرقين في مهادٍ من نار . ولا يجد سبيلاً لانقاذهم .
 وهكذا فليعتبر حال اولئك الذين فروا من النار واعتصموا بمياه البحر
 بغاية الرعدة والخوف . ما كانت ضغظتهم وعويلهم بعد مدةٍ اذا البحر فتح
 لحججهُ وغرَّق السفن التي ركبوها . فقس على هذا شدة حريق العالم العام .
 لان الذين ينجون من طوفان البحر وهول الرجوع وقصف الصواعق
 وشدة الرياح العواصف وهدم الزلازل . يدركهم الطوفان الناري الذي
 يحرق كل شيء ، وبه تنتهي حياة البشر وذكركم
 ولعمري انه من هذا الحريق الذي يعم المسكونة قاطبةً نستدل
 على ان كل ما هو الان معتبر في هذا العالم دني حقير وان الخطيئة
 متفاقمة الجرم . لان الله جلت قداسته يرسل هذه النار لتركية الارض التي
 قد تدنست بخطايانا كما طهرها سابقاً بالماء . ولا يخلص من هذه النار
 سوى الصديقين الذين يكونون حينئذٍ في الوجود . وذلك لكي يتضح
 ان هذه النارية ناشئة عن الخطيئة لا غير . وانه لانجاة منها الا بالفضيلة
 والقداسة . وقد انتبه البرتوس الكبير الى صلاحية العناصر ومناسبتها فقال
 انه تعالى استخدم في المرة الاولى المياه اجماداً لنار الشهوة اللحمية المستولية
 على العالم . وفي المرة الثانية يستخدم النار اشفاءً لبرودة المحبة . كأنها سوف
 توهن قوى العالم اذا بلغ الشينوخة . والحال كما انه في الطوفان الاول لم
 ينج احد غير نوح مع أهل بيته مجازاةً لعفمتهم . كذلك في الطوفان الاخير
 لا تمس النار الصديقين المقعمين حباً لله ولا تضربهم شيئاً . وكما ان

مياه الطوفان لم تهلك من كانوا منزّهين عن نار المحبة اللحمية. كذلك طوفان النار لم يمسه من يكون مضطراً بالمحبة الالهية

الفصل الثامن

في السبب الذي من اجله يجب ان ينتهي العالم على نوعٍ مربع هكذا
ثم تصير الدينونة العامة

انه لقد أحسن الانبا ديونيسوس الكارتوسي اذ قال : ان من ارهب الامور في ذلك اليوم الاخير ان ينجلي الحق على الخطاة . اذا سمع الخطاي قصف الرعود وعجيج الابحار وغير ذلك مما ذكرناه . فلا يربح ولا يحسّ بقدر ما يرتب ويتألم اذا تحقق انه لم يخدم الله كما كان يليق . وانه اثمٌ اثمًا اذ أبى ان يُخدمه وعليه كان بغاية اللياقة ان تقام بعد الدينونة الخاصة التي تجري عند موت كل واحدٍ دينونة اخرى عامة يبرز الله فيها القضاء على الجميع معاً ويجهر بعدله على الهالكين والشياطين ايضاً . واذ يتفق ان لا يموت مع الانسان كل ما يتعلق به كما قال القديس توما اللاهوتي . بل يبقى بعد موته جسدهُ واولادهُ وبعض افعاله ونموذجاته وموضوعات عواطفه . اقتضى الصواب من ثم ان يجري الحساب على هذه كلها في دينوته العامة . ان اظهر الحساب يودى عن الحياة وعن بعض ما تبقى بعد الموت ايضاً . فيا ما اعظم ما يكون حينئذٍ نجل المتكبرين الزاهين بخيلاً الجاه العالمي . الذين عدل بهم حبههم وللشرف عن محبة العدل والانصاف وتقاعد بهم عن ممارسة

الفضيلة . ما افضل ما كان للاسكندر ويوليوس قيصر من المجد الاثيل
 وانخر الجزيل . وقد كسباه بالجور والظلم وسفك دماء اناس ابرياء من
 الذنوب . فما كان يستوجب المدح والشكر في دهور كثيرة سوف يلتحق
 به الهوان في اليوم الاخير قصاصاً عن امتداحه الماضي . كذلك الاباء
 الذين كانوا يولودون ثانيةً ويحيون في اشخاص اولادهم . يدانون ثانيةً
 ويستوجب لهم ذلك امثالهم الردية التي جعلوها عثرةً لبنينهم
 وقد قال ايضاً القديس توما اللاهوتي . انه من اجل ان الجسد يبقى
 في الارض بعد الموت . فيجب ان يدان كل واحد ثانيةً في الدينونة العامة
 لان اجساداً من اجساد الابرار دُست في بطون الوحوش الضارئة .
 وغيرها لم يدفن وبخلاف ذلك اجساد كثيرة من اجساد الاشرار دُفت
 باكرام جزيل في قبور فاخرة . فهذا الانعكاس يصلحه الله في ذلك اليوم .
 فالخاطى الذي وضع جسده في قبر مزخرف يشاهده حينئذ في حال
 الاهانة والشقاء والعذاب . اما البار الذي لم يدفن بعد موته لكن
 قبر في جوف الغراب او بطون الوحوش . فانه يبصر جسده مكلاً
 بالنور . قال ايضاً القديس المتقدم ذكره . ان الاشياء الزمنية التي
 علق الانسان بها قلبه وحبها اذا استمرت بعد موته زماناً مستطيلاً او
 يسيراً . فلا بد ان تجري عليها الدينونة الالهية . فانعم البصيرة في ما يميل
 اليه قلبك منعظاً فان الاشياء الارضية التي نحبها اكثر حُباً نشتهي ان
 تدوم زماناً مديداً . فان لم تدوم بعد موتك يكن ذلك للانتقام منك

ولعقاب محبتك . وان استمرت بعد ذلك فحرف من ان يكون بقاؤها اجراً
 زمياً على بعض افعال صالحة فيقتصر لذلك اجره الابدي اويسلب
 منك تماماً

وما عدا هذا وذاك فالانسان لا يخطيء بالنفس فقط بل
 بالنفس والجسد معاً . فوجب ان يحضر كلاهما ويمثل امام عرش السيد
 المسيح للدينونة وان يتم ذلك جهاراً حذراً من ان يعول امرؤ على الخفاء
 ويخطيء فيصد عن الخطاء اذا علم ان فعله لا يكتفم بل سوف يشهر
 على رؤوس الملا . فحقاً ان الدينونة امر مرعب جداً . ومما تقدم من
 قول ايوب الصديق قد تبين لجميع القديسين انها ارهب من عقاب
 جهنم نفسه . وانها سوف تكون وتضغط الخاطيء مرتين . وتكون الثانية
 امر من الاولى واصعب جداً

الفصل التاسع

في اخيرون من الزمن

انه قبل ان نشرع بالبحث عن كيفية هذه الدينونة العامة . يجب
 ان تعلم ان النار التي تتقدم ظهور سيدنا يسوع المسيح وجلسه على منبر
 عدله لدينونة العالم . ترافقه ايضاً عز وجل واذا عاد تعالى مع ابراره الى
 السماء لا تبرح تعحص العناصر كما قال البرتوس الكبير واثبت ذلك براهن
 الايات من الكتب المقدسة . ثم يجب ان نتقن ان ظهوره تعالى الثاني
 يكون بعز ومجد عظيم يفوق على كل ظهور اخر ملكي او الهي . فان

كان ملك نائب عنه تعالى ومرسل من قبله عز وجل لسنّ الناموس الموسوي . قد ظهر على طور سيناء بعزّ ومجد هذا عظم مقدارها حتى ان الشعب العبراني ارتعب فرقاً من ظهوره . مع ان هذا الشعب كان قد تطهر واستعد لهذا الظهور . فاذا يكون اذاً ظهور رب الناموس اذا جاء يطلب الحساب عن حفظ شريعته . فباية هيبة ورهبة يظهر بفتة في آخر الازمنة ليدن الناس كافةً ويحاسبهم

فتامل الان ما ارب ما كان ظهور ذلك الملك السانّ الناموس العتيق . انه لما كان اليوم الخمسون من خروج بني اسرائيل من مصر . بعد حدوث تلك الضربات المخيفة في تلك المملكة . وغرق المصريين في البحر الاحمر . كان الاسرائليون مقيمين في طور سيناء واذا الرب اقبل اليهم في الجوم من جبل ساعير الكائن في بلاد الادوميين . وكان قدومه بعزّ ومجد عظيمين ومعه اجواق كثيرة من الملائكة . وقال المرتل في المزمور السابع والستين ان الملائكة المحدقين بمركبة هذا الرب العظيم كانوا زهاء عشرة آلاف ولم يكن الا في بمثل هذا السلطان العظيم الله نفسه بل ملاكاً كما شهد به القديس استفانوس اول الشهداء . وكان ميخائيل زعيم قوات الرب . ولما كان آتياً من قبل الله وبالنباية عنه دعاه الكتاب المقدس رباً . وكان على يده اليمنى الناموس ملتهباً بالنار . وكان على سبحات ترحّ بالعود والصواعق . فارتجف الاسرائليون لما رأوا عند انبلاج الفجر سحابة مظلمة قد حجبت الطور . ترشق رعوداً مخيفةً وصواعق مرجفةً وابصروا النار صاعدة

من الارض الى السماء يهيج لها دخان كسيف طبَّق الجبل كله . وسمعوا صوت بوق يززع الارض ويشتد في كل ساعة . فاذا شاهد ذلك الاسرائيليون ارتجفوا من شدة الخوف . فامرهم الملك بنهم موسى النبي ان لا تقتربوا من جبل سينا او تموتوا كلكم . وبهذا اظهر الله كم يجب ان يحترموه وشرع حينئذ الملك ينادي بالناموس بصوت عالٍ قوي حتى ان جميع الاسرائيليين سمعوا المقول وفهموه مع ان اصوات الرعود لم تكف ولم تفتقر معظم خوفهم وكثرت فيهم الازاحيف . حتى اوشكوا ان يموتوا من افراط جزعهم . ولهذا طلبوا الا يكلمهم الملك بل يخاطبهم موسى لئلا يموتوا . فقام موسى النبي نفسه مقرراً بخوفه ورعبه . وكانت عيناه اَلْتَمًا مشاهدة الايات وقلبه متصفًا بالبسالة والشجاعة

ولعمري ان هذا كله دون ما يحدث ذلك اليوم يوم يظهر فيه رب الملائكة نفسه ويطاب الحساب عن حفظ ناموسه . يوم تكون الارض كلها ملتبهة بالنار . وتفتح السماء من فوق وادي يوشافاط وينحدر ابن الله بمجد لا يوصف ليدن الجميع . في موكب الملائكة السماويين الذين يظهرن بهيئة محسوسة . وتحقق امام الديان العظيم رايته اعني صليبه المقدس كما قال الذهبي الفم وغيره من المعلمين . فيدرج الصديقون العائشون بعد على الارض ويرتفعون الى الجو الى لقاء مخلصهم حسب قول الرسول . وتنتصب اربعة ملائكة في اربعة اقطار المسكونة . ويصرخون باربع قرون صوتاً عظيماً ينفذ اعماق اللجة قائلين . هلموا احضروا

الى الدينونة . فخرج حينئذٍ من جهنم انفس الهالكين وتدخل اجسادها ثانية . وفي تلك الدقيقة عينها بتدئ ان تتعذب في اجسادها بعذابات مربعة ابدية . ثم تاتي انفس الابرار ويلبسون اجسادهم ويتصفون بصفات المجد الرابع . لان اجسادهم تتلأأ ضياءً افضل من الشمس وتصبح اخف والطف من الهواء . وغير قابلة للتالم والفساد اصلاً

اما الصديقون الاحياء . فلحجزهم عن ان يحتملوا في لحم قابل الموت وفور الفرح عند مشاهدتهم السيد المسيح وجزيل اشتياقهم اليه . يموتون من شدة الفرح والمحبة والتعجب . لكنهم بعد موتهم يحظون حالاً بمعاينة الذات الالهية فتحد انفسهم باجسادها ثانية قبل ان يعترها الفساد . فتطهر من كل دنس ارضي . وتترين بالصفات المحميدة السابق ذكرها . فمن يقدر ان يصف عظم فرح انفس الصديقين اذا تمتعت جديداً باجسادها التي كانت قد استحالت الى رماد منذ الوف من السنين وقد توشحت بالبهاء والمجد . وايا شكر تسديده انفس الابرار الى سيدنا يسوع المسيح لاجل اتحادها الثاني برفيقها القديم واي فرح وسرور بين النفس والجسد . وكيف يهني احدهما الاخر لانهما عاشا عيشة قسفة ومارسا رياضات التقشف . وبخلاف ذلك ما أشد ما يكون رجز انفس الهالكين وغضبها على اجسادها التي انهمكت في اللذات . وسببت لكليهما العذابات المؤبدة

فبعد أن يصطف الهالكون في وادي يوشافاط . ويرتقي

القديسون الى الجوّ لقاء السيد المسيح الديان . يقوم عزّ وجلّ فوق
 جبل الزيتون على سحابة بهية منيرة جداً . ويكون حوله وامامه ووراءه
 ألوف وربوات من الارواح السماوية متلائين بنور عظيم . بل يذيق من
 اقنومه الالهي نور يفوق كل شعاع من اشعته نور الشمس فواقلاً لا يقدر
 ولا سيما من جراحاته الخمسة المقدسة . وهذا النور يكون للابرار لذيذاً
 مبهجاً وللأشرار مؤلماً مخزناً فيكون بكاءً مرّاً وينتخبون انتخاباً لا مزيد عليه
 لانهم لم ينتفعوا من جراحاته الالهية . وعند مشاهدتهم عظم جلال
 مجده الالهي وسمو بهاء عزته الربية يطاطون رؤوسهم وينتكسون
 تحت موطى قدميه وان كانوا ينفضونه تعالى . فماذا يقول حينئذ
 اولئك الذين كللوه بالشوك وامسكوه قسبة عوضاً عن قضيب الملك
 والبسوه ثوباً احمر ممزقاً ولطموه ودنسوا وجهه الاقدس بتفلهم المنتن .
 أم ماذا يقول اولئك الذين قدم لهم السيد المسيح ذاته . واقتداهم بالامه
 المقدسة وموته ولم يخلصوا له العبادة بل أسأوا اليه بخطايا متعددة مزدرين
 بدمه الزكي المسفوك حباً لهم كأنه دم حيوان او احد اعدائهم . اني
 لا عجب من ان ذكر هذه الامور لا يمزق لبناً واحشأناً ولا يذيب جسماً
 ندماً وانسحاقاً . فننتصح بما قاله احد اباء البرية اذ سئل عن واسطة يابن
 بها القلب البشري ويميل الى ممارسة التوبة فاجاب سائله قائلاً : اذكر
 متأملاً يوم حضورك العتيد تجاه الرب الديان الرهيب
 ثم ان الملكة يعدون منبراً آخر مجيداً جداً يهينونه اللام الطاهرة

المثلثة الطوبى مريم والدة الله لا لتكون شفيعة للخطاة بل لتكون خزيًا لهم . لانهم لم يريدوا ان ينتفعوا من شفاعتها . ولتتجد هي امام العالم كله . وتنصب اعراش اخر حول منبر سيدنا يسوع المسيح للرسل الاطهار وللمساكين بالروح الذين تركوا كل شيء حباً به تعالى . فيجلسون مع مخلصهم كقضاة . وبافعال سيرتهم المقدسة ينكرون حياة الخطاة الردية . ويثبتون حكم القاضي العادل . ومن قبله وباسمه ينادون بالقضاء الاخير الرهيب . فيبت حينئذ الخطاة ويرعدون فرقاً ويتحجبون اسفاً وندماً ويصرخون باعلى اصواتهم ما قد سبق الحكيم وتفوه به عن لسانهم : هوذا أولئك الذين كانوا في اعيننا قديماً هزواً وضحكةً وقد احتسبنا نحن الجهال سيرتهم جنوناً وموتهم اهانةً . فكيف قد حسبوا الان ابناء الله وادركوا نصيباً مع القديسين فقد ضلنا اذاً عن طريق الحق . ولم يضي لنا نور العدل ولم تشرق لنا شمس الفهم (حكمة ٥ : ٣)

وماذا تقول حينئذ اولئك الملوك المعتصبون الذين عذبوا الشهداء وقتلوهم اذا ابصروهم حاصلين على هذا المجد الوسيم . وماذا يكون خزي اولئك الذين ظلموا المساكين حين يرونهم قد اقيموا قضاة عليهم . ولعمري انه في هذه الحياة لا يقوم الخاطئ ولا الصديق في ما يليق لكل من المقام . لان الشرير احياناً كثيرة يجلس من عن اليمين والبار من عن الشمال . ولكن السيد المسيح الديان العادل سوف يصلح هذا الظلم . ويميز الخنطة من الزوان . ويرفع الذين هم من عن يمينه عن الارض ويجلسهم

على منابر المجد ليحمدوا من العالم لاجل قداستهم . ويضع الاشرار من
 عن شماله اسفل واقفين على الارض ليهانوا ويحتقروا من الجميع . فما
 أشر الحسد الذي يستولي حينئذ عليهم اذ يشاهدون الابرار مكرمين
 منضمين وهم يحتقرون ويهانون . فاي خزي يشمل الملك اذ يرى عبده قد
 ارتقى الى مثل هذا الشرف واسيره ارتفع الى مجد الملكة . وهو في
 حال شقاء الابالسة . لانه كما ان الملكة يلبسون حينئذ اجساداً من
 الهواء لكي تزداد الابرار فرحاً ومجداً بهذا البهاء المحسوس . هكذا تنقص
 الشياطين باجساد زرية شنة ليزيدوا الاشرار حزناً وعذاباً بمنظر شناعتهم
 الكشيفة

ثم إذا كشف عن ذات الضمائر وأشهرت خطايا جميع الناس وأبجج
 باسرار القلوب ونياتها وعواطفها . ومقاصد كل فكرة وكل كلمة وكل عمل
 وأعلن كل ما اكنته الخطاة سرا او أضربوا عنه نجلاً او حجبوه مكرًا
 وتلبسوا او تغافلوا عنه كسلاً إذا أذيع بهذه كلها على أعين الجميع وفحص
 عنها وحكم عليها . إذا الدين العادل ينهض لوقته . ويفتح فاه الاقدس
 ويجهر بكلام يسمعه الجميع ويبرز اولاً الحكم على الابرار بوجه باش بصوت
 لذيذ عذب قائلاً : تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء العالم
 (متى ٢٥ : ٣٤) . فيما أعظم ما يكون وقتئذ فرح الابرار الصديقين
 ويا ما اشد وأمر ما يكون حزن الاشرار الطالحين وليس حزنهم فقط بل
 حسدهم وغضبهم ايضاً ولا سيما حين يسمعونهُ تعالى يحكم عليهم حكماً

صارماً يبين شدة المباشرة حكمه عز وجل للابرار وقد أشار الى ذلك اشعيا النبي بقوله . شفتاه مملوتان رجزاً ولسانه كمنار آكلة (اشعيا ٣١: ٢٧) . فيقول لهم ابن الله بصوت يفتت الصم أغربوا عني ياملاعين الى النار المؤبدة (متى ٢٥: ٤١) . فيحسون بأس صوته هذا ويذاخلهم ألم أمر من كل نار وعذاب . لانه ان كان صوت بطرس الرسول وهو مغضب اسقط حنانيا مع امرأته على الارض فاتا (اعمال ٥: ٥) . فاذا يصير بالاشرار حينما يكلمهم السيد المسيح بغاية الغيظ والغضب . وقد يمكننا ان نفهم هذا مما شعرت به القديسة كاترينا السيانية لما وبخها القديس بولس الرسول على اصرافها شيئاً قليلاً من الزمن باطلاً لانه قد شهدت القديسة المذكورة قائلة . انها اثر لديها ان تهران قبالة العالم جميعه من ان تسمع مثل هذا التوبيخ الرسولي . فاذا يكون اذا التوبيخ الالهي في ذلك اليوم يوم الانتقام . لانه ان كان تعالى في اليوم الذي اتى القبض عليه . اسقط على الارض جميع الشرط بمجرد قوله انا هو . فاذا يكون اذا تكلم وهو جالس على سدة الحكم

قد ذكر في كتاب اخبار اباء البرية المؤلف من القديس سوليسوس والقديس كاسيانوس عن شاب انه عزم على هجر العالم والتمسك بالسيرة الرهبانية . وكانت أمه تمنعه موردة له حججاً كثيرة فلم يؤثر ذلك في قلبه . بل كان يرد كل سهام حججها وممانعتها بترس جوابه هذا . اني أريد ان اخلص نفسي . فلما رأت أمه ان جدّها

لا يجد صدرًا خلتُهُ حال سبيله فدخل الرهبانية إلا أنه بعد برهة ما
ابتدأ ان يترأخي في العبادة . وفي اثناء ذلك ماتت والدته ومرض هو
مرضاً خطراً جداً . فعرض له يوماً غشيٌ عظيم فغاب عن عقله واختطف
بروحه الى الدينونة امام منبر الله . فوجد والدته مع كثيرين من الهالكين
ينتظرون القضاء الاخير قضاء الهلاك الابدي . فلما رآته أمه في قوم
كثيرين أزمعوا ان يدانوا ويرذلوا انذهلت وقالت له : ما هذا يا ابني
وكيف حصلت على هذه الحال . اين قولك لي اني أريد ان اخلص
نفسي . أليس هذا السبب الذي من اجله باينت العالم وترهبت :
فأذسمع من والدته هذا التوبيخ خزي جداً ونجمل ولم يقدر ان يجب
عن ذلك بكلمة . وفي الحال انته واستفاق . وبنعمة الله ورحمته برأ من
مرضه . واذ تحقق في نفسه ان اختطافه هذا كان تنبيهاً سماوياً له . تغير
تغيراً كلياً . ولم يزل نادماً باكياً على الزمن الماضي وشرع يمارس افعال
توبة قسفة صارمة حتي ان الاخوة كانوا يطلبون منه باجتهاد ان يقتصر
على القليل منه خشية ان يتلف صحته اما هو فكان يدحض حججهم قائلاً
لهم : ان كنت انا لم اقدر ان احتمل توبيخ والدتي لي فكيف يمكنني
ان احتمل توبيخ السيد المسيح وملائكته وقدسيه حين اقف للدينونة
خبرنا رافائيل كولومبا عن فيلبوس الثاني ملك اسبانيا . انه في ذات
يوم اذ كان يحضر القداس الالهي رأى بالقرب منه شخصين من ارباب
الدولة والشرف يتفاوضان . فاهملهما الى ان فرغ القداس . ثم التفت

اليهما بوجه مغضب قائلاً : لا تعودا منذ الان فصاعداً ان تحضرا أمامي .
فشقَّ عليهما كلامه حتى ان أحدهما مات من شدة الحزن . والآخر
أختلَّ عقله وقضى بقية حياته مجنوناً . فإذا اذًا يفعل بالخطاة صوت ملك
الملوك ورب السماوات والارض اذ يقول لهم اغربوا عني يا ملاعين :
ثم ان كانت كلمات الله مخيفة هكذا فإذا يكون من افعال عدله
فحينئذٍ تحرق النار بالهالكين . وتنشقُّ الارض وتفتح جهنم جوفها
لتبتلعهم في الحجها الى الابد . وفي حين سقوطهم يتم ما قاله الملك والنبي
داود : يسقط عليهم الجمر وتلقيهم في النار وفي الشقاء فلا يحتملون (مز
١٢٩ : ١١) . ثم يكمل اخيراً ما قاله يوحنا الحبيب في جليانه : ان الشيطان
والموت وجهنم وكل من لم يكن اسمه مكتوباً في سفر الحياة يلقون في
وادي النار والكبريت حيث يعاقبون مع المسيح الدجال وبنيه الكذاب
نهاراً وليلاً الى دهر الدهرين (رؤيا ١٤ : ١٠) . اما الابرار الصديقون
فبخلاف ذلك يسرون متهللين حسب قول النبي : اذ ينظرون الله منتقمًا
من الخطاة (مز ٥٧ : ١١) . ويسبحون تسبحةً تشبه تسبحة موسى النبي
التي رتلها لما غرق الله المصريين في البحر . ثم يرتلون أيضاً نشيد الحمل
الوديع المذكور في سفر الرؤيا قائلين بصوت الابتهاج : عظيمة هي
افعالك وعجيبة يا ايها الاله القادر على كل شيء . وسبلك حقيقة يا ملك
الدهور . فمن ذا لا يخافك ولا يعظم اسمك يا رب (رؤيا ١٥ : ٤) .
فبمثل هذه الاصوات المبهجة والتراتيل اللذيذة يدرج الابرار بمجدٍ وسرور

عظيم الى فوق الكواكب ويستون على عرش الملك السماوي ويقومون
على منابر المجد الى ابد الابد

فهاكم ما يصير اليه كل زمن . فانظر كيف تتصرف الان بالاشياء
الزمنية . ولكي تحسن تصرفك بها اذكر انتهاءها . اذكر هذا اليوم الاخير
يوم الشقاء والعدل يوم الخوف والضيقة لانه ليس لنا دواء لاصلاح
سيرتنا ولا علاج اعظم تأثيراً من هذا الفكر . قد ذكر يوحنا كوروبالات
عن بوغوريس ملك بولغاريا الوثني أنه كان مولعاً بالقتل وكلفاً بصيد
الوحوش الضارية . ولذلك كانت ترى على جميع حيطان قصره صوراً يشخص
بها كل ضرب من ضروب الصيد . فاتفق ان وجد في ذلك الزمن راهب
ماهر في فن التصوير يقال له مروديوس . فامر الملك ان يصور له
صورة مخيفة مرعبة ويبالغ في ذلك ما استطاع . فصور له الراهب الحكيم
صورة الدينونة الاخيرة . ولما فرغ من ذلك استدعى الملك وأراه ما صنع .
فتفرس بها الملك وتعجب وارتعب من عدل الله وبعد ان أمعن النظر في
كيف يثيب الله الاخيار ويعذب الاشرار اتعظ من خوفه وجزعه
فتاب عما كان عليه من سوء السيرة الردية واستمسك بعري الديانة
المسيحية الوثقى . فان كانت صورة الدينونة ترعب فاذا يكون اذا ظهرت
هي بذاتها

المقالة الثالثة

في ما بين الزمني والابددي من الفرق من حيث تغير
الامور الزمنية ودنآتها ومخاطراتها وهي
عشرة فصول

الفصل الاول

في ان تغير الاشياء الزمنية يجعلها اهلاً
للازدراء والاحتقار

انه بعد ايراد قصر الزمن وسرعة زوال الاشياء الزمنية يجب
علينا ان نتكلم عن عدم ثباتها فنقول . انه كما ان الموت هو تحول الحياة
هكذا التغيرات الحادثة في الحياة هي موت بعضها . فالارض هو موت
الصحة والعافية . والنوم هو موت السهر والمالينخوليا موت الانبساط
والفرح . والحدة والنزاقة هي موت الهدو والسكينة . والشبوية هي
موت الطفولية . والشيوخوخة هي موت الشبوية . وان تلك المرأة التي
اخبر عنها صاحب الجليان بان القمر كان موطى قدميها . كان يمكنها ان
تترن به كما ترنت بالكواكب الاخر المرصع بها اكليلها وأبت إلا ان
يكون موطاً لرجليها . وذلك كان كما لحظ القديس غريغوريوس الكبير
دليلاً على انه يجب ان نحقر وندوس الاشياء الزمنية العديمة الثبات

المرموز اليها بهذا الكوكب الذي من شأنه ان يحول ويتغير في كل وقت
 كما قال القديس غريغوريوس الكبير واليه أشار ذلك الملك الذي انحدر
 من السماء متوجاً بقوس قزح ينادي بدنو انتهاء الزمن . فانه داس البحر
 برجله اليمنى وهي عبارة عن القوة والشدة . وأشار بذلك الى انه يجب
 علينا ان نطى هكذا ما ليس ثابتاً كالبحر وندوسه بعزم مكين دوساً
 شديداً

فان الله ان عدم ثبات الاشياء الزمنية يجعلها حقيرة وحقيرة
 بالازدراء . وذلك لان تغييرها عظيم واسبابه كثيرة جداً . فكما ان للبحر
 نوعين من الحركة حركة طبيعية يزداد بها وينقص كل يوم بمدامواجه
 وجزرها . وحركة اخرى اكرهية يعتريه منها تغيرات عظيمة تنتجها علل
 خارجة منها الرياح الشديدة والزواج العاصفة تهيجهُ وتقلبه ظهراً
 لبطن وفوقاً لاسفل . وهذه حال العالم فمن طبع فطر عليه يتعرض
 للتقلب والتغير والزوال . فان خلا من اقتسار خارج فلا يخلو في ذاته
 من تقلب وتغير متصل يفضي به الى زوال عام ولا مناص منه . ولربما
 ينتق ان تطراً عليه حوادث غريبة تصد في الاشياء وتحولها عن مألوف
 جريها . فتعصف في بحر هذا العالم عواصف عظيمة تتلف ما جل فيه وما
 ذل فتوقع بالزهور البهية ذبولاً وفناءً . وان نجت واحدة منها هبت عايرها
 ريح سموم ايستها او ريح وعازع أنثرتها . كذلك الجمال فانه من ذاته
 بضمير ويزول بمدة من السنين . بل لا يقتضي لزواله مدة مستطيلة ان

تعتد حتى حادثة او غيرها من الامراض فيفيد . هكذا الثوب الثمين
المفوف يخلق ويبيى بطول الزمن ويتفق احيانا ان يتلفه لابسهُ في هنيهة .
ومثلها قصور الملوك فانها وان كانت وثيقة محكمة فتلعب بها ايدي الزمن
وتقوض اركانها ان نجت من حريق يرمد جدرانها ويجعلها عبرة للخلف
فامعن اذا النظر وتفكرس بالاشياء التي ابذل الناس ما فيهم من الجدد
والجهد في توطيدها وتركينها ترها جميعها متغيرة . فمدينة تيبليس من اعمال
مصر التي خالها القديس غريغوريوس التزيزي من غرائب العالم كانت
تدهش عقول الناظرين بحسنها ونظامها . وكانت حيطانها مزينة بالمرمر
المصنوع بالذهب الابريز . وفي عرض سورها بساين كثيرة مبهجة مرتفعة
عن وجه الارض . وعدد ابوابها مائة باب . وكان كل باب يسع عشر كرات
من الجنود . وكان طول كل باب منها عشرة اميال . كما اخبرنا بومبونيوس
المورخ فقد افتتح هذه المدينة العجيبة الحصينة شاب حدث وقهر أهلها
بجيش قليل كما روى القديس ارونيموس . وقد خبرنا مورخ آخر يقال
له مرقس بولس . انه دخل مدينة تدعى كينساي وكان عدد سكانها
ثمانين ربوة من الناس . فلم تمض من ذلك الاسنين قلائل حتى مر بها
نيقولوس المكنى بابن الامير . فوجدها قد هدمت وشيدت عن جديد .
ولاريب في ان مدينة نينوى كانت اعظم من هذه المدينة جدا . لان
الكتاب المقدس يشهد ان طولها مسيرة ثلاثة ايام . والان بل من
دهور عديدة لم يبق من هذه المدينة اثر . ومثل ذلك حل بمدينة

بابل حصن البلاد وتحت مملكة العالم . فانها درست ودكت قاعاً
صفصفاً وأصبحت بركة مقفرة تاوي اليها الوحوش الضارية والشياطين .
كما كان تنبأ به اشعيا النبي ولم يبقها من كوارث الزمن . ولم يكفها شر
حوادث الايام سورها وان كان علوه مائة قدم في عرض خمسين . وما
قولك في مدينة قمتان عاصمة مملكة الماديين . التي شاهدها ارفخشد الملك
من حجارة مربعة منحوتة نحتاً في غاية من الاحكام وكانت أحصن من
مدينة بابل لان عرض سورها كان ستين ذراعاً في علو مائة ذراع .
فافتحها ملك الاثوريين واستأمر سكانها والملك بانها . وبعد ان كانت
الارض ترتجف من سطوة ملكها اغدا هو يرتجف خوفاً وفرعاً من ملك
أثور عدوه (يهوديت ٢: ١)

وماذا نقول عن المدن التي درست وذهبت بذهابها أمم وانقلبت
أحوال نسي شأنها . ولما شيد الاثوريون العالم ومهدوا ملكهم واستقر
لهم أمره اذا انقلبت أحوالهم وصارت في أيدي سواهم من العجم وانقلت
من العجم الى اليونانيين ومنهم الى الرومانيين . ثم بعد سنين قليلة تبدلت
تلك الاحوال وانقلبت انقلابات أخرى كثيرة . حتى غدت احوال العالم
واموره بين تغلب وتبدل لاركنز لها ولا ثبات إلا على التغير . فان كان
التغير شيئاً في الامور وشائبة تلحق بها الاحتقار . فشين العالم عظيم لانه
كثير التغير

ان القمر المرموز به الى عدم الثبات يتغير لا من حيث صورته فقط

بل من حيث لونه أيضاً . وقد لحظت فيه الفلاسفة الطبيعيون ثلثة
الوان . وهي الاصفر والاحمر والابيض . فاصفرار لونه عبارة عن المطر
واحمراره دلالة على الريح . وابيضاضه داعية للصحو . وعلى هذا النحو
يتغير قلب الانسان بثلثة أمور يكفى عنها بثلثة الوان تتنازع امياله
اليها . واولها الاصفر وهو لون الذهب . واليه اى الى الغنى يميل الانسان
باسرع واشد من سيل المياه منحدرة الى أسفل . والثاني هو اللون
الاحمر القرمزي . وهذا ينكب بالانسان الى اشتها الكرامات الباطلة .
والثالث هو اللون الابيض لون الفرح والابتهاج . وهذا يجمل الانسان
الى ان يتوق الى التزهات وملاهي هذه الحياة . فهذه ثلثة أمور تتولد
من البخل والكبريا والشهوة اللحمية بها يتحرك الانسان ويتغير نظير
حشائش من خواصها ان تميل وتنحني الى حيث يسير القمر . وهذه
التغيرات الحادثة في الانسان تسبب تغيرات في اشياء أخر كثيرة . فكم
من الممالك بعث على هدمها بخل كورش الملك . وكم غيرت الممالك كبرياء
اسكندر وحب الكرامة . وكم فعلت شهوة باريس اللحمية في مدينة ترويا
حيث لم تدع شيئاً قائماً الا قلبته فوقاً لاسفل . وكم هدمت وقبّلت
في مملكة اليونانيين . فحكما ان البحر يزداد وينقص بداعي حركة القمر
كذلك أمور هذه الحياة ان حركاتها وتغيراتها تابعة لتغيرات الانسان . حتى
لا تجد في شيء ثباتاً ولا سميماً في الانسان سوى الثبات على التغيير .
فالانسان يتقلب وعنه يصدر التغيير في بقية الاشياء

ان داود النبي وضع للزمور الثامن والستين هذا العنوان .
 للتمام . من اجل الذين سيتحولون وذلك لانه بمزموره هذا يتكلم
 عن الشعب الاورشليمي الذين بعد ان قبلوا السيد المسيح باكرام
 لم يحظ به احد ممن سلف ولن يناله امرؤ من الخلف تغيروا بعد
 ايام قلائل عما كانوا عليه وقصدوه بسوء المعاملة مما لم يعامل به احد
 من اوباش الناس . فليس اذا لنا ان نعتمد على قلب البشر الذي يميل تارة
 الى الحب واخرى يعدل عنه الى البغضاء يشتهي تارة وتارة يمقت .
 تارة يكرّم وتارة يهين . فمن ذا لا يتعجب من تغير القديس بطرس زعيم
 الرسل الذي وعد معلمه الالهى بانه يموت من اجله فما مضت ساعات
 حتى اخلف بوعدِه وانقلب عن عزمه واقسم بانه لا يعرفه تقديس اسمه .
 فان كان ارزلبنان قد ترزع هكذا فاذا يكون من امر القصب والقطن .
 وماذا نقول عن امنون بن داود الملك الذي اغرم باخته تامر ومال اليها
 كل الميل فاضناه حبا وادنفه . وما زال الحال على هذا المنوال حتى
 قلب لها ظهر المحن وتحول جها الى بغض عظيم انتهى به الى طردها
 من البيت حذراً من ان يراها

ولا اجد شيئاً اعظم لتقرير وتوكيد ما نحن بصدده مما حدث في
 مدينة افسس . وذلك انه كانت في هذه المدينة امرأة معتبرة جداً
 مشهورة بصفاتها الحميدة . فحدث لها ان توفي بعلمها . فحزنت عليه حزناً
 عظيماً لا مزيد عليه فلم تكتف بالبكاء المر المتصل ولا بالتولول العظيم

والانتحاب الاليم . ولم تتف عندما ابدته من لطم وجهها و وضع
 جسمها بقساوة ليلاً ونهاراً . لكنها مضت ايضاً الى الناموس الذي قبر
 فيه زوجها . وكان خارجاً عن المدينة . وحبت نفسها هناك مع الجيمة
 المحبوبة منها . ولم ترد ان تأكل شيئاً واستمرت على هذه الحال اربعة ايام .
 فاتفق ان الحاكم امر بشنق اربعة من لصوص بمقربة من تلك المغارة .
 واقام حرساً يحفظون جثث أولئك اللصوص على المشقة حذراً من ان
 يأتي أهلهم فيختطفونهم ليدفنوهم . فعلم احد الحرس بحال تلك المرأة
 فاخذته رحمةً وشفقة عليها ومال الى تعزيتها . فأخذ مأكلاً وانطاق به
 الى المغارة . واخذ يعزيها ويحثها على الأكل ضناً بحياتها فأبت وذهب
 كلامه في اول الامر سدى . فالح عليها ولم يزل يحثها بلجاجة ويقنعها
 بمحج كثيرة بان تكف عما هي عليه . فطابت حينئذ نفسها ومالت الى
 مطاوبه . وارتضت لابان تتناول الأكل من يده فقط . بل بان تتخذه
 ايضاً زوجاً لها . فاخذ الفرح منه أشد مأخذ حتى تغاضى عن اللص
 المشنوق الموكول اليه أمر حراسته . فاتي اقر باؤه فسر قوه ودفنوه سرّاً .
 فلما علم الجندي بذلك أشفق من خوف عقاب الحاكم . فقص على المرأة
 القصة فطابت خاطره واخرجت جثة زوجها الميت الذي كانت اظهرت
 له قبلاً حباً مفرطاً وعلقته موضع اللص المشنوق وأقرت عين زوجها
 الجديد . فانظر الان وتعجب من سرعة تغير قلب الانسان وعدم ثباته

الفصل الثاني

في ان البلايا الزمنية وان كانت عظيمة

تخفُ برباء نهايتها

ان تغير الاشياء الزمنية وعدم ثباتها المتقدم تقريره من شأنه ان يربط على قلبنا الثبات والشدة . وذلك اولا باحتقارنا هذه الاشياء القابلة للتغير والسريعة الزوال . ثانياً باعتقادنا اليقين انه لا بليّة تدوم بل تحول . وانه كما يتفق احياناً ان بعض الخير يكون علة لشورر عظيمة . كذلك يتفق ان شورراً جسيمةً تنتج احياناً خيرات جسيمة . وقد ذكر في هذا الصدد عن رجل شريف يدعى ابيوس . انه لما بلغه ان الحاكم عهد بالقبض عليه ليقتله ركب سفينة مع خدامه وامواله وامتعته وخلا عن دياره . واذ كانت الرياح ترحي سفينتهم وسوست للخدام نفسهم وسوّلت ان يخلتسوا مال سيدهم . فازلوه في قارب وتركوه في البحر ترجيه الرياح . وسارواهم بالسفينة الموسوقة من ارزاقه وامتعته . وما عتم ان غرقت بهم السفينة وهلك كل ما فيها من الرزق والناس . ولم يدركوا سوء مرادهم وما كان يخاله السيد بليّة صار علة لنجاته . فان قاربه انتهى به الى مملكة سيسليا سالماً سليماً

خبرونا ايضاً عن رجل آخر يدعى اريستومينس ان اعداؤه قبضوا عليه والقوه في سجن عميق ريثما يقتلونه فكان يترقب الموت في كل ساعة اما من الجوع واما من الرائحة المنتنة التي كانت تنبعث من ذلك

المسكان واما من ضربة سيف . ولما كان على حال اليأس الكلي اذا بثعلب
 قد دخل الى السجن من سرداب محفور في حائط السجن تحت الارض
 فامسكه اريستومينس بذنبه واذا كان الثعلب يحاول الخروج من حيث
 دخل كان الرجل المذكور ينقاد اليه تابعاً اثره متمسكاً بذنبه بيده الواحدة
 وموسعاً ذلك المنفذ بيده الاخرى . وعلى هذا النحو خرج مع الثعلب سالماً
 وكان اعداؤه يُعدّون له الموت . فلا شرّاً اذا في هذه الحيلة يستحيل
 الوصول به الى اعظم خير . وقد ذكر عن ديوجينس انه بعد ان حكم عليه
 في المحكمة لاجل امر ألحق به الهوان والاحتقار في اعين الجميع حصل
 مكرماً من الجميع حتى ان اسكندر الملك المعظم زاره وشرفه جداً .
 وهكذا اخبرونا عن رجل كان في صدره دملة مهلكة أعتت الاطباء
 عنها وآيسوا من شفاؤها . فاتفق ان عدواً له ضربهُ على صدره على تلك
 الدملة ضربة مميتة فصارت الضربة علة لبرئها وعلاجاً لشفائها . وقد
 اخبر ايضاً جالينوس رئيس الاطباء عن رجل ممنوّ ببرد لاشفاء له
 انه مرّ يوماً بقومٍ يحصدون وكانوا يعرفون علة فاعطوه خمرًا وقعت
 فيه أفعى ليشربه ويموت ليستريح من ألم حدامه فلما شربه تنق من
 برصه ونال الشفاء . وخبرنا مورخ اخر انه عرف صبيّاً أعرج الرجلين
 ولم يكن يقدر ان يمشي اصلاً الا متوكياً على عكازين فاتفق انه بلي
 بطاعون في زمن الوباء فشفي من عرجه شفاءً كاملاً وصار يمشي
 مستويّاً بغير عون كسائر الناس . وجاء ايضاً في الاخبار ان رجلاً أعمى

ضرب على أم رأسه ضربة شديدة فصار يبصر جلياً . وكذلك امرأة فقدت
صحة العقل فاذا ضربت على رأسها عادت الى حالها الاولى وصحاح عقلاها .
وقد ذكر بلوتارخوس ان رجلاً كان فاجأه داء مزمن فضر به عدوه في
مكان الالم فشفى منه . ولعمري ان بني يعقوب اسرائيل كان سوء معاملتهم
ليوسف اخيهم وجورهم عليه داعية ومدججة لرفع منزلته وشانه في مصر .
وبلايا ايوب الصديق صارت سبباً لان يعمر ويزداد خيراً ورزقاً . وهرب
يعقوب الصديق من وجه اخيه عيسو بعصاً لا غير من دون زاد ولا
امتعة . صار له سبباً لان يرجع الى بلاده غنياً بالمال والخدم والبنين .
فحقاً انه لا يوجد في هذه الحياة بلية لا يخالطها رجا . وقد تاتي الشرور
مراراً بخيرات وافرة وذلك بالنظر الى مجرد ما تجري عليه الامور
واما اذا وجهنا نظرنا الى عناية الله . فترى انه لا شرراً الا ويمارجه خيراً ولا
داء الا له دواء . فهل من ضيق اعظام مما حصلت عليه سوسنة العفيفة حينما
سيقت الى الموت برضى الجمهور . وفيما هي ماضية الى المقتل باهانة
عظيمة انقذها الله من الموت . فاندهل الجميع وتعجبوا من فضلها وفضيلتها .
ودانيال النبي اذ ألقى في بئر الاسود اما كان بمعزل عن كل عون بيد انه ما
كان يترقبه من الاسعاف ممن في الارض اتاه من السماء . والثلاثة القتية
الذين طرحوا في اتون بابل قد وجدوا التعزية والسرور في وسط النار
وفي حضن الموت ادركوا السلوان (دانيال ٣ : ١٤) . وقد ظن داود النبي
اذ رأى جنود شاول عدوه قد احاطوا به انه لا خلاص له ولا مفر من

ايديهم وقد حان موته الا انه بتلك الدقيقة نفسها حاز بفوز النجاة وفرَّ
 هارباً من ايديهم

الفصل الثالث

في انه يجب على الانسان ان يتروى عواقب ما يمكن

ان يكون عليه من الاحوال

فلمنتصحن اذا وتنعظن من تغير الاشياء الزمنية وعدم ثباتها ولا تلقين
 عليها اتكالنا ولا نعوان على الحظ العالمي ولا نتقن بما في العالم من النجاح
 والشرف فان هو الاغرور فاما من مملكة او مرتبة او حبرية معصومة
 عن خطر البلية . ولذلك يجب علينا ان نعتبر دائماً هذا الامر . وهو انه
 يمكن ان نخط من اعلى رتبة الى اسفل مقام فتعلم ان اشرف الناس رتبة
 وقدر الا يكبر عن ان يسقط من سمو رتبته ويضطره الاحتياج وتعوزه
 الفاقة الى تسول معاشه في الشوارع كاحد الصعاليك . والملك نفسه
 لا يتأبه عن السقوط من سدته وتخلع عنه اوابه الملوكية ويكون فاعلاً مكدياً
 او يقتل قتلاً ردياً

فقد كان فيتاليوس ملكاً عظيماً جداً وكان مستولياً على الشرق
 والغرب وكان على جانب عظيم من الغنى والثروة وكانت امواله
 كرمل البحر وكان مشكوراً وممدحاً في الشوارع من الشعب الروماني
 كافة فلم تدم حاله على هذه الحال بل انتهت باهانة قصوى لم يكن
 لها نظير . لان ارباب الدولة قبضوا عليه وربطوا حبلاً في عنقه وكتفوا

يديه وراء ظهره ومزقوا ثيابه وجعلوا سيفاً تحت ذقنه وطافوا به هكذا في مدينة رومة باهانة عظيمة فكانوا يشتمونه ويلطخون وجهه ولحيته بالوحل والاقذار واخيراً قتلوه في الشوارع والقوا جسده طامعاً للوحوش الضارية كجثة اعظم الائمة. ولعمري انها حال يرثى لها. فالذي حصل على اسعد المراتب وتمتع بكل اللذات والكنوز والكرامات تنتهي حياته هكذا باشنع الميتات فها هذه البلية. فمن ذا الذي كان يستطيع ان يسبق فيعرف ان حياة هذا الملك تنتهي على هذا المنوال. اذا راه منذ ولادته ونشوه متردياً باثواب شريفة فاخرة ماشياً في مدينة رومة العظمى باحتفال عظيم وشرف ملوكي في شعب يمدحه ويشني عليه. فهل كان رأى ان حياة هذا الملك تنتهي على هذا النحو المتقدم وصفه. هل كان خيل له ان هذا الانتهاء الشقي يقتضي مثل هذا الاستعداد الشريف

هكذا فالريانوس الملك الذي كان يلبس الخبز والارجوان ويركب افخر الخيل المسومة وعلى رأسه تاج ملوكي فام تمضي مدة يسيرة حتى سجن كوحش ضار في قفص من حديد. وكان لسابور ملك الفرس بمنزلة موطى يطفى ظهره كلما اراد ان يركب. واخيراً سلخ جلد منكيه وملحها ك لحم خنزير. وزينون الملك بعد ان ملك عدة سنين في القسطنطينية وتنعم بكل لذة دُفن وهو حي واكل لحم يديه من شدة الجوع. وبليساريوس المظفر في الحروب بعد ان انتصر على شعوب البندالة والنعطيين وافتتح مملكة افريقية وسيسليا وظفر بملك الفرس وحصل على كنوز عظيمة حتى انه في يوم

واحد ربح ما قد كان جباهُ البنداليون من الاموال في مدَّة ثمانين سنة .
 فهذا اضطرَّ اَخيراً الى ان يمدَّ يدهُ طلباً للعيشة على باب كنيسة اجيا
 صوفيا وفي شوارع مدينة القسطنطينية وهو اعْمى . وديونيسيوس الثاني
 ملك سقلية خلع من الملك ومُنِي بالفقر العظيم . فاحوجهُ الامر الى ان يقريَّ
 الاولاد الصغار سداً لجوعه . وادوني بازاك الذي ظفر بسبعين ملكاً
 حسبما اخبر عنه الكتاب المقدس حصل اَخيراً اسيراً وقطعت اطراف
 يديه ورجليه (القضاة ١ : ٦) . والملكة غوسفيندا امرأة ملك اسبانيا
 الذي احبها واکرمها جدّاً عدَّة سنين ارسل الملك المذكور جلاداً فقطع
 رأسها باهره في وسط مدينة توليدا . ومريم زوجة اتون ملك النمسا قتلت
 باصر الملك المذكور لما تحقَّق ان ما اتهمت به احد امرائه باطل . فاذا تقرر
 ذلك نقول انه ما من تاج او قضيب ملوكي منزّه عما لباقي الامور الزمنية
 من التغير وعدم الثبات . وحسناً قال القديس غريغوريوس الترينزي .
 ان الاجدر بنا ان نستوثق من الريح ومما يطبع على صحائف الماء اكثر منه
 من نجاح العالم وغروره فانَّ العالم غدارٌ لا يذكر العهود ويخلف
 بالمعهود

بل ليست هذه كلها على حصر الكلام هبوطاً بل تغيراً فقط .
 لانه ما من احد يقدر ان يسقط من موضع سفلي منخفض وكل سعادة
 علمية وطيئة منخفضة جدّاً . فالسقوط الحقيقي اذا هو السقوط الروحي
 الذي يسقطه الانسان من حال سامية حال النعمة الالهية الى لجة

الخطيئة فيجب علينا ان نتجف فرقا اذ نرى ان مثل هذا التغير الخفيف
 يمكن ان يوجد فينا وذلك بارادتنا . فان جميع الخيرات الارضية يمكن ان
 تسلب منا اغتصاباً اما الخيرات الروحية فلا يمكن ان ننفقها ان لم
 نرض بذلك . في العظم شقائنا لاننا نحن نرضي بفقدها وبتغيرنا
 الاختياري نصير هذه الخيرات الغير القابلة للتغير خاضعة للتغير
 خبرنا القديس بطرس داميانوس انه عاش راهباً في مدينة من بلاد
 ايطاليا يدعى مادلينوس . وكان هذا الراهب قد ارتقى الى درجة ساهية من
 القداسة فبلغت به قداسته الى اجتراح المعجزات . ومن جملتها انه مرة
 في يوم السبت العظيم بعد ان هياً قناديل الكنيسة واعدها لم يبق له
 زيت لتعديل الجسد الالهي . فوضع بايمان حي ماء في التنديل عوضاً
 عن الزيت واضاءه فاشتعلت القنيلة بالماء كما كانت تشعل بالزيت
 واستمر ذلك التنديل مضيئاً هكذا تلك الائمة كلها . فاعتبر ما وصل اليه
 هذا الرجل العجائبي . فان الله رفع عنه يده فستط سطة قبيحة . ولاجلها
 ألقى في السجن وتعذب بحكم الشريعة تديباً مشتهراً . وقد اخبر ايضاً
 القديس بطرس المتقدم ذكره . انه في المدينة المذكورة انفأ كان كاهن
 قديس من عليه الله بفعل العجائب . وكان كل يوم في قداسه ينحدر
 ملاك من السماء يتقبل من يديه الاسرار الالهية ويقدمها لله كحسب الرسم
 الكنيسي وكان يعاين ذلك امير المدينة عينه . فهذا الكاهن الذي كان
 شبيهاً للراهب المتقدم ذكره في الفضيلة . ضاهاه أخيراً في الرذيلة وسقط

نظيره سقطه جسيمة . ومثلها الشاب الراهب الذي روى عنه القديس
 كليمكوس . فإنه كان بلغ الى قداسة عظيمة والى صنع العجائب . وكانت
 وحوش البرية تخضع له في خدمة الدير وقد كان القديس انطونيوس
 يشبهه بسفينة موسوقة جواهر ثمينة غير انها سائرة على البحر لا يعلم هل
 كانت تبلغ المينا . فهذا الشاب الجزيل النشاط سقط سقطه عظيمة .
 وحينما كان يبكي من جرائها مر عليه البعض من الرهبان . فطلب منهم ان
 يقولوا الانبا انطونيوس ان يصلي لاجله طالباً له من الله عشرة ايام
 ليبارس بها افعال التوبة . فلما سمع انطونيوس هذا الخبر اتحب وبكى بكاءً
 مرّاً واتف شعر رأسه بايديه قائلاً : واهاً لقد سقط عمود عظيم في بيعة
 الله . وبعد ذلك بخمسة ايام توفي الراهب المذكور

وجيرون الاسكندري الذي حكى عنه يراكليس قد أزهق في الفضيلة
 والقداسة سنين كثيرة . ثم بعد ذلك سقط ايضاً سقطه قبيحة رديئة . وصار
 بعدها يطوف منازل الزانيات ويجول في حومات الفساد عياناً بلا حياء .
 وهكذا تولد ماوس المصري الذي استوطن البراري المقفرة خمسة عشر
 سنة مواظباً على الصلاة . ولم يكن يأكل سوى الخبز ولا يشرب غير الماء .
 صدّ أخيراً عن هذه الرياضات وبدل هذه العيشة المقدسة بعيشة اخرى
 تضادها . ثم اننا اذا ما نظرنا الى ما ذكر في الكتب المقدسة . فنجد هناك
 تغيرات وسقطات اعظم من التي تقدم ذكرها . لانه من كان يظن بشاؤل
 لما اختاره الله وكان باراً واكثر صلاحاً من غيره . انه يتحوّل من حال

التواضع والصبر الى حال الكبرياء الشيطانية والغضب الشديد على من لم يكن له مثل في الصلاح والبر في جميع الشعب الاسرائيلي . وان سليمان الرجل الجزيل الحكمة والتقوى كان مزعماً ان يبني هياكل للاصنام (٣ ملوك ١١: ٧) . وان رسولاً من جماعة السيد المسيح كان مزعماً ان يسلمه ثم يشنق ذاته آيساً من خلاصه (متى ٢٧: ٥) . فبعد هذا جميعه من عاد يمكنه ان يثق بنفسه ولا ييهت مرتجفاً عند تأمله ما يمكن ان يبدو منه

الفصل الرابع

في ان تغير الاشياء الزمنية يرينا جلياً بطلانها

وفي كم يجب علينا ان نحتقرها

انه قد ذكر عن غليميروس ملك البندالة انه كان غنياً مقتدرًا ذا مجد عظيم . الا انه بعد ان انتصر عليه بليساريوس واخذ مملكته واسره واتى به الى القسطنطينية ومثل امام الملك يوستينيانوس وعطاء دولته لم يلج على وجه شيء من امارات الحزن اصلاً . بل انما تفوه بهذه الحقيقة المقول بها من الحكيم قائلاً . باطلة الاباطيل والاشياء كلها باطلة (جامعة ١: ٢) . وقد كان قبلاً اظهر من نفسه مثل هذه الشجاعة . وذلك حينما هرب الى بلاد نيقوميديا بعد انتصار بليساريوس عليه . وصعد الى جبل هناك واختفى في قلعة حصينة . لانه اذ حاصرته الاعداء وعزم على تسليم نفسه لاشتداد الجوع عليه . ارسل الى قائدهم من يطلب له منه رغيف خبز واسفنجة وقيثارة . فالرغيف لكي يحفظ به حياته المشرقة على الموت

من الجوع . والاسهجة لكي يمسح بها دموعه ولا يعود ان يبكي ايضاً على
 فقد الاشياء العلية التي تحقق بطلانها والقيثارة لانه لا يكتفي بمسح دموعه
 فقط بل يريد ايضاً ان يبذل العويل بالنشيد . والحزن بالتعزية والغناء
 فحقاً ان جميع عظام هذه الحياة باطلة . فهل من عظمة على الارض مثل
 عظمة مملكة الرومانيين . ومع ذلك فبعد جلوس احد هم على سدة هذه
 المملكة بزمن يسير كان يموت قتلاً . وكان يجرعه كأس المنون من
 اقاموه ملكاً . او اخرون اكثر منه اقتداراً وفضة ولقد علمنا مما
 دونه التواريخ انه من الملك انطونوس الفيلسوف الى الملك كلوديوس
 الثاني كان عدد الذين جلسوا على سدة المملكة ثمانية عشر ملكاً الى
 عشرين ملكاً . وجميعهم ماتوا قتلاً . هذا ما عدا الملوك الدخلاء وقد
 بلغ عددهم في عهد الملك يوليانوس الى ثلاثين ملكاً دخيلاً . وجميعهم
 قد قتل بعضهم بعضاً . فحقاً انه يتضح لنا بالكفاية من ان سعادة هذه
 الحياة مزمنة ان تنتهي مع هذه الحياة انها قد تنتهي ايضاً قبل انتهاء
 هذه الحياة وتنتقل الى شقاء

الفصل الخامس

في دناءة الاشياء الزمنية واختلاها عن النظام

وفي ان الذين يحبونها يعدلون عن محبة العدل

ان ما يبعث على احتقار الاشياء الزمنية ويجعلها حقيقة به ليس
 سرعة زوالها وانقلابها فقط بل يدعونا اليه امرٌ آخرو هو انها ذرية مضرّة

مضادة للنظام وهي كذلك لا بالنظر الى ذاتها فقط بل بالنظر الى سوء
استعمالنا اياها ايضاً. فهذا وذلك يجعلانها اهلاً للاختصار بهذا المقدار. حتى
انه كان يجب علينا ان ندرى بها ولو كانت ابدية. قال القديس يوحنا
البشير في جليانه انه رأى وحشاً مرهباً صاعداً من البحر وكان رأسه كراس
اسد وجسده كان مشكل الالوان كجلد النمر ورجلاه كانتا كرجلي
الدب وله سبعة رؤوس وعشرة قرون (رؤيا ١٣: ١٠). فهو ذا ما يوجد في
العالم اعني شهوة اللحم المرموز اليها بالدب الذي هو الوحش الاشد
ميلاً الى اللذات اللحمية. وشهوة العين. اي رغبة الغنى المعبر عنها بالنمر
الوحش المشكل الالوان. وفخر الحياة. اي رغبة الكرامات المرموز اليها
بالاسد وهو اكثر تكبراً من سائر الوحوش. ولما كان العالم مزدهياً
بالحياة والكبر. كان لهذا الوحش الرمزي سبعة رؤوس وعشرة قرون.
فالسبعة الرؤوس هي رمز الى الرذائل السبع الراسية والعشرة القرون هي
دلالة على ما يتولد منها من الرذائل التي بها يناطح الشر وصايا الله ويقاوم
الناموس الالهي. ثم اعتبر السر المرموز اليه بتوزيع اعضاء هذا الوحش.
فنقول ان رجليه كرجلي الدب. وجسده كجسد النمر. ورأسه كراس
الاسد وذلك لان كل مقاصد ونوايا العالم متأسسة على الشهوة اللحمية.
وعلى هذا الاساس قد قام شر الغنى وشر الفخر العالمي. اللذان ليس هما
شيئاً طبيعياً بل شيئاً اقترحه فساد البشر. فالغنى جسد العالم. لانه على
الغنى تسمو الكبرياء كأنها الرأس. ثم ان الغنى المرموز اليه بجسد النمر هو

موضوع بين الكبريا المرموز اليها برأس الاسد وبين الشهوة للحمية
الرموز اليها بارجل الدب . لان هاتين الرذيلتين تفتقران الى الغنى على
حدٍ سوى . ولذلك كان الغنى جسداً لهذا الوحش لكي يقوم بما
يتطلبه هاتان الرذيلتان اعني بهما كبرياء الحياة والشهوة للحمية . فالعالم
حقاً يشبه هذا الوحش الخيالي من حيث ليس فيه شيء حقيقي
قال فيلون الفيلسوف اليهودي . ان رأس الامور الغاية التي رسمت
الامور لاجلها . فاذمالت اشياء هذا العالم عن غايتها الوحيدة باستعمالنا اياها
سوء الاستعمال . فاعتراها خلل في النظام لما أريد فيها غايات كثيرة وقصد
فيها اغراض خصوصية . ومن ثم لم يكن للوحش المذكور رأس واحد
بل رؤوس كثيرة . فان البشر في استعمالهم الاشياء الزمنية لا يبتغون
غاية ان يرضوا الله ويعبدوه بل غرضهم منها ومرغوبهم فيها ان يرضوا
الاهم وشهواتهم . ولما كانت الشهوات متفننة مختلفة كانت غاياتهم
ونياتهم متنوعة مختلفة . وكان هذا الباعث على تكثير هذه الرؤوس
المستغربة . ولعمري لما كان العالم يتبع هذه الغايات المختلفة التي ليست
الاغايات كاذبة لمباينتها الصواب والطبيعة فوجب ان انحرف عن غايته
الحقيقية . ولما كانت كل الاشياء قد خلقت لكي يستخدمها الانسان لتمجيد
الله وعبادته كانت اذا حادت عن هذه الغاية تعود باطلاً كلها . كذلك
الانسان الماهر في رشق السهام فانه اذا قصت عيناه لا تعود تقيده
خبرته في تلك الصناعة ولا ينفع من قوسه وسهامه اصلاً . قل لي يا صاح

أكثره الذهب والفضة واللؤلؤ والجواهر الكريمة المرصعة بها اثواب
البشر وامتعتهم عاندها لخدمة الله او ينظر فيها اليها . فسل عن ذلك
القديس الكسيوس هل كان يستعمل ذلك لهذه الغاية لما استعمله .
فان كانت اذا هذه الاشياء لاستعمل لخدمة الله فتكون جميعها باطلة .
اخبرني ايضاً هل كثرة المذات والولائم والملاهي يقصد بها رضى الله او
هل تفيد لذلك . فسل القديس برزدوس هل اتخذها مدرجةً للبلوغ الى
هذه الغاية وهل ينظر في الجاه والفخر العالمي والكرامات الارضية الى
خدمة الله ام هل تجدي لذلك نفعاً . فاستفهم عنه القديس اليسبان
ملك الحبشة الذي تنزل عن ملكه الارضي ابتغاء ملك السماء . فكل
مجدٍ هو باطل وكاذب ان كنا لاندرک به المجد السماوي

ولعمري ان بطلان الاشياء العالمية لا يتضح من انحرافها عن غايتها
الواجبة فقط لكنه يتبين من جهة اخرى ايضاً . وهي لانها لا تصلح لما
يقصده فيها شرّ البشر ولا تفضي به الى غرض اراده منها لانه ما
عله يحمل الانسان الى الرغبة في الغنى والكرامات التي يفوز بها .
انه لم يقصد في ذلك شيئاً اخر سوى السعادة الارضية والحال انها
انما تفيد لذلك افادةً دون اليسيرة . بل الاجدر بنا ان نقول انها تكسبه
عذاباً وشقاءً . فما اسأم الشرائع التي سنها العالم مراعاة للسمعة والشهرة
والشرف انها تورد الانسان موارد القلق وتكدركاس راحته او ترمي بحياته
في خطر دائم . فهل من جهل اعظم غباوة وحماقة من ان يعدّ خيراً

واعتباراً في العالم ما من شأنه ان يكون علة لشرور عديدة متصلة وسريع
الزوال والفقْد وعسر الردّ ومن شأ فيسع ذرعاً على سلبه . واذا فقد مرّة
يستحيل استرداده وما اسوأ شريعة العالم هذه . انه اذا ما افتري عليك
رجل فبيح الصيت بقوله عنك انك كذبت فيكون قد شنع صيتك
وثلم عرضك . وان كان المفترى عليك كذاباً . وما شرف الصيت الذي
اذا جرح بكلمة سقطت من ذلك لا تقدر ان تعوّضه بكلمة اخرى تقولها
انت . او ليس اجتهاد الانسان في اصلاح صيته باظهار الحق عنوةً
واغتصاباً ضرباً من الغباوة بل ضرباً من الجنون القطيع . لانه اولا ان كان
الانسان اشدّ بأساً وبطشاً فليس لذلك افضل صلاحاً وصدقاً . ثانياً لان
هذا مضرّ بالقوم الفضلاء . لانه غالباً من كان باصغريه افضل صلاحاً
يكون بالجسد ضعيفاً ذليلاً . واما الغني فقد صيره شرّ البشر كثير الضرّ
قليل النفع لكون الغني لا يقنع ولا يرتضي ولا يكف ما دام لا يرى في
بيته ما شاء . فلا يكفيه ان يلبس الفخر كسوة ويتزين بالفخر ملبوس . بل
يريد مع ذلك ان تكون حيطان منزله ايضاً مزينة بالفخر زينة . ومن ثم
فمن كان اوفر غني واكثر مالاً يكون اشدّ افتقاراً واعظم احتياجاً . وذلك
لانه لا يحتاج من حيث اشواق نفسه فقط . بل من حيث ضرورة الاشياء
التي يمتلكها ايضاً

وقد نرى خلافاً عن النظام في الاشياء الخصوصية ايضاً التي هيئات
سدّ الاحتياج البشر . فإكان مفيداً نافعاً صار مضرّاً مؤلماً . ومنه المأكل

الذي جعل حفظاً للحياة . فقد حولتهُ شراهة الانسان الى امر مضر
 بالحياة . وذلك باستنباط انواع مختلفة واشكال متاونة من طبيخ الاطعمة
 فتولد عن ذلك امراض متنوعة كما شهد مار سلوس دوناتوس الطبيب
 واخبر بويسيوس عن بلاد سكوسيا انه لم يدخل اليها حتى وبأية حتى
 دخلت قلبها الاطعمة اللذيذة المتلونة . فاذا لاحظنا بطلان الاشياء
 الارضية الذاتي ثم اعتبرنا استعمالنا اياها المنحرف فلا نستطيع ان نحتمل
 العالم ذاك الوحش الذي له مثل هذه الرؤوس الكثيرة والقرون
 المضرة . فبم يقصدنا به من الجور والظلم وما اكثرت الحيل والاضرار
 والنقمة والاطخار التي تتولد منه . لان البخل يبلبل كل شي . . والزنى
 يفسد كل شي . . والنحر العالمي يكدر نظام كل شي . . فيا ليتنا
 نرى ما يكمنه العالم تحت ظاهر ختال

قد ذكر عن كاهن فاضل ذي غيرة عظيمة على خلاص القريب يدعى
 فولكوني . انه عزم يوماً على ان يجتذب رجل غني الى عبادة الله ويهديه الى
 سواء السبيل . فرام لذلك ان يأكل عند ذلك الغني وظن ذلك فرصة . فلما
 دخل المنزل سأله قائلاً ما الذي اعدته لنا اليوم من الطعام . قال الذما
 يوجد في هذه المدينة واثنه . وفي الحال ادخل الكاهن الى المطبخ مع اناس
 كثيرين . واراها المواكيل المختلفة الالوان المعدة للغذاء . واذا به اقد استحالت
 جميعها الى عقارب وحيات وافاع وغيرها من حشرات الارض . فاندعش
 الغني من هذا المنظر العجيب المرعب وكان ذلك وسيلة لان يسرع ويهتدي لانه

تحقق ان الانهماك في الملمات مضرٌ ضررُ الاعتداء بدبابات سامّة . وان
لذة الحنجرة قد ابادت من الناس اكثر مما اباد منهم الاسد والوحوش الضارية

الفصل السادس

في كم تكون الاشياء الزمنية يسيرة قصيرة

فها ان نعتبر ان الاشياء العالمية ليست باطلة فقط بل يسيرة
وجيزة ايضاً . ولنشر عن باعتبار الخيرات الارضية التي تظهر لنا اوفر عظمةً
وفخراً . اعني بها حسن الصيت وشهرة الاسم . فان بني البشر يودون
لو يزاع صيتهم في العالم ويشتهر ذكرهم ما بين الملا . ولكن تعلم ما الذي
يكون من امر ذلك . فها هو ذا الوف وربوات من الناس لا يعرفون
من هو ملك فرنسا او ملك النمسا او ملك اسبانيا . فقبل ولاذتك عبرت
اعوام كثيرة لم يعرفك احد فيها . واذا قضيت اجلك تعبر ايضاً اعوام
اخرى ابدية تكون فيها نسياً منسياً قليلون هم الذين يعرفونك
وانت حي واكثرهم اشراً . فلم اذا تفرغ كل جهدك وجدك وتعب
بدنك لكي تفوز بمثل ذلك مما هو اهل بالاحتقار لدناءته . وماذا اقول
عن جهل من يزهون بالعجب والكبر . فيخذون لنفوسهم اسماء شريفة
لنشر صيتهم في العالم . اني لاعتقد انه بين علماء العالم الماهرين قليلون
يعرفون الملك فنكتادينوراجيو . مع ان هذا الملك كان يظن ان العالم
جميعه يعرفه . وهكذا كان يتوهم اهل ملكه . ولهذا كانوا يدعونه مولى
الملوك . ومن جملة افتخاراته كان اذا برز امراً او كتب رسالة يفتح الكلام

فيها هكذا . رب الحظ الحسن والسعادة . ملك الاقاليم المتسعة . واعظم
 الملوك والههم . ومولى القوارس المظفر بكل الذين يراهم والحفيظ على كل
 من يظفر بهم . المهوب في اربعة اقطار العالم . مبيد مواكب آل
 اسماعيل . فبهذه الاسماء المنحمة كان يفخر فنكت ادينورا جيوب . ولكن من
 ذا الذي كان يعرف اسمه وانه كان ملك نارسينيا ان لم يخبره احد بذلك
 فكما ان هذا الملك وغيره من الملوك المقتدرين هم خاملوا الذكر في هذه
 البلاد . هكذا هم بالحري غير معروفين من سكان البلدان البعيدة
 ثم اننا اذا تأملنا فيهم عدم موافقة الاسم المسمى لوجدنا كل ذلك
 باطلا . لانه كم من اناس حقيرين ادناؤا نفسهم مستغرقة في لجة الخطية
 التي هي الدناءة القصوى . قد اتخذوا لانفسهم اسما شريفة منحة . وما
 من احد يمكن ان يكون اكثر مما هو في عيني الله . والله لا يعتبر احدا
 من حيث شرف نسله . بل من حيث شرف ايمانه الكاثوليكي . لالانه
 ولد في بلاط ملوكي بل لانه ولد بالماء والروح بسر الاعتماد المقدس .
 فاذا تنفع الولادة من حسب شريف واين هي من الولادة من جنب
 يسوع . قد ذكر عن البتول سانسيا كارتيليا الفاضلة . انها كل مرة كانت
 تحضر عماد طفل . كانت ترى سيدنا يسوع المسيح على صليبه والطفل
 يخرج من جنبه الاقدس . وكان ذلك دليلا على ان هذا المولد الجديد
 ناله باستحقاق دم السيد المسيح . وانه انما اعتبارنا منوط عند الله بشرف هذا
 الدم الالهي . لا بشرف دم اجدادنا الذي هو دم اناس خطاة . فالمولد الاول

يلحق بنا الهوان . والمولد الثاني يكسبنا الشرف . لان المولد الاول هو
مولد الخطيئة المميت . اما المولد الثاني فهو مولد القداسة الروحي المانح
الحياة . فبالمولد الاول نصير ابناء البشر . وبالمولد الثاني نصير ابناء الله .
واخيراً اقول انه بميلاد المعمودية نصير ورثة الملكوت السماوي ونحوز
النعمة الالهية وعربون المجد الابدي . فاعظم حماقة الانسان الذي
يفتخر بمولده البشري الذي يصير به خاطيئاً اكثر من افتخاره
بمولده الالهي الذي يصيره قديساً . فحقاً ان ايجاد العالم هي باطله . ولهذا
قال ماتايا المسكابي لنيه . ان كل مجد بني البشر هو زبل ودود (٢٠١
مكابين ٢ : ٦٢) . واشعيا شبه طالبي هذا المجد الباطل بالعنكبوت الذي
ينسج لنفسه نسجاً من احشائه ليصيدها الدباب (اشعيا ٥٩ : ٥) . وهذا
المجد الباطل كان سبباً لهلاك كثيرين وان كان ديناً خسيساً . فان كان
داود الملك والنبي لعن جبل جلبوع لانه قتل عليه شاول ويوناتان .
فكم بالحري وباولى حجة يجب ان يلعن جبل الكرامات العالمية التي منها
وبسببها طرحت اناس لا يحصى عددهم في لجنة جهنم

فلنعتبرن الان ما هو الغنى وبم يتنعم اصحاب الغنى . فالقديس
غر يغوريوس التريزي قد شرف الغنى اذ دعاه زبلاً ثميناً . وقد سماه
انطونيوس قيصر الفيلسوف حماة الارض وزبلها . اما الحرير الابريسم
فهو ثقل الدود والزباد هو عرق السنابير والعنبر فضلات تخرج على
جلد حوت بحري . والمسك دم حيوان متن . ثم ما هي المدن والاقاليم

فانظر اليها من فلك القمر . فمن هناك تحكم مع لو كوسيانا المعلم الفلكي
 ان ممالك اليونانيين كلها توازي عرض اربع اصابع . وان كرة الارض
 جميعها هي شيء حقير جداً . فان كان هيرودس الملك اعطى نصف
 ملكه اجرة لرقص صبية فاذا يكون ثمن ملكه كله وقيمته . ان هامان
 وزير اشورش الملك كان على جانب عظيم من الثروة والغنى . وقد
 اعترف انه لا يعتبرها ولا يعدها خيراً حين يرى مردخاي اليهودي لا
 يكرمه ولا يبادره بالسلام

ثم قل لي ما هي لذات الخنجرة . فان هي الاشياء حقيرة من
 ذاتها ومستكرهة . لعمرى انه اذا ما لحظنا ما هي الدجاجة المشوق الى
 اكلها لوجدنا فيها ما يسبب لنا كراهية واستنكافاً . لانه لو وضع احد
 في الطاجن الذي يطبخ فيه الغذاء دوداً وزبلاً . لقد كان اشمازمنه
 الجميع وابوا ان يتناولوا منه أكلاً . والحال ان الدجاجة ليست الا
 اناءً مملواً دوداً وزبلاً وغير ذلك مما تعينه النفس كالمادة التي تخرج من
 الانف واقرف منها . فان كان مجرد ثقل الطباخ على الطعام يكره المعدة
 على الاستفراغ يذهب بشهوة الاكل بالكلية فكيف لا يشماز
 الانسان من مضغ ما يحمل في بطنه من مثل هذه الاشياء المستكرهة .
 وقل مثل ذلك عن اكل لحم الخنزير . اما الخبز والحشيش والماء
 ما لف الناسك ان يقتاتوا به فلا يوجد انق ولا اطهر منه

كذلك لذة الحواس القصيرة . ففضلاً عن انها اقصر من جميع اللذات

فهي ممزوجة بعلمهم عذابات كثيرة تتقدمها وترافقها وتبعتها . فكم من الخوف والضيق والحظر يكابد الزاني قبل ان يبلغ الى سوء مأربه الدنس وكم مرة يرتجف قلبه وينقبض في حين اتمام شهوته . وما أشد النكال الذي تستحيل اليه اللذة الخيالية بعد ذلك . ثم ما اكثر وما امر الامراض والاوراجع والميتات الناتجة من لذة وقتية

فمن أجل هذه الاشياء الوجيزة الدنية نخسر أعظم الخيرات اعني الخيرات الابدية . ونحتقر الناموس الالهي . ونهين مخلصنا الذي يرغب ان يجزينا بمحسنته السماوية الالهية الجسيمة اذا ردلنا حباً به تعالى هذه اللذات الارضية الدنية الوجيزة . وقد كان يجب على الذين لا يرفضونها لاجل خساستها ان يرذلوها ويدوسوها تحت ارجلهم لاجل الاجر والثواب المعد منه تعالى للذين يمتون حواسهم وينبذون هذه اللذة لاجله عز وجل . ويتقر ذلك مما رواه غليكاس المؤرخ . وهو ان ناسكاً كان في البرية من اربعين سنة يجاهد على خلاص نفسه ويمارس رياضات دعوته بنشاط عظيم . فاشتبهى ان يعرف هل كان يوجد على الارض من يباريه او يجازيه ثواباً واستحقاقاً . فشرع يطلب الى الله ان يعلن له حقيقة هذا الامر . فرضي الله عنه واستجاب طلبه . واوحى اليه بان تاودوسيوس الكبير ملك الروم هو مساو له في الثواب . لانه وان ملكاً فليس باقل منه اتضاعاً وامانة . فنهض الناسك بعد هذا الجواب وهم بالهام ولما كان مشتهراً بالقداسة وكان الملك يكرم جداً أهل النسك

والعبادة أذنه بسهولة ان يدخل عليه يسأله عن رياضاته المقدسة . غير ان الملك لم يكشفه إلا ببعض فضائل مألوفة منها صدقات وافرة ولبس المسح وصيامات شديدة وحفظ عفة الزينة بالتدقيق مع امرأته الملكة وقصده شعبه وأهل مملكته بالعدل والانصاف . فحجب الناسك من ذلك جداً . ولا سيما إذ كان ملكاً متسلطاً . الا انه رأى انه قد أنجز هذه كلها باعظم كمال إذ قد هجر العالم وكفر بكل شيء حباً بالسيد المسيح . وان هذا الأفضل من توزيع الصدقات . ولم يعرف امرأة في كل زمن حياته وهذا شيء أفضل من حفظ عفة الزينة . وانه لم يضر القريب ابداً وهذا لاكثر كمالاً من صد الناس عن مضرة القريب . وما عدا ذلك فقد كان لبسه المسح وصومه متصلاً ولم يذق طعاماً لذيذاً فلذلك ألح الناسك بالسؤال متوسلاً الى الملك ان لا يكتمه امرأ من شأنه . وقال له إن الله يريد ذلك ومن قبله أنا وافيت اليك . فحينئذ قال له الملك اعلم ايها الاب القديس ان كل مرة تصير فرج ومنتزهات وسباق خيل وما يضا هي ذلك من الملاهي الملوكية . فاقف عنها بعيداً لئلا تلذذ حواسي بالنظر اليها . واذا حدث قريباً مني ما يميل بقلبي الى مشاهدته . فاصرف نظري عنه مميّتاً بذلك نفسي . ولا تزال عيناى مفتوحتين فيكون حالي كحال الاعمى الذي لا يبصر شيئاً . فهبت الناسك متعجباً من اماتة هذا الملك المعظم . وعلم حينئذ ان القضيبي الملوكي والارجوان لا يمتنعان الملك عن اكتساب استحقات عظيمة عند الله . وذلك باماتة نفسه وحبسها

عن طلب ملذات حواسه . ثم أعقب الملك قوله بقوله إعلم ايها الاب
اني اربح معاشي بتعب يدي . لاني اكتب كتباً بخط حسن وابعيها
وهكذا أحصل بعرقى ما يسد عوزي وانا لم معيشتي . فانه هل الناسك
من مثل هذا القريين الكنوز ومن مثل هذا الامسالك والقنوع بين
الذات . ثم تهلل بنفسه واعتقد متحققاً ان هذا الملك المعظم قد ربح هذه
الاستحقاقات السامية بحبس نفسه عن لذات الحنجرة والنظر . فهذه
هي حال شقاء اللذات الارضية . فانها وان كانت وجيزة دنية فان
حللت لنا اعاقتنا عن اكتساب استحقاقات عظيمة وخيرات جسيمة .
وان حُرمت علينا انتهت بنا الى اضرار جزيلة وشرور لا توصف

فينتج مما تقرر انه لا ينبغي ان نستعظم عظمة علمية ولا نبغى لذة
أرضية . وهذا ما قاله القديس سبيريدون لتلميذه حينما دخل معه الى
بلاط الملك . وكان التلميذ قليل الخبرة وكان ياخذ منه العجب ويذهب
بعقله كل ما كان يبصره من عظمة البلاط ومما فيه من الزينة الفاخرة .
وكان يندهش خاصة من الملك الجالس على سدته الملوكية بعز لا
يوصف . فاذا اطع القديس على ضلال تلميذه قصد ان يردّه عنه فسأله
قائلاً . أرني من هو الملك لاني لست اميزه من غيره ولا ادري هل
اعرفه حقاً . فاما التلميذ الذي لم يعرف سبب هذا السؤال مديده واره
بها الملك . فحينئذ قال له القديس وماله من استحقاق الفضل والايثار
على غيره غير ملابسه الفاخرة فاذا يفيد ان يكون متردياً احسن من

بقية الناس . أليس مزمعاً ان يموت كاحد المساكين الخاملين الذكر
 أليس يندس في قلب الارض كمثل جميع الانام ألا يكره على الوقوف
 امام منبر الديان الرهيب نظير الجميع . فلم تعتبر الاشياء الزائلة وتنزلها
 منزلة ابدية

الفصل السابع

في عظم شقاء الحياة الزمنية

اذا اعتبرنا الان ماهية الحياة الزمنية يداخلنا عظيم العجب والاندهال
 من ان مدة قصيرة من الزمن تحوى بلايا عديدة جداً . قال فالريس
 الفيلسوف احد العلماء الاقدمين . انه لو يعرف احد قبل مولده ما سوف
 يرد عليه من البلايا لم يرتض بالولود . ولما سئل سيلا نوس ما هي السعادة
 العظمى قال : انها عدم الاتلاد او الرجوع الى العدم بعد الاتلاد حالاً .
 وقال الحكيم جميع ايام الانسان مملوءة اوجاعاً وشقاءً . فلا يستريح
 عقله ولا يهدأ قلبه ليلاً ولا نهاراً . ولعمري انه في تعداد بلايا هذه الحياة
 لا يجب ان نقتصر على الامراض فقط بل يجب ان نذكر ادويتها
 وعلاجاتها ايضاً لان بعضاً من الامراض الاعتيادية تداوي بالكي وقطع
 الاعضاء او نشرها او بشق الجوف . وعدا هذا وهذا فان المريض ينهي
 عن المأكل والمشرب . واليه اشار كرنيليوس سالوس اذ قال : ان
 بعضاً بلوا من امراضهم الميتة بامتناعهم عن المأكل والمشرب فعدوا
 يتضورون من الجوع حتى انهم اكلوا زبلهم وشربوا بولهم . وقد ذكر عن

البابيلوغوس الثاني ملك القسطنطينية أنه ابتلاه مرض المله بشديد
 الاوجاع مدة سنة كاملة لم تجد له الاطباء بها علاجا يشفيه من مرضه فاجمعوا
 على ان الغيظ يشفيه . فلما سمعت ذلك الملكة امرته وكانت تحبه جدا وترغب
 شفاؤه . حركت جميع الماثلين لديه وجميع الخدام على مخالفته ومضادته
 وبذلت هي جهدها في ذلك فلم تجد ضربا من الازدراء والافتراء
 الا جاءت به حتى كاد يموت حزنا ويميز غيظا . فان كانت علاجات
 الامراض هذا عظم مراتها فما ظنك في الامراض نفسها

خبرونا عن رجل اسمه ائجل بوليسيانو انه اعتراه مرض مؤلم جدا
 اذاقه مر العذاب حتى انه كان يضرب برأسه على الحائط من شدة المله .
 وميسيناس الشريف القدر بين الرومانيين الاقدمين منعه مرضه
 العضال عن لذة الوسن مدة سنة كاملة . وقد كان مرض انتيوخوس
 الملك سمجا ومستكرها جدا حتى انه لم يعد احد من عسكره يتحمل ثنائة
 جسده المتماهي الذي كان ياكله الدود وهو حي

وماذا أقول عن الامراض الوبائية التي اهلكت سكان المدن
 واقفرت الاقاليم . فقد ذكر كثيرون من المؤرخين انه حدث في
 القسطنطينية طاعون كان يحن به المطعونون ويداخلهم منه خوف هذا
 حده حتى انهم كانوا يموتون من مجرد وهمهم ان جيرانهم يريدون
 قتلهم

وقد اخبر توسيديدوس المؤرخ اليوناني انه في عصره حدث في

بلاد الروم وباء مريع اهلك اناساً لا يحصى عددهم ولم يجد احد له دواء .
واغرب من ذلك ان الذي كان يُشفى منه كان يعدم حاسة الذاكرة تماماً
فيعود لا يعرف والديه ولا اولاده ولا اقرباءه . وقد ذكر ايضا ان جنود
افيدوس كاسيوس اذ كانوا في سلوكيا مدينة مملكة بابل دخلوا هيكل
ابولو فوجدوا فيه صندوقاً مقفولاً ففتحوه طمعاً بايجاد مال ياخذونه . فما
فتحوه إلا فاحت منه رائحة منتنة افسدت بلاد بابل كلها وانتقل الفساد
منها الى بلاد الروم ومن بلاد الروم الى رومة ففتك بسكان هذه
الممالك واذاقهم من الوباء ما لا يطاق ولم ينج منهم سوى الثلث
و اذا انتقلنا الى الازمنة القريبة منا فنجد مثل التي ذكرنا من
البلايا والوباء لان عدل الله لم يزل ينتقم كما ان البشر لم يبرحوا يخطئون .
لقد ذكر انه حدث في بلاد النمسا مرض وباءي كان يميت من يدركه
بمدة اربع وعشرين ساعة وذلك بخروج عرق مسموم من جسده . وقد
مات منه أكثر سكان اقليم هذه المملكة حتى انه في بلاد الانكليز
كانت الطيور تبين او كارها وفراخها . والوحوش تغادر مغارها . والحيات
والحشرات كانت تخرج من قلب الارض لعجزها عن احتمال فسادها
وتناثها . وفي سنة الف وخمسة وست وثلاثين للمسيح حدث طاعون
عظيم في اقليم مرسيديا واستقام تسعة اشهر حتى امتلات القبور من الموتى
واكثر المطعونين كانوا يستنجون في اليوم الثاني . فمنهم من كانوا يطرحون
انفسهم في الابار ومنهم من كانوا يرمون بدواتهم من أعلى منازلهم .

وقوم كان يخرج الدم من انافهم مدرارًا وكانوا اذا قطعوه عقبه الموت .
 واذ كان لا ينجوا احدٌ ممن ادركهم هذا المرض فكان من يشعر بوروده
 يتكفّن بالاكفان لعلمه اليقيني بأنه سوف يموت لاحالة . وقد كان عدد
 الذين ماتوا على هذه الحالة ما ينيف على عشرت الاف نفس . فتلك
 حال البشر وتلك هي بلاياهم

ومثل ذلك يحق بحياة الانسان من البلايا ومنها الجوع .
 روى المؤرخون انه لما حاصر الاريكوس مدينة رومة فاشتدت على اهاليها
 المجاعة اضطروا الى ان ياكلوا الخيل والكلاب والقطاط والفيران
 بل لحم البشر ايضاً . واذ حاصر سيبون مدينة نومانتا في بلد افريقيا
 بارح النومانتيون المدينة من شدة الجوع وقاموا يرصدون الرومانيين
 ويصطادونهم كوحوش الصيد ويأكلونهم سدًا لجوعهم . وقد ذكر في
 السفر الرابع من اسفار الملوك انه على زمن اليسع النبي حدثت مجاعة
 عظيمة في السامرة حتى كان رأس الحمار يباع بثمانين درهماً من الفضة
 وربع المكيال من زبل الحمام بخمسة دراهم وقد اضطرهم الجوع الى
 افتراس بعضهم . قيل ان امرأة من نساء المدينة حضرت امام الملك
 شاكيةً اليه جاريتها واخبرته بانها لم تقم بوعدا لها . وذلك لانهما اشدة
 جوعهما تعاهدتا على اكل ولديهما . فبعد ان ذبحت الشاكية ابنها
 آكلتها اياه فآبت تلك ان تذبح ابنها واخفته ولم تقم بوعدا
 ومثله ذكر يوسيفوس المؤرخ اليهودي في الجزء السابع من تواريخه بل

جاء بما هو اشد قساوة منه قال انه اذ حاصر الرومانيين اورشليم وضايقوها
 جداً كان في تلك المدينة امرأة ذات حسب ونسب تتأب في مال جزيل .
 فلما اشتدت الازاحيف اخفت جزءاً من اموالها الغزيرة وكانت تقتر على
 نفسها وتعيش بامساك عظيم . اما الجنود الذين في المدينة فلعلمهم بغناها
 اكلوا وشرّبوا اموالها شيئاً شيئاً . فلما لم يبق لها منه شيء فصارت في
 غاية الضيق والشقاء وسأت حالها حتى كانت تلمس اليسير مما يسد
 جوعها فلم تصل اليه فالتفت الى طفل لها كانت ترضعه وشرعت تخاطبه
 بنحيب وعويل قائلة : يا ايها الابن الشقي انت من أم أشقى منك .
 ماذا أعمل لك وكيف استطيع ان احفظ حياتك . لقد نفذ كل ما كان
 لي من الزاد والاموال فان ابقيتك حياً استأسرك الرومان . فكأن
 الاولى بك ان تقوم من نفسك باود والدتك وتقيتها وتدرأ عنها قساوة
 الجنود الذين اختلسوا كل مالها . وتكون للاجيال الالية مثلاً يميل
 بالقلوب الى التراف والرحمة . قالت هذا ولوقتها ذبحت ابنها وشتمته
 شطرين فشوت احدهما على النار وخبأت الآخر ليوم الحوج . وفي اثناء ذلك
 دخل الجنود بيتها فلما اشتموا رائحة اللحم المشوي توعدوا المرأة بالموت او
 تحضر لهم مما شوت فاما هي فاذا كانت بعد قتلها ابنها قد صغرت نفسها
 واستحوذ على قلبها الرجز والياس ولم تعد تبغني على الارض شيئاً سوى
 ان ترافقه بالموت نرعت عنها عذار الحيا والخوف وقالت للجنود . انصتوا
 يا اصدقاءي واعلموا اني عاملتكم معاملة أخت لاختوتها لاني خصصتكم

بنصيب مما كان لي . ثم احضرت لهم فضلات ابنها المشوي . فلما شاهد الجنود هذا المنظر المشؤم ارتاعوا خوفاً وبهتوا متحيرين . ولما ينسوا بكلمة لما وقر فيهم من الدهشة والارتعاش ولما كانت تلك الامم الشقية قد خالطها نهار الرجز المفرط صرخت اليهم . ما بالكم تخافون ايها الشجعان الابلسل أليس ما أحضر لكم ثمرة احشاءي أليس ابني أليس ما حلَّ به من المنية مني لامن الغير . فلم لا تاكلون ففر الجنود وولوا مدبرين لا يطيقون هذا المنظر المرعب وتركوا الامم وما بقي من جثة ابنها وكان ذلك كل ما بقي لها من اموالها الغزيرة

اما البلايا والمصائب التي تحدث من قبل الحروب فهي اعظم واكثر جدًّا مما تقدّم . فما ظنك مثلاً في ما حدث في بلاد النمسا على زماننا . فما اكثر الشرور التي حلت بها وكانت قد سببت حرب السويديين الاراتقة اللوترانيين فلم ير في جيوش البرابرة المظفرين قساوة نظير قساوتهم او توحش مثل الذي ابدوه . ففضلاً عما احرقوا من الاراضي في اقليم بافاريا . كانوا يشدون رؤوس البعض بالحبال الى ان يراق الدم وتنكسر جماجمهم ويخرج نخعهم . واخرون كانوا يرطون ايديهم وارجلهم ويلقونهم للقواط والكلاب الكلبى لتمزق احشاءهم . وقوم كانوا يعلقونهم في الفضاء بايديهم ويضرمون ناراً من تحتهم . وغيرهم كانوا يقطعون آذانهم ومناخيرهم . والبعض كانوا يملأون بطونهم من الماء ثم يعصرونهم الى ان يستفرغوه من افواههم وانوفهم . واخرون كانوا يكشطون

جلودهم أحياء وغيرهم يقطعونهم أرباباً وكانوا يقتضون الابكار سفاحاً
ثم يتقبون ساعديهن . حتى ذهب التوحش ببعض الجنود الى ان يغتذوا
من لحوم الاطفال الذين كانوا يشقونهم شطرين . اما الذين اسروهم
في الحرب من الجنود الكاثوليكين فلم يكتفوا بان ربطوهم بأيديهم
بل كانوا يتقبون ساعديهم ويدخلون بها حبلاً ويعلقون الحبال باذنان
الخيل ويسحبونهم على الارض ولم يبقوا عند ذلك بل كانوا يشقون
بطونهم ايضاً ويملاونها شعيراً ويجعلونها معالف للدواب

هذا واجتري على القول بان البلايا التي تصدر من قبل الام
الانسان وامياله المنخرقة أعظم من البلايا المتقدم ذكرها التي تصدر من
قبل الطاعون والجوع والحرب . ولهذا قال احد المعلمين في تفسير انجيل
القديس متى . ان الانسان أعظم الشرور لان كل وحش له شر واحد
مختص به . اما الانسان فهو مجموع الشرور كلها . وما يقاسيه الانسان
من قبل الانسان نفسه فلا يسهل على التصديق . فما اكثر ما احتمله
داود النبي بين نفي وجوع وحرب وخطر بعث عليه كامن حسد شاول .
وما أعظم ما قاسى ايليا النبي من غضب ازيل . ويعجز الطاعون عن
أن يعجل بالموت على نابوت الازراعي اكثر مما عجل عليه بخل آخاب
الملك وما من وباء أباد من البشر ما أباده تكبر هيرودس من الاطفال .
فما اكثر انواع العذابات التي اخترعها عقل البشر وبعث به عليه
الآلام والشهوات . انه من زمن مديد استنبط الناس خمسمائة نوع من

السمّ والآن قد تضاعفت انواعهُ جداً . لان المتقدمين كانوا من المعارف والاختراعات بمراحل عن جيلنا هذا فليس للانسان من سبيل يحترز به من السمّ وقد تيسر لعدوك ان يبت فيك سمّاً من يده اذا صافحتها سلاماً بل اذا سمعتهُ مخاطباً . وقد علمتنا موارد الاختبار أن يسمّ امرؤُ بالمس وبالنظر وبالشمّ وبدوق ادنى شيء

بل ما من شيء ياتي الانسان ببلايا وشوررٍ أعظم مما يستجلب الانسان على ذاته من قبل الامه . ان المتكبر يتألم من كرامة الغير . والحسود يذوب عند مشاهدته سعادة الناس . والبخيل يفقد الراحة اذا فقد ما لا يحتاجه . والغضوب يُجنّ من شدة رجزه لامرٍ لا يجديه نفعاً ولا ضرراً . فإكثر الذين خسروا أموالهم وراحتهم وحياتهم الزمنية والابدية لانهم لم يذلوا الامهم ولم يقهروا نفوسهم كما جرى لهامان وزير احشورش الملك الذي لسبب انه رام اكراماً ومجداً اكثر مما يليق به خسر كل ماله وكرامته وحياته ومات مشنوقاً . وابيشالوم اذ حملته الكبرياء على اختلاس ملك ابيه داود هلك معلقاً بشعر رأسه على شجرة والسهم مُبجّن في قلبه . وامنون ابن الملك والنبي داود انقاد الى شهوة لحمية فافضى به ذلك الى المنون

وقد ذكر عن فتسيسلاوس ملك بوميا انه استشاط غيظاً على احد شرفاء بلاطه لانه لم يخبره بسجس صار في مدينة براغا . ولا فرط غيظه سل سيفاً ووثب عليه ليقتله فامسكه الحاضرون ولم يکنوه

من قصده فاختنق من شدة حصره وسقط على الارض ميتاً. وهكذا
 نرفا الملك مات من حنقه. وذكر بلينيوس عن ديودورس انه مات
 موت الفجأة من شدة النجمل الذي استولى عليه اذ لم يستطع على ان
 يحسن الاجابة على بعض الاسئلة والمشاكل التي اقترحها عليه احد
 الفلاسفة. وكمن اناس ما توابعته لاجل الم الخوف او الحزن او من قبل
 الم الفرح أو العشق. وهاك بشانه خبراً يرثى له

ان رجلاً متزوجاً بامرأة أولع بامرأة اجنبية وزنى بها. فصدر من
 قبلها شكوك في المدينة. فلذلك حرمها الاسقف. فتابت المرأة وارتدت
 عن غيرها. واما الرجل الذي كانت الشهوة اعمت عقله وملكت قلبه
 لم يتب بل ثبت على شره. فزار المرأة سرّاً في ذات يوم. فلم تقبله
 بحجة بل قابلته بوجه عبوس وكلمته كلاماً مرّاً. وامرته بالخروج من بيتها
 حالاً وبالآ يعود اليها ابداً. فلما رأى الرجل ما بدأ منها من نكران المحبة
 وعدم الوفاء اخذ يعاتبها ويلطفها بصوت اسيف بقلب مميز من الم
 الشهوة قائلاً: أهكذا تكافئين محبتي بنكران الجميل ونسيان الحب
 القديم. واذ كان يخاطبها بمثل ذلك وقلبه يتفطر من النعم والم الحب
 رفع الحافظه الى الملا كأنه يريد ان يشكو ما به من الغرام والضيق
 فسقط في ساعته على الارض ميتاً وهلك بخطيئته وبئس الهلاك

فحقاً ان أعظم بلايا الانسان هي التي يجلبها على نفسه من قبل
 امياله والامه والى هذا يشير الحكيم بقوله: اني مدحت الموتى اكثر

من الاحياء ووجدت من لم يولد ولم يرَ الشرور التي تحت الشمس اسعد
 حالاً من الاثنين (جامعة ٤: ٢). ولهذا لما تأمل تيمون فيلسوف مدينة ايتنا
 تفاقم شرور الناس الناتجة من الالمهم المنخرقة المتجاوزة حدود الصواب .
 أوغر قلبه بغضاً لهم وصار لهم عدواً مميّتاً واختار السكنى مع الوحوش
 في البراري افضل من السكنى مع البشر في المدن ولم يدع احداً يفتقده
 غير السبياد لعله بانه مزعج ان يحارب اهل ايتنا حرباً عواناً . ثم نصب
 بين اشجار بستانه خشبات عالية يشق فيها الناس الاشرار الاندال
 ذواتهم . واذا اراد ان يوسع داره ودعت الضرورة الى ان يقبل هذه
 الخشبات ذهب الى ايتنا واخذ ينادي في شوارع المدينة بسماع الشعب
 قائلاً : اعلموا يا سكان ايتنا اني لضرورة ما قد عزمت على اقتلاع
 الاخشاب التي نصبتها لشنق الناس فمن منكم حلت التوبة والعبادة
 في قلبه يريد ان يشق نفسه فليسرع في انجاز ما عزم عليه والا فاته
 الزمن . ولما فرغ من هذه المناذاة عاد حالاً الى منزله ولما انت ساعة
 موته رام ان يري الناس بغضه لهم بعد موته ايضاً . فاوصى بالآيدفونه
 في الارض لانه مسكن البشر العام بعد موتهم بل على شاطئ البحر
 فحقاً ان هذا الفيلسوف الوثني لعدم نور الايمان لم يفرق بين شر
 البشر وطبع البشر . ولهذا حاد عن الصواب ببغضه طبيعة البشر . الا انه
 ابان لنا بفعله كم تكون اميال الانسان منخرقة عن الصواب وكم تكون
 اهلاً لان تبغض وتمقت . على انه يجب علينا حقاً ان نبغض هذا العالم

الذي لا يرشد بحسب انذار العقل بل بحسب مرام شهواته العمياء . ولهذا
وان لم يجز للمؤمنين ان يشتهوا مع الفيلسوف المتقدم ذكره ان يروا
الناس مشنوقين فيجب عليهم ان يشتهوا استئصال شأفة الالمهم الردية

الفصل الثامن

في ان الانسان دني لكونه زمنياً

ان تكلمنا عن الانسان لا بالنظر الى نقائصه بل بالنظر الى طبيعته
فقط فما هو . ما الانسان وهو زمني . قال سينيكا الفيلسوف : الانسان
اناء قابل الانكسار سريع العطب . وقد احسن البابا اينوشنسيوس في
كتابه الاول عن احتقار العالم اذ قال : اني تأملت في شان الانسان
وانا متأسف بالك لارى مما جُبل وما يصنع الان وما سوف يكون فيما
بعد . فاذا هو قد أخذ من الارض وحُبل به بالخطيئة وولد للتعب
والعذاب . ويفعل ما لا يجوز ولا يليق ولا يفيد . فتراه يعمل سوءاً
وقبحاً ويعتمد الباطل وهو سوف يكون ما كلاً للدود وطعاماً للنار ومادة
للفساد . (آه)

ولعمري ليس الانسان شيئاً حقيراً من حيث جسده فقط حياً
كان او ميتاً بل من حيث نفسه ايضاً . لانه وان كان النفس جوهرًا
شريفًا جدًّا فمن حيث ان اتجاهاها مع الجسد يخضعها للرذائل فتصبح
مهانة ومستكرهة اكثر من الجسد نفسه . وليس فقط حين تكون
ميتة بالخطيئة المميتة وتكون في اعين الملكة اكثر فسادًا ونتاجة من

جثة نجسوسة في التراب من ثمانية ايام . لان جثة كذا ان كانت مملوءة
دوداً فهذه النفس مسكونة من الشياطين . بل حال هذه النفس اتن
واكره من حال الجثة المذكورة حينما تكون حية ايضاً متزهة عن
الخطيئة الميئة لان الخطايا العرضية والنقائص التي تتدنس بها وان
كانت لا تميئها فانها تصيرها اكثر ضعفاً وكرهية من جثة . وبهذا
الصدد قد ذكر عن المرأة الجزيلة الفضل سانسيا كاريليا عروس السيد
المسيح انها بعد ارتقائها الى كمال عجب طلبت الى عروسها الالهي ان
يريهانفسها وكان قصدها بذلك ان تحركها مشاهدتها سماجة ذنوبها أشد حثاً
على مقبتها . فاجاب رب المجد الى طلبتها . فاتفق يوماً انها شاهدت شيئاً
ناسكاً مجتازاً امام باب بيتها . فسألته قائلةً ما الذي تطلبه يا ايها الاب
المكرم . فاجابها الشيخ ارفي طرف رداي فتعلي ما أريد . فاجابته سمعاً
وطاعةً وكشفت طرف رداه فراءت طفلةً شنيعة المنظر ووجهها مغطى
بكثرة الذباب والديابير فحملت الطفلة على ذراعيها وقالت ما هذه
يا ابتاه . فاجابها الشيخ انك قد سألت الله ان يريك نفسك فانظري
الان صورتها في هذه الطفلة فهذه حال نفسك قال هذا وغاب
وزالت الرؤيا . اما المرأة العابدة فاستحوز عليها التحير والخوف وخارت
قوتها وتخلبت اعضاؤها واخذها التلق من تأمل صورة نفسها في صورة
تلك الطفلة . وسببت لها هذه المشاهدة خوفاً عظيماً ووجعاً اليماً فكان
قلبا تمزقه حراب . فان كانت هذه العابدة الفاضلة رأت نفسها بوحى الله

في حال هذه الشقاوة . فاذا يقدر ان يفتخر به الانسان الشقي . ولا يجد
في ذاته نظراً الى جسده ونفسه الا شقاء

الفصل التاسع

في ان الاشياء الزمنية ختالة خداعة

فالمخلص من كل ما تقدم ذكره الى الان ان كل ما يزول بزوال الزمن
كذب وخداع وان الاشياء الارضية ليست دنية زائلة فقط بل مملوءة
خداعاً ومخاطر . ولهذا نرى المرأة الزانية الرموز بها الى النجاح العالمي
المقول عنها في الفصل السابع عشر من سفر الرؤيا . انها ظهرت راكبة
على الوحش المعبر به عن هذا العالم وكانت ملتحفة بنحاس يخال
لنناظر ذهباً . فكما انه توجد منازل قد شيدت بصناعة واتقان وعلى
حيطانها صور تبين بهية اذا أضأ عليها نور من كوة صغيرة و اذا فتحت
طاقاتها وابوابها واشرق فيها النور من كل جهة فيحند يضحل كل بهاها
فلا يرى منها الا اثر خفيف . كذلك الاشياء العالمية لان الذين يعرفون
الاشياء السماوية قليلاً لاجل ضعف النور الروحي الموجود فيهم تظهر
لهم الاشياء العالمية عظيمة وبهية جداً فيخندعون بها . اما الذين يضي لهم
نور الايمان الحي فلا يجدون فيها جوهر البهاء والجودة . بل انما يجدون
فيها اثر ذلك وظله . فالنجاح العالمي يعد بالخيرات ويعطي الشرور . يعد
بالراحة والطمأنينة ويعطي التعب والسجس . يعد بالفرح والتنعم ويعطي
الحزن والمخاطر والعذاب . وقد يشبه الظل الذي كلما طال وعلا قرب

من الانتهاء والزوال . فهكذا النجاح العالمي كلما تسامى علواً أقرب من
 الزوال اكثر قرباً . فإهو اذا هذا النجاح الذي قبل انتهائه لا يجدي
 قلب من يمتلكه هدواً وراحة . فهل من حال تبين اسعد من حال من
 يكون ملكاً وفيها قال الملك قسطنطين الكبير انها أشرف من عيشة
 الرعاة يسيراً واتعب منها كثيراً . وقد دعاها الفسوس ملك نابولي
 حياة حمار وذلك لاجل جسامته ثقل حملها . ومن ثم حسناً قيل في سفر
 ايوب ان الجبارة ينوحون من تحت المياه . وقد فهم البرتوس الكبير
 بالجبارة أقوياء الارض الذين تهطل على ظهورهم مياه الابعاب
 المتفائمة وداود الملك نفسه أقر عن ذاته انه كبهيمة تخور قوتها تحت
 ثقل الحمل

وقد خبرونا عن انتيغونوس ملك مكدونيا . انه لما أقيم ملكاً خاطب
 الاكليل قائلاً . يا ايها الاكليل الشريف حقاً لست سعيداً لانه
 لو تعلم الناس كم تحمل من المخاطر والابعاب لما كان احد يرفعك من على
 الارض ويضعك على رأسه كما أظن . ولعمري ما من أحد من الملوك
 تمتع بخيرات هذه الحياة وكان يرجوا ان يشبع نفسه بكثرتها نظير سليمان
 الحكيم . لانه كان له من النساء الحسان الف امرأة منها سبعائة ملكة
 وثلاثائة سرية . وقد عمر قصوراً ونصب رياضاً وبساتين للصيد والتزهر
 وكان له أناس يطر بونه بالالات الموسيقية والاصوات الرخيمة الشجية .
 وأما ما كان من خدام بلاطه فلم يرقط مثل ذلك من الكثرة واللطف

والنظام . حتى ان ملكة سابا اندهشت من ذلك ومن عظمة مجد بلاطه الذي لم يكن له مثل قط في اسرائيل وكان له من الخيل اربعون الفاً مزينة بافخر زينة . اما كنوز الفضة والذهب التي خلفها له داود ابوه فكانت اكثر من كنوز داريوس عشرين اضع على حساب المعلم دوداوس . واقول بالاجمال ان سليمان حصل على سعادة عالمية هذا عظم مقدارها حتى انه هو عينه اندهل منها فقال هكذا من غني ومتلذذ بالتنعم نظيري . ومع هذا جميعه فلما قدر هذه السعادة حق قدرها قال : انها بكيتها باطلة مملوءة تعباً وشقاءً بل ضجر منها وكان يجسد عيشة القلاح والفاعل ويفضل خبزها الناشف على كل اطعمة ولائمه الملوكة . فان كان وفور الغنى واللذات قد خدع مثل هذا الملك الحكيم فمن تراه لا يتخذ ويقع في حبال غرورها

الفصل العاشر

في اخطار الاشياء الزمنية وضررها

ولعمري انه لقد كان الامر اقل شراً لو يكون حب الخيرات الزمنية ختالاً وخذاعاً فقط اعني لو كنا لانصيب منها ما نرغبه ولا يغشانا ما نخشاه ونهرب منه . غير ان الامر بخلاف ذلك لانه ما عدا انه ليس في الخيرات الزمنية عسل فانه يوجد فيها سم قاتل . فانظر الى ابيشالوم المتفخر بشعره الذهبي تعلم ان ما كان يزدهي به صار هو نفسه حبلاً شتى به . فكم من اناس يجبون الان على هذا النحو غني سوف يسبب

لهم الموت . فلا يكفي إذا ان نعدّ الخيرات الزمنية باطلة فقط بل ينبغي ان نحسبها ختالة قاتلة ايضاً . وقد أصاب اشعيا و حزقيال النبيان بتشبيهما مصر الرموز بها الى العالم وخيراته بالقصة التي اذا توكل عليها احد تنكسر حالاً وتجرح يده (اشعيا ٤٩ : ٦) . فهذه الخيرات تصير حياة صاحبها موتاً . وحاله كحال من هو في جهنم لكثرة الهم والنغم والسبجس والتعب والحزن والضيق والضجر وغير ذلك من الشرور التي تخالط اغبط حال واعظم سعادة عالمية . ولذلك قيل في سفر الرؤيا ان الموت والحجيم طُرُحا في بحيرة نار (رؤيا ٢٠ : ١٤) . لان حياة الخاطي التي يعبر عنها الرسول الحبيب في هذا النص بموتٍ وحجيم هي زمعة ان تلقي في حجيم اخر . لان الخاطي ينتقل من حجيم هذه الحياة الزمني الى حجيم العذاب الابدي . وحقاً انه امرٌ عجيب ان الذي يتمتع بالذات الارضية لا يشعر بلذة . وانه في وسط التنعم يجد الحجيم ويتعذب فيما بين الافراح لانه ليس بعجب الا يجد الخاطي سروراً في جهنم حيث ليس الاشر وعذاب . واعجب منه انه لا يجد سروراً في هذه الحياة بين هذه الخيرات الزمنية . فيا لسوء حال هذه الافراح الارضية التي لا تجدي من ينالها فرحاً والله تعالى يظهر في ذلك حكمة عنايته . لانه كما ان القديسين الذين احتقروا كل شيء زمني اصابوا افراح السماء في وسط العذابات كالقديس لورنسيوس الذي وجد فردوس النعيم في وسط الجمر المتقدم . هكذا الخاطي الذي لا يجب ولا يستعظم سوى الخير

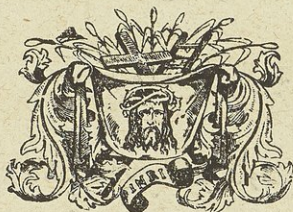
الزمني . يجد مرارة الموت في عين لذة هذه الحياة

بيد ان اوفر الامور شرّاً هو ان خيرات هذه الحياة تسومنا شرّاً
العقاب في الحياة المستقبلية . وحسناً قال القديس ايرونيوس . انه لصعب
جداً ان يتمتع الانسان بالخيرات الحاضرة والمستقبلية . وان ينتقل من
الافراح الزمنية الى الافراح الدائمة الابدية وان يكون معتبراً ومكرماً
هنا وهناك . لان الذي جعل سعادته في التعم فلا ريب انه يحول منه
الى العقاب . والذي تكرمه الناس الان باطلاً وبغير استحقاق فانه
سيحقر بعدل . وقد افصح جيداً عن هذا المعنى القديس فينسنتيوس
فراريوس في مثل الباشق والدجاجة . لانه ما اعظم الفرق بين حياة
هذين الطائرين وموتهما . كذلك فرق عظيم بين الاغنياء المتعممين
وبين الذين مجدوا الخيرات الزمنية حباً بالسيد المسيح . فالدجاجة تعيش
على المزبلة وتقتات مما فيها او من قليل من النخالة . اما الباشق فانه
يحمل على الايدي وياكل من لحوم الطيور . ولكن بعد موتهما
يجري الامر بالعكس لان الباشق اذا مات يلقى على المزابل اما الدجاجة
فتوضع على موائد الملوك . فكما ان يعقوب اسرايل لما بارك افرام ومنسى
غير وضع يديه الطبيعي فمد يمينه على منسى الابن الصغير الواقف من عن
يساره وشماله على افرام الابن البكر الواقف من عن يمينه مؤثراً
الصغير على الكبير ومفضله على النحو المذكور . فهكذا يغير الله وضع يديه
في ساعة الموت فيمنح التقدم الى الصغار المساكين المهانين في هذه

الحياة . ولذلك قال سيدنا يسوع المسيح الويل لكم ايها الاغنياء لان فرحكم
سيبدل بالبكاء الويل لكم ايها الشباع لانكم ستجوعون . الويل لمن ابنتي
هنا فردوسه فانه سيجد هناك جحيمه . فانرهبن مما قيل لذلك الغني البخيل
انك لقد قبلت خيراتك في حياتك . فلانه حاز الخيرات الزمنية ادركته
الشروور الابدية . وقد خالف الله مديديه بينه وبين لعازر المسكين اي
بدل حال هذا وذاك . فالغني الذي كان يعلل بشرب الحمرة العطرة الجيدة
لم يجد بعد موته من يقدم له قطرة من الماء . اما لعازر المسكين الذي
لم يكن ينال فتات مائدة الغني فقد تنعم بعد موته بالملاذ على مائدة
سماوية اعني بالحياة والسعادة الابدية قال ارميا النبي : ان نبوزردان
النقيب سبي اغنياء اسرائيل وساقهم الى بابل وترك الفقراء في اورشليم
(ارميا ٥٢ : ١٥) . فكذلك يصنع الشيطان فانه يسوق محبي الغنى الى
بابل اعني الى بابل بلايا الحميم . ويترك المساكين بالروح في اورشليم
التي تاويلها رؤيا السلام بمشاهدة الله في السماء

فتمد اتضح من جميع ما اوردنا انه يجب علينا جدا ان نحتقر
الخيرات الزمنية بل ان نبغضها ايضا لكونها خادعة خداعا جزيلا
الضرر ومن ثم مضرة جدا . لانها تغرينا على خسران حسن سلامة
هذه الحياة بل سعادة الحياة المستقبلية ايضا فنفقد الله عينه . فابغض
امرأة فاضلة عفيفة لرجل فمفسد ياتيها مترديا باثواب زوجها ليغيرها
بظاهر الخداع على الحنا والنحشاء . فباعظم من هذه البغضاء يجب ان

نغض ونقصد الخيرات الزمنية التي تترأى لنا بشكل خيرات حقيقية
 لكي تفسد قلوبنا وتحملنا على ان تبين عروسها وخيرها الحقيقي الذي
 هو الله سبحانه وتعالى عن كل نقص



المقالة الرابعة

في الفرق بين الزمني والابدئي
من حيث عظمة الخيرات والشروع الابدية وهي
اثنا عشر فصلاً

الفصل الاول

في عظمة الاشياء الابدية

انه وان كانت الاشياء الزمنية حقيرة ودنية جداً نظراً الى ذاتها
كما اوضحنا ذلك بما تقدم فحساستها تظهر جلياً بمقابلتها الى عظمة الاشياء
الابدية التي نشرع الان بالخطاب عنها . فاعتبر ان عظمة المجد الابدئي
جزيلة بهذا المقدار حتى ان القديس اغستينوس قال : انه لو الترمنا
بان نقاسي اشد العذابات . بل لولزمنا احتمال عذاب جهنم عينه زماناً
مديداً لكي نشاهد سيدنا يسوع المسيح في مجده ونشرك قديسيه في
سعادتهم لسكان يجب علينا ان نحتمل ذلك لكي نحظى بهذا الخير الجسيم
والمجد الوسيم . فهذي هي عظمة الخيرات الابدية لا بالنظر الى كونها
ابدية فقط بل بالنظر الى عظمتها الغير المحدودة ايضاً . ومن ذلك ينتج ان
التمتع بها ولو قصيراً جداً حقيق ان نختار عذاباً عظيماً ونحتمله الف سنة

لكي نفوز به ونحظى بالخيرات الابدية ولو يوماً واحداً. وفي هذا قال
 القديس المتقدم ذكره ان جمال العدل وبهجة النور الابدي خير
 عظيم جداً حتى لو كان لنا ان نتمتع به مدة يوم واحد فقط لوجب علينا
 لذلك ان نزدري بالتمتع بجميع خيرات هذا العالم ولذاته باسرها

خبرونا عن القديس يوردانوس رئيس رهبنة القديس دومينيكوس
 العام انه اذ كان يوماً يقسم على الشيطان سألَهُ قائلاً: الى اين تشتهي
 ان تنطلق. واي مكان تؤثره على كل شيء. فاجابه السماء. فقال له
 القديس وماذا تهوى السماء. فاجاب لكي اشاهد وجه الله. فقال له
 القديس. وما الذي كنت تفعله او تحتمله لكي تعين الله. اجابه العين
 اني ابصرته دقيقة واحدة من الزمن ولكي ابصره دقيقة اخرى فاراضي
 بسرور ان اكابد الى يوم الدينونة جميع عذابات رقباءي. فاندهل
 القديس متحيراً. ثم قال له بعد ذلك حسناً ما قلت واني اريد منك ان
 تورد لنا رسم البهاء الالهي بشبه ما. فاجابه الشقي قائلاً: ان سؤالك هذا
 هو عين الجهل. لانه لو جمعت كل بهاء الخلائق. وكان نور كل نجم
 كنور الشمس. ونور الشمس كنور جميع النجوم جملة. ثم جمعت هذا
 النور والبهاء جميعه. لكان ذلك بالنسبة الى جمال الله كليله مدلهمة بالنسبة
 الى النهار الاوفر ضياءً. فهذا ما أقرب به الرجيم معترفاً. مع انه يجب ان
 تعلم ان الشيطان لم يبصر الله قط بالنوع الذي به تعينه الان الملكة
 في المجد الابدي. بل انما شاهد الله مشاهدة غير كاملة. وذلك بدقيقة

واحدة كمن يذوق يسيراً من شيء على سبيل الاختبار . ومع هذا فقد تمنى ان يقاسي عذابات جهنم بمدة هذا عظم مقدارها ليتتع بمشاهدته تعالى بدقيقة اخرى من الزمن على ذلك النوع الغير السكامل . فاذا تكون اذا مشاهدته تعالى بكمال الوضوح الى ابد الابد

ثم يجب ان نعتبر ما قد لحظه القديس السلس . وهو ان خيرات هذه الحياة وشروطها تختلف عن خيرات الحياة المستقبلية وشروطها . وذلك لان الخيرات والشروط الحاضرة ليست بخيرات محضة ولا بشروط محضة من حيث ان خيرات هذه الحياة ناقصة ممتزجة بشروط كثيرة وشروط هذه الحياة خفيفة لانها ممتزجة بخير ما . اما خيرات المجد الابدى في الحياة المستقبلية فهي خيرات محضة عظيمة غير ممتزجة بشروط . ومن ثم لا يمكن احداً ان يضجر منها . وكذلك الشرور الابدية في جهنم هي شرور محضة غير ممتزجة بخير وليس لها من علاج ومن ثم فلا تطاق . قال المرتل ان الله ابعد عنا سيئاتنا كبعد المشرق من المغرب وقد يمكننا ان نقول ايضاً انه تعالى ابعد عن القديسين الالم والعذاب كبعد المشرق من المغرب . ولعمري ان هذا البعد الروحي بعد الخيرات الابدية هو اوسع بغير قياس من البعد الجسمي الذي بين السماء والارض . الا انه لكي نتصور ذلك ونفهمه على نوع من الانواع فتكلم قليلاً عن هذا البعد الحسي لكي نعلم باي مقدار تفوق خيرات السماء خيرات الارض قال المعلم الفلكي الجليل كلافوس اليسوعي . ان فلك القمر الذي هو

أوطأ الافلاك جميعها مسافة يبعد عن كرة الارض مائة وثمانين الف ميل .
 وانه لو يلقى حجر الرحي من الفلك الثامن الذي هو أعلى الافلاك ودون
 السماء العليا مسكن الملكة والقديسين لا يصل الى الارض الا بعد
 تسعين سنة . مع ان الحجر يتقطع في كل ساعة مائتي ميل . وقد زعم آخرون
 من العلماء الفلكيين واللاهوتيين ان بعد الارض عن الفلك الثامن هو
 أقل كثيراً من بعد هذه السماء عن السماء العليا مسكن الطوباويين .
 ومن ذلك ينتجون انه لو يعيش احد النبي سنة ويمشي كل يوم مائة ميل لم
 يصل بعد النبي سنة الى ادنى سماء النجوم . واذا مشى هكذا النبي سنة
 أخرى لم يقطع سُمك هذه السماء واذا مشى بعد ذلك على النحو المذكور
 اربعة الاف سنة أخرى لم يصل الى ادنى سماء الملكة والقديسين .
 فيا لقدرة الهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي يسيرنا هذه المسافة الشاسعة
 بدقيقة واحدة من الزمن

فهذا الفكر عينه كان يعزي ويشجع تلك المرأة الشريفة التي
 أستشهدت في بلاد الانكليز . لانه بعد ان وضعوها على حجر رفيع
 وجعلوا فوق صدرها حجراً ثقيلاً جداً ورأت قوماً من الحاضرين
 يرثون لها قات لهم : لم تحزنون عليّ وانا مزعومة بعد زمن وجيز ان ارتقي
 فوق القمر والشمس وادوس برجلي النجوم والحج سماء السموات وطن الملكة
 والقديسين . فاذا تقر ذلك نقول : انه بمقدار هذا البعد الكائن بين السماء
 والارض يكون بعد الخيرات السماوية عن الخيرات الارضية . فيا لغباوة

الذين يبدلون اتساع السماء الغير الموصوف بشبر من الارض . ومن
أجل خير جزئي وقتي يعدمون لذات عظيمة ابدية
وهكذا اذا ما قابلنا شرور هذا العالم وبلاياه مع عظمة الخيرات
الابدية فنجدها كلاشي . . خبرنا القديس انطونيوس اسقف مدينة
فلورنسا عن رجل شرير افتقده الله بمرض مستطيل ليردهُ به الى طريق
الخلاص . فاستقل الرجل المذكور اطالة مرضه ووجده غير محتمل
ولذلك بعد تقدمه التوبة عن خطاياهُ طالب من الله مرات كثيرة ان
يخرجهُ من سجن جسده . فقرأى له ملك وخيرهُ من لدن الله بين شيئين
يتمنى منهما ما يشاء اما ان يمكث سنتين ايضا في هذا المرض واما ان
يموت حالا ويلبث في المطهر ثلاثة ايام . فاخذ المريض التائب يقابل ثلاثة
ايام في المطهر مع سنتين في حال مرضه الأليم الذي كان قد ضجر منه
جدا فرأى ان يختار الثلاثة الايام في المطهر ولا يبقى سنتين طريحا على
فراشه متمللا على نار اوجاعه . فتوفي حالا وانحدرت روحه الى المطهر .
فلما انقضت عليه ساعة واحدة ظهر له ملك الرب يعزيه . ثم بعد التعزية
قال له اما تعرفني فاجابهُ ذاك كلالا لست اعرفك . فقال له الملك اأنت
انا الملك الذي أرسل اليك من الله لتختار بين ان تتعذب هنا ثلاثة ايام
او تبقى على فراشك في حال اوجاعك سنتين : فاجابهُ ذلك الحزين
المسكين انه لمن المستحيل ان تكون انت ملكا سماويا لان الملك لا يكذب
وانت قد كذبت بقولك لي اني لا امكث في هذا السجن سوى ثلاثة

أيام فقط . وها ان لي في هذا العذاب اكثر من سنة ولم ينته : فقال له
 الملك . اعلم انه ليس لك ها هنا اكثر من ساعة واحدة وجسدك لم يبرد
 بعد ولم يقبر . فحينئذ أخذ يتوسل اليه الرجل المعذب قائلاً . فسل اذا
 يا مولاي الله ان يصفح عن جهلي الذي به اخترت هذه الحال واستمع لي
 من مراحم ان يردي الى الحياة لاحتمل مرضي لامدة سنتين فقط بل
 طالما يشاء هو عز وجل . فقبل الله طلبته وبعثه من موته واعاده حياً .
 فصار يرى جميع اوجاع الحياة خفيفة يسيرة بالنسبة الى ما اختبره من
 عذاب المطهر ولم يكن يحتملها بصبر فقط بل بسرور وابتهاج ايضاً . فان
 كانت هذه حال عذاب المطهر فاذا يكون عذاب جهنم . وان كانت
 ساعة واحدة من عذاب المطهر تبين كسنة تحوى اكثر من ثمانية الاف
 ساعة . فلا شك في ان ابدية عذاب جهنم تبين كثمانية الاف ابدية
 فاعلى لذات هذا العالم الحسية الوجيزة التي توازي هذا العذاب
 المستطيل وما أخف العذابات الارضية واقصرها فهي كاشيء
 بالنسبة الى العذابات الابدية

الفصل الثاني

في عظمة شرف القديسين وكرامهم الابدي

نعتبرن الان على وجه الخصوص عظمة خيرات الحياة المستقبلية
 التي تتناول كل نوع من الغنى والكرامات واللذات اللانقة بالنفس
 والجسد . ولنبتدين بالحطاب عن الاكرام الذي كثيراً ما ترغبه

الحلائق الناطقة والذي وعده السيد المسيح الذين يحبون الان الاتضاع
 قائلاً: من يغلب فانا أعطيه المنّ الحنفي وأعطيه حصاً أبيض مكتوباً فيه
 اسم جديد لا يعرفه إلا من يأخذه (رؤيا ٢: ١٧). فياله من مجدٍ عظيم
 قد ذكر عن سابور ملك الفرس انه كان يميل الى الشرف والاكرام
 بافراط الحب حتى انه دعا نفسه اخا القمرين وسليل الكواكب. وشاد
 له قصرًا رفيعاً من بلور بشكل كرة سخمة فيها من دقيق الصناعة والفن
 حتى اذا جلس على هذه الكرة كانت الشمس والقمر والكواكب
 المصوّرة هناك تبرز من تحت رجليه وتستدير حول رأسه شبه إكليل
 منير. وقد احتسب هذا الاكليل المصنوع من صورة السماء اكراماً
 عظيماً ومجداً جسيماً. فاذا يكون اذا اكرام القديسين العتيدين ان يجلسوا
 حقاً على الشمس والكواكب بل على منبر ابن الله عينه ويمدحون لامن
 البشر فقط بل من الملكة ورب الملكة ايضاً

خبرنا كليميخوس الاسكندري انه كان في بلاد الفرس ثلاثة جبال فمن
 كان يبلغ الى الجبل الاول يسمع صوت قعقة سلاح اناس محاربين. ومن
 يبلغ الى الجبل الثاني كان يسمع ذلك باوضح بيان. اما الذي يصل الى
 الجبل الثالث فلم يكن يسمع سوى اصوات الابتهاج وتراتيل نشائد
 الافراح وتنهاني الانتصار. فهذا ما يجري في شان الابرار لانهم يجوزون
 ثلاثة جبال سرية رمزية اعني بها العقل النطقي والنعمة والمجد السموي.
 فالذي يبلغ الادراك يشعر بحرب الرذائل فيحاربها بالنعمة ويظفر بها. واذا

بلغ المجد السموي فيسمع اصوات الفرح وتراتيل التهناني والانتصار ويتوج
 باكليل ثمين جزييل الاعتبار. ولعمري ان الجلبوس مع الملك على مائدته
 شرف عظيم ومجدٌ جسيم غير انه لم يسمع قط ان ملكاً خدم عبده . بل
 لم يخطر هذا لبشر ببال . ولذلك حسناً قال المرتل ان اصدقاء الرب
 مكرمون جداً (مز ١٣٨ : ١٧) . وهذا النبي والملك نفسه قد ظنَّ بانه قد
 شرف مفيبوشت شرفاً عظيماً اذ اجلسه على مائدته . مع ان مفيبوشت كان
 من نسب ملوكي وابن يوناتان الذي به كان قد نجا داود من الموت .
 وهامان الذي لم ير على الارض اكثر منه تكبراً قد ظنَّ انه لا يمكن ان
 يشرفه احشورش الملك بشيء اعظم من ان يأمر الاكبر قدراً في
 اهل دولته بان يمسك بلجام فرسه حينما يركب ويمشي امامه هكذا
 في المدينة وهو راكبٌ على جواد الملك . الا انه لم يخطر بباله ان يمسك
 الملك نفسه بلجام جواده . اما الاكرام الذي به يشرف الله قديسه
 فيفوق عقل كل بشر لانه بعد تكليله اياهم بمجد لاهوته . وبعد ان يكون
 منحهم ذاته ليحظوا به عزَّ وجلَّ يكرم ايضاً محاسنهم وانتصاراتهم باكرام
 فائق

فقد ذكر المعلم توما الكانتيري عن اسكندر بن ملك سوكوسيا .
 انه ظهر لراهب متوجاً بتاجين فلما سئل عن سبب ذلك اجاب ان التاج
 الذي على رأسي هو التاج المشاع لكل من القديسين . اما التاج الاخر
 الذي في يدي فهو ثواب لتركي ملكي الزمني لاجل السيد المسيح .

هكذا الشهداء والعذارى والمعلمون فانهم يزهرون باكاليل خصوصية
والاعضاء التي بها يمجدون الله بعبادة خصوصية تتشرف بمجدٍ خصوصي .
فباي مجدٍ يزهر جسد القديس استفانوس اذ ينبعث من كل جزء من
اجزائه التي رجعت بالحجارة اشعة نور خصوصي يدهش العقول . وما
امجد ما يكون النور الذي يتردى به القديس برتولماوس الرسول لاجل
سلخ جلده حباً بالسيد المسيح . وباي نور ساطع تشرق اعضاء القديس
يعقوب الذي قطع جسده ارباً ارباً بل المعترفون ايضاً تستضيء اعضاؤهم
التي مارسوا بها تقشفات خصوصية

قد ذكر عن القديسة متيلدا . ان القديس يوحنا الانجيلي
ظهر لها وعيناهُ بهتان مزهرتان بنور وبهاء عجيب . وذلك لانه لم يحسر
قط ان يرفع نظره الى وجه الجليلة مريم لجزيل احترامه اياها . فاعظمتك
يا ايها الكرامات الغير المعرضة للخطر ولا للزمن والغير المتعلقة بارادة
البشر انك ستدومين غير محوطة الى الابد . فالذي يمجد هنا اجساد
القديسين مجداً عظيماً ترى كيف يمجد انفسهم في السماء . ما اكثر المعجزات
التي صنعها ويصنعها بواسطة ذخائرهم

خبرنا القديس يوحنا الذهبي الفم عن القديسين يوفنسيوس
ومكسيوس . انه كان ينبعث من ذخائرهما نور عجيب لم يقدر احد ان
يحتمل مشاهدته . وقد اخبر القديس سوليبيوس عن القديس مرتينوس
ان جسده بعد موته حصل على حال جسد موجد لان لحمه ظهر مضياً

كالبلور وفضل بياضاً من الثلج . وما اكثر العجائب التي صنعها الله
 بجسدي القديس ادواردوس والقديس فرنسيس كسافاريوس اللذين
 حفظهما من الفساد . فان كان الله يصنع هكذا مع اجساد عباده
 الموضوعه تحت الثرى فاذا يفعل بانفسهم التي ادخلها الى السماء . وما
 سوف يصنع مع اجسادهم وانفسهم معا حينما تتحد في يوم الدينونة
 وتدخل منتصرة الى مدينة الله المقدسة الابدية

الفصل الثالث

في غنى السماء ومملكه الابدي

ان غنى الملكوت السموي يضا هي مجده . وقد افصح لنا عنه السيد
 المسيح بامثال وتشايه كثيرة . لانه جل ذكره دعاه كنزاً خفياً ولؤلؤاً
 كثير الثمن ومبلغاً عظيماً من المال . ولعمري انه ان كانت سعادة القديسين
 قائمة بالتمتع بالله الى الابد . فلا ريب انه ما من كنز يضا هي هذا الكنز
 ولا امتلاك أعظم واغنى من هذا الامتلاك اي من امتلاك الانسان الله
 سبحانه . لانه اية وراثه اكثر ثمناً من ميراث السماء واما ذهب انق من
 خالق الذهب وهو يقدم لنا كل غنى ذاته لئلا نمتلكه وذلك لئلا نعكف
 على امتلاك خيرات الارض الدنية المضنية السريعة الزوال

ثم ما عدا هذا الغنى العظيم الذي هو الله . فغنى الملكوت عينه لعظيم
 جداً حتى انه به وحده يصبح كل قديس ملكاً عظيماً . وقد قال العلماء
 القليكون عن اتساع السماء . انه لو يعطي الله كل قديس جزءاً منها يساوي

اتساع الارض كلها لبقى منها ما يكفي لغيرهم كثيرين . وقد زعم بعض المعلمين
 اللاهوتيين . انه لو جعل الله كلاً من حبوب الرمل الذي على شاطئ
 البحار عظمة ككرة الارض لم يكن هذا الرمل كله كافياً لان يملاً وسع
 السماء الذي تسعه المدينة السعيدة العليا المبنية كلها من ذهب
 وجواهر كريمة . وابوابها جميعها من لؤلؤ عجيب ومادة اسوارها من حجر
 الياصب والياقوت الازرق والنجادي والزررد والعقيق والياقوت الاحمر
 والمها والبلور والياقوت الاصفر والزرجد والاسمانجوني والكرهن . كما
 قيل في الكتاب المقدس (رؤيا ٢١ : ٢٠)

خبرونا عن القديس فرنسيس انه اعتراه وجع عظيم في عينيه حرمة
 لذة النوم . واطاف الشيطان الى الامه تجاربه له فانه املاً حجرة فاراً . اما
 القديس فكان يشكر الله على ذلك بصبر عجيب لانه تعالى ارتضى ان
 يلوه برحمته قال : يا سيدي يسوع المسيح اني مستحق عذاباً اعظم من
 هذا . فلذلك اسالك شيئاً واحداً الاغير وهو الاتسمح بان تبعدني التجربة
 عنك . فحينئذ سمع صوتاً من السماء يقول له يا فرنسيس : انه لو تكون
 الارض كلها ذهباً صافياً والانهر جميعها بسمماً والجبال والقصور باسرها
 ماساً . اما كنت تحسب هذا كنزاً عظيماً . فاعلم ان الكنز المذخر
 عندي في السماء يفضل على ذلك كما يفضل الذهب على الطين والبلسم
 على الماء والملس على التراب . فقد اصاب اذاً القديس فوجنسيوس الذي
 لما دخل رومة وتقرس بغطائها وجلال بها انها صرخ قائلاً : ان كانت

رومة الارضية هكذا منخمة بهية . فاذا يكون حسن بها جمال اورشليم
السموية

فهذا الغنى الذي ليس له نُظير ولا مثيل يصير لكل قديس ملكاً .
ولا تكون السماء ملكاً لجميع القديسين معاً فقط بل كلٌّ منهم يمتلكها
كلها ايضاً . وذلك كما ان الشمس التي تسخن كل ما تحتها معاً تسخن كلاً
منها على حدة حتى كنها لاجله وحده . اما مفعولات الغنى السموي
فانها اَجَلٌ واشرف جداً من مفعولات الغنى الارضي . لان الغنى الارضي
لا يفيد الا لاكتساب الاقتدار واللذات والكرامات . والحال ان
كل الذهب الموجود على الارض لا يقدر ان يعصم هذه الاشياء عن
الضعف والاهانة والتعب الجزيل

قال واحد لقبوس الثاني ملك اسبانيا : اذا امرت حضرتك قوم
مرؤسيك بشيء فاجابك الجميع قائلين لانطيعك ولا ندعن لاوامرك .
فا الذي كنت تفعله . قال هذا مشيراً به الى ان اقتدار الملك متعلق بارادة
الغير . فاما اقتدار القديسين في السماء فليس بمتعلق بمقدرة اخر . وهو عظيم
بهذا المقدار حتى قال القديس انلس انه ما من مضاد يقوى على مقاومته
فلو اراد احد القديسين السمويين ان ينقل جبلاً من مكان الى اخر
تفعل ذلك باوفر سهولة واكثر سرعة مما تحرك نحن حذقة عيننا . ثم ان
كرامة القديسين عظيمة جداً حتى ان الشياطين انفسهم يكرمونهم .
اما لذاتهم فلا يشوبها نقص من غم او هم ومن المحقق عندنا الان

ان الكرامة والنعمة واللذة لا يجمع بينها الا في ما ندر جداً . بل يغلب ان تنافي
احداها الاخرى فالدواء المفيد نجدهُ مرّاً واللذة تسبب الهوان وبالكد
الكلي يقترب الاكرام بالنعمة . اما في السماء فالامر بخلاف ذلك .
حيث ان الغنى الابدي يحوى هذه كلها ويجمع بينها فيجعل ما يفيد لذة
تتولد منه الكرامة وما يسبب كرامة مفيداً ونافعاً

الفصل الرابع

في عظمة الافراح الدائمة

اعلم ان فرح القديسين الطوباويين الاخص هو الحظوى بالله
لانه كما ان النعمة واللذة والكرامة في السماء لا ينفصل بعضها من بعض
بل تكون مقترنة على الدوام . فهكذا النفس الطوباوية لها ثلث صفات
غير قابلة الانفصال بعضها من بعض . وقد تقتضيها حال هذه النفس
اقتضاءً لازماً . وهذه الصفات تضاهي الثلثة الخيرات المتقدم ذكرها .
فالصفة الاولى هي مشاهدة الله اياناً وبها يكال الله استحقاقات ابراره .
ولعمري ان تكاليل فضائل الابرار الذي يكون امام الملكة ونيلمهم هذا
الثواب الجسيم الذي يساوي ثمنه عظمة الله . هو اكرام لاحدله ولا قياس .
والصفة الثانية هي حظوة النفس السعيدة بالله كانه غناها وميراثها .
والصفة الثالثة هي الفرح الغير المدرك المقترن بهذه المشاهدة وهذا
الامتلاك وهذا الفرح الصادر في النفس من المشاهدة الالهية يمتد
الى الجسد ويزينه بصفات شريفة بهية جداً . فياليت جسد احد القديسين

الطوباويين يظهر لنا بصفات مجده العظيم
فاننا نعلم بنوع ما نور النفس التي تزين الجسد بمثل هذا البهاء
العظيم وجزيل سرورها وفرحها . انه ليس في العالم شيء الا يميل
الى الجمال وكلما كان الجمال اوفر عظمة أسدى امتلاكه اوفر
سروراً . والحال ان الجمال الالهي هو الجمال الاعظم وهو عين ما
أحب سخط الله الغير المتاهي ان يشرك فيه الملائكة وانفس المختارين
وان كانت طبيعتهم لا تقتضي ذلك . ثم بقدر ما يكون الموضوع الملد
المتحد بالقوة المالكة اياه أشد اتحاداً . بقدر ذلك تكون اللذة الصادرة
عنه اوفر عظمة . والحال ان الله في السماء يتحد بالانس اتحاد التلاثم
والاعتناق الاشد عزماً . ويكون الله الموضوع الافضل لذة . فمن
ثم يكون السرور الناتج عنه يفوق كل ادراك مخلوق بما لا يحده ولا
يقدر . فترى ماذا يكون سرور النفس المتمتعة بجمال الخائق وبجميع
كلماته . فان كان يعقوب اب الالباء قد اعد رق خدمته مدة اربع
عشرة سنة شيئاً يسيراً لحصوله بها على جمال راحيل . فاي تعب
يتبين لنا عظيماً ان كنا نبلغ الى الحظوى بالله الذي ينو لجماله اعظم
جمال مخلوق بل ليس الا بشاعة شنة

فقد كان ابيشالوم وادونيا حسني المنظر وكان من يشاهدهما
ينفرج صدره ويتعزى قلبه بمنظرهما . ولكن لو امتثل أمام الناظر
اليهما شخص آخر يفوقهما حسناً وبهاء بعشرة أضعاف أما كان

الناظر يحول نظره حالاً عنهما ليعاين من هو أبهى واجمل منهما . ثم
 إذا ظهر له شخص آخر اوفر حسناً بمائة ضعف عن السابق أما
 كان يصرف نظره ثانيةً عن ذلك ويجدق به الى هذا ويتضاعف فيه
 سروره بقدر تضاعف بهاء الموضوع . والحال ان الله يفوق جماله
 على هذه كلها بما لا يحمد . وجماله مقرون بالحكمة والقدرة والقداسة
 والسخاء والجود وغير ذلك من الكمالات الالهية الغير المحدودة
 عظمتها . فمن ذا الذي يشاهد هذا الموضوع الالهي ولا تسر نفسه
 وتلتهب بمحبة ذات عدو به غير موصوفة . فلو يمن على أحد بان يشاهد
 نوادر الدنيا السبع . او يحضر وليمة أحشوروش الملك وغيره من الملوك
 المعظمين ويتمتع بمتفرجات الرومانيين ويلذ بسماع الانغام الموسيقية
 ويستنشق اشهى الروائح الزكية ويتملك كنوزاً اعظم من كنوز داود .
 اما كان يحسب نفسه سعيداً اذا علم انه يتمتع بجميع هذه الخيرات مدة
 مائة سنة . واذا اُضيف الى ذلك ان يكون اكثر حكمة من سليمان واعلم
 من اريسطو تاليس . واذكى من اياس وافصح من شيشرون واقوى من
 شمشون واجمل من ابيسالوم فما كان أعظم ابتهاجه وعزاه . مع ان هذه
 جميعها اذا ما قابلناها مع المشاهدة الالهية فلا تكون الا بمكانة الرصاص
 والتراب من الذهب والماس . اذ اننا بهذه المشاهدة الالهية نمتلك جميع
 خيرات الخلائق وعظائمها . فنجد فيه تعالى على نوع اكمل جداً كل
 غنى الذهب وضياء الشمس وحلاوة العسل ولذة الانغام الموسيقية

وجميع لذات الحواس

واعلم ان هذا السرور المتولد بالنظر عن هذه المشاهدة الالهية . ليس فوق كل وصف بالنظر الى عظمته فقط بل هو فوق كل ادراك بالنظر الى كثرته ايضاً لانه يكثر بمقدار كثرة النفوس والارواح السموية المتمتع بمشاهدة الله . لان كل واحدٍ من الطوباويين يسرّ ويتهيج سروراً وابتهاجاً خصوصياً من حظوة كل منهم بهذه المشاهدة السعيدة . ولذلك فمن حيث ان عدد القديسين غير محصى ستكون افراح كل منهم غير محصاة . فلنتهجن اذاً نحن المسيحيين المدعويين الى هذه الخيرات العظيمة . ولنتهللن من انه الله تعالى قد خلق السماء لاجلنا ولتتمزّ قلوبنا وتتموّ برجاء هذه الافراح العظيمة

وفي هذا خبرنا الانبا بلاديوس عن الانبا افولوه انه كلما وجد راهباً حزيناً مكتئباً كان يلومه قائلاً : كيف يمكن يا اخي ان نحزن ونكتئب فليحزن اولئك الذين لارجاء لهم بالدخول الى السماء . اما نحن فلا يليق الحزن بنا بعد ان وعدنا السيد المسيح بسعادة المجد الابدي . وقد ذاق ايليا النبي شيئاً من هذا السرور السموي فجعل حالاً على حواسه رداءً وستراً على هامته . وهكذا الانبا سيلوانوس كان عند فروغه من الصلاة يعضّ طرفيه عن النظر الى عظام الارض وكان يعدها غير اهل لان تملك بل لان ترى ايضاً . وذلك بنسبتها الى عظام السماء التي يجب ان نجعل كل سرورنا في رجاء امتلاكها

الفصل الخامس

في شرف اجساد القديسين وكما لها

في الحياة الابدية

انه لما شاء هيرودس اغريبيا ان يظهر عزه ويفتخر بالعجب لبس ثوباً فاخراً
مرصعاً بالذهب والجواهر الكريمة . غير انه لكي يظهر رونقه ولمعانه احتاج
الى شعاع الشمس ولاجل هذا اللعان اليسير دعاه الشعب الهاء . فكيف
اذا يكرم البار في الحياة المزمعة حين يكون لابساً لا ثوباً ذهبياً بل
متوشحاً بالشمس بل بما هو اكثر منها نوراً ولمعاناً . فالذي يجعل خاتم باس
في يده يعد ذلك شرفاً عظيماً . فا اعظم شرف جسد الصديق المتلالي
بلعان غير مستعار بل خاص بجسده ويفوق بهاء كل حجر كريم . فلا
يحتاج الى الشمس التي تفتقر الان اليها حياتنا افتقاراً ضرورياً لانه لا
يظلم ليل على البار بل يكون هونهاراً لذاته . فهل من عزّة اعظم من ان
يكون انسان افضل لمعاناً من الشمس عينها سبع مرات يحمل في ذاته نوراً
لا يعادله نور مصابيح يحملها كل من افراد البشر وهم يرافقونه

ان القديس بولس الرسول لما لح بارق نور منبعث من السيد
المسيح عدم البصر واستوى اعشى بعض ايام (اعمال ٩ : ٨) . والقديس
يوحنا الانجيلي لما رأى نور وجهه تعالى سقط على الارض صعقاً كمت
(رؤيا ١ : ١٧) . ولم يكن جسده القابل الموت يطبق مشاهدة نور
تلك العزة العظيمة . والقديس بطرس هامة الرسل اذ ابصر شعاعاً واحداً

منبعثاً من جسده تعالى يوم التجلي استعظم ذلك جداً واعد ذلك المكان سعيداً حتى أبي العود منه . إلا أنه ليس بعجب ان تظهر هذه الصفة المجيدة في جسد السيد المسيح . بعد ان ظهرت في وجه موسى القابل الموت اذ غطى النور وجهه حتى لم يقدر الشعب الاسرائيلي ان ينظر اليه

خبرنا كيساريوس عن رجل من علماء مدرسة باريس . انه لما دنت ساعة موته طفق يتامل في كيف يستطيع الله ان يصير جسده الحقيير منيراً الامعاً مثل الشمس . فاحب الله ان يعزي عبده ويحقق اعتقاده في حقيقة قيامة الاجساد فافاض من رجليه نوراً عجيباً حتى عاد لا يقدر ان يجتمل النظر اليه . وهذا عجيب حقاً في اجساد قابلة الموت . وهو اعجب جداً في اجساد ميتة . ففي هذه عينها ظهر هذا النور السموي على نوع يدهش العقول كما ظهر في جسد القديسة مرغريتا ابنة ملك اونغاريا وفي جسد غيرها ايضاً . فان كان قد ظهر مثل هذا النور والبهاء في اجساد مجردة من النفس فما اعظم ما يكون ذلك في اجساد القديسين بعد القيامة حينما تكون متحدة بنفس مجيدة ومنتصفة بحياة موبدة . فما يكون نور السماء المركب من جميع هذه الانوار بل من جميع هذه الشمس . وان كان السرور الحاصل من النظر يزداد في كل واحد من القديسين بمقدار عدد الاجساد المنيرة . فما قدر الفرح الواصل اليهم من هذا المنظر البهي

ثم ان القديسين المتوشحين بهذا النور العجيب والممتلئين منه
 يشركونه ايضاً في خواصه . ومن جملة خواص النور الا يقبل التضاد
 وهو لذلك غير قابل الالم والفساد . فهكذا تكون اجساد القديسين
 المجيدة اعني غير قابلة التالم ولا متعرضة الى ما يؤذيها ومن خواص
 النور الخفة والسرعة فليس شيء اكثر منه خفةً وسرعة . ولهذا ترى
 الاجرام الاكثرياً اكثر خفةً وسرعة . فالعنصر ذو العزم الشديد
 في جريه هو عنصر النار المركب من النور وزى الشمس والكواكب
 النيرة أسرع مما في العالم . والنور عينه هو سريع جداً حتى انه في دقيقة
 واحدة من الزمن يمتد ويبلغ الى أقصى حدود دائرته . فهكذا تكون خفة
 الاجساد المجيدة وسرعتها بل تتحرك بسرعة أعظم من سرعة حركة
 الكواكب . ومن خواص النور ان يخرق الاجسام وليس شيء يمنعه
 عن ذلك ولذلك تكون رقة الاجساد المجيدة ودقتها ولطافتها أعظم منه .
 فتخرق وتنفذ أشد الاجرام صلابةً وكثافةً

فتلك الصفات الخاصة بالاجساد المجيدة تنافي شرور هذه
 الحياة جميعها . لان الصفة التي تنزه الجسد عن التالم تدرأ كل ما
 يؤلمنا هنا ويعذبنا . اعني برد الشتاء وحر الصيف وجميع الامراض والوجع
 والاحزان والبكاء واحتياجات الحياة كافة . ولا ريب ان هذا الخير عظيم
 لانه بمجرد ارتفاع اضطرارنا الى الاكل تدفع عنا هموم عديدة . فكم
 يتعب الانسان لاجل حفظ الحياة . فالقلاح يكذب ويتعب في خدمة الارض

والراعي يضطر الى ان يعيش في الفيافي عرضة للحرق والبرد والحادم والمستأجر
يوجهها الامر الى الخدمة والخضوع للناس والغني الى تدبير اموره بهم
وخوف. فما اكثر الاخطار والاعتاب التي يعانها الانسان في كل أمر لكي
يدرك القوت الضروري. اما البارفينجو من هذه كلها بتلك الصفة السعيدة
التي تجعله غير قابل التالم. وهكذا الحاجة الى الكسوة والعافية
الخاضعة لحوادث كثيرة وكوارث متعددة قد يتولد منها هموم واتباب
جزيلة. وقد نجا منها جميعها من هو غير قابل التالم. حتى لو دخل
الجسد المجيد جهنم نفسها لم تحترق منه شعرة واحدة

وهكذا صفة الحفة خير عظيم ويمكن ان نفهم ذلك من جزيل
اتباب من يسافر سفراً مستطيلاً. فأكثر ما يكابد من المخاطر وما
أعظم ما يحتمل من الاتباب في كل مسافة وما انزغز الاشياء التي يحتاج
اليها لحفظ صحته من المرض. فالجسد المجيد يصل بلحظة عين الى حيث
يشاء. ويكون لديه قطع ربوات من المراحل كقطع مسافة صغيرة
او خطوة واحدة. انا لتعجب مما ذكر عن القديس انطونيوس البادواني.
انه بساعات قليلة انتقل من بلاد ايطاليا الى مملكة برتوغاليا لينقذ اباه
الذي كان قد حكم عليه بالموت. ولقد كنا نعد سعادة عظمى ان يمكننا
في مدة ساعة واحدة ان نبصر كل عظام مدينة رومة وفي ساعة أخرى
ان نصل الى القسطنطينية وفي ساعة أخرى الى مصر ومن هناك الى
الهند بمدة ساعة ايضاً. فنشاهد كل عظام المسكونة بزمن وجيز. فإذا

تكون اذًا سعادة القديسين الذين يقدرون بمدة ما وجيزة من الزمن
ان يجتازوا كل فضاء السموات ويطوفوا الارض كلها وينفروا بكل
ما فيهما

قد ذكر القديس غريغوريوس في محاوراته ان رجلاً جندياً هجم
على شقي مجرداً سيفه ليقتهه . فاذا رفع يده ليضربه ورأى ذلك نفسه في
خطر الموت صرخ ملتئماً العون الالهي قائلاً: يا مار يوحنا أمسك يده .
وفي تلك الدقيقة مسكت يد الجندي ولم يقدر ان يحررها . فما اعجب
هذه السرعة في استماع الاستغاثة وسير القديس لمساعدته . فسرعة
الاجساد المجيدة توازي سرعة الارواح . لقد تعجب الناس من ان القديس
كبرينوس والقديس مورس والقديس فرنسيس بولا ساروا على
الانهر والبجارب قارب ولا سفينة . والحال ان الاجساد المجيدة تجتاز
البجارب وتطير في الجو وتنفذ في النار بغير خطر ولا ضرر

الفصل السادس

في وجوب طلب للسكوت السموي وتفضيله على جميع
الخيرات الارضية

فليقابلن المؤمن شقاوة هذه الحياة مع سعادة الحياة الاخرى وليشبهه
ضعف طبيعتنا في هذه الحال القابلة الموت بقوتها وخواصها في الحال
المستقبلية الغير القابلة الموت . وليتأهلن لاكتساب سعادة مجد لذيد
ابدي بتعب خفيف وجيز . ذكر عن كورش ملك الفرس انه لما خرج مع

جيشه ليحارب الماديين . أمر جنوده الفارسيين كلهم بان يأتوا بفوس مشخوذة ويقطعوا اشجار حرش عظيم أشار اليهم بقطعه . فاصرفوا في هذا العمل يومهم ذاك جميعه بكد وكدح جزيلين . ولما كان اليوم الثاني اصطنع لهم وليمة لذيذة فاخرة . وبعدها سألهم اي هذين اليومين أحب اليهم فاجابه الجميع بصوت واحد آثر لدينا يوم الوليمة . هذا واذا نادى منادي الحرب والحملة على الماديين . أخذ يشجعهم ويعدهم بأنه اذا انتهت الحروب يضيفهم وليمة فاخرة نظير الاولى . فكفاهم هذا الوعد ليثبوا على الماديين لا يعاؤون بخطر الموت فحازوا فوزا نصرة عليهم واستولوا مملكتهم . فمكذا يجب ان نقابل نحن ايضا عظمة ملكوت الله ودناءة اعمالنا . خيرات السماء وخيرات الارض فنجد كل تعب راحة وكل عناء نياحا

ليت شعري ما هو مجد هذه الحياة الكاذب الوجيز الذي الحثير قبالة مجد السماء . ما الغنى الزائل الممتلي خطراً وهماً بالنسبة الى الغنى الذي لا يفنى ولا يزول . اين سرور العالم ولذاته المسمومة والمضرة بالصحة والمبددة الاموال والمهينة من يتمتع بها من سرور المجد الابدي الحاوي كل ما يجدي اكراماً ونفعاً ولذة . اين حال جسدنا هذا القابل الموت من صفات الجسد المجيد بعد القيامة

خبرونا انه في ابتدا حرب غايوس الروماني للرومانيين نادى أبينيوس قنصل المدينة العظمى قال : ان كل من ياتيه برأس غايوس ياخذ مثقال وزنه ذهباً . فلما سمع هذا واحد من أهل المدينة يدعى

ستيمولسيوس . ذهب ليقتل غايوس ولم يبالي بما فيه من الخطر والتعب . بل افرغ وسعه في ذلك ولم يدع سبيلاً ولا حيلة الا اتخذها حتى ظفر بغايوس ونال الجزاء الذي تقدم الوعد به . فلا تكونن نحن اقل شجاعة ورغبة واجتهاداً في اكتساب ملك السماء باسره مما كان هذا الجندي في ربح يسير من تراب اصفر . وكل ما نفعله أو نعطيه لاجل اكتساب هذا الملك لا يعدل مثقال ذرة تبناً بازاء هذا الخير العظيم . ولذلك قد رأى القديس اغستينوس ان احتمال جميع العذابات الجهنمية طمعاً بادراك هذا الملك السموي زماناً يسيراً أمر يسير جداً . والحق اننا لو درينا ما عظمة هذا السرور لاستحقرنا تقشفات القديس سمعان العمودي وصيامات القديس رومالدوس وفقر القديس فرنسيس واهانات القديس اغناطيوس ولراينا ان هذه جميعها كتعب من يرفع من على وجه الارض قشة من التبن لكي يحظى بملك العالم باسره .

وقد كشف الله عن فاعلية هذه الاعتبارات لحزقيال نبيه لما اراه اربع حيوانات مختلفة جداً بالطبع الا انها متفقة سيراً وعملاً . لانه رأى النبي في الجوّ نسرًا وثورًا واسدًا وانسانًا يتطايرون كل واحد منهم باربعة اجنحة . ويسرون بسرعة البرق . فما ذا قوى هكذا طبيعة الثور وصيره نظير النسر طائرًا . وما الذي قهر تكبر الاسد ووحشيته حتى آس الانسان وصار رفيقاً له . فقد اوضح ذلك النبي بقوله ان الحيوانات الرمزية كانت تحمل جلد السماء على رؤوسها

فلو كنا نحن فكرتنا في الملك السموي لكنا نمارس اعظم الامور واصعبها
 برغبة وسهولة ولقد كان يمكن للانسان الهيولي ان يصير نظير ملاك .
 ولكن قد اعتمد تهذيب نفسه واصلاحها من كان على جانب من
 البداوة والوحشية ورايت من كان بليداً كسلاناً كالثور يطير باربعة
 اجنحة ويرتفع من على الارض التي يدوسها وشاهدت آخر يكفر بملاذه
 العابرة الزائلة املاً بادراك التي لا تزول

الفصل السابع

في الشرور الابدية وعلى الخصوص في ققر الهاكدين وعارهم

ولعمري انه يجب علينا ليس فقط ان ننزل خيرات هذا العالم
 من خيرات السماء منزلة الاذلال والاحتقار . بل ينبغي لنا ايضاً ان
 نستصغر شرور هذه الحياة بالنسبة الى شرور جهنم . وذلك لان الشرور
 الجهنمية شرور حقيقية لا يخالطها خيرٌ بته . قد ذكر اليانوس المؤرخ انه
 في أقصى حدود بلاد ميروبي مكان يدعى انوستي تاويله مكان لا يرجع
 منه . وكان هذا المسكان وهدة عظيمة عميقة جداً يجري فيها نهران احدهما
 يدعى نهر الفرح والاخر نهر الحزن وعلى ضفة هذين النهرين اشجار
 شاحخة ذات اثمار مختلفة . فمن كان يأكل من اثمار نهر الفرح كان ينسى
 كل أمر محزن . ومن كان يأكل من اثمار نهر الحزن كان يشعر في قلبه
 بحزن هذا حد مرارته . حتى انه لم يبرح باكياً متحجباً الى ساعة موته .
 على ما يدلان هذان النهران . فالنهر الاول يدل على فيض اللذة والسرور

الجارى في مدينة الله . والنهر الاخر يدل على افراط الشقاء الجارى في
 سجن جهنم . ولهذا ارى الله ارميا النبي سلتين مملوئتين تيناً . وقد كان التين
 الذي في احدى السلتين ردياً . وليس ردياً على اطلاق اللفظ فقط . بل ردياً
 جداً حسبما يقول النبي (ارميا ٢٤ : ٢) . وذلك لانه كان رمزاً الى شقاء
 المالكين الذين تحقق بهم جميع الشرور الابدية ولا علاج لها . ولعمري
 ليس هذا امرأ غريباً عند من يتامل عظمة الخطيئة المميته . وقال القديس
 اغسطينوس ان كان الكافر الوثني يستحق بالخطيئة جهنماً واحدة فالؤمن
 المسيحي يستحق جهنمين . لانه أقدم على ان يخطىء مع علمه واعتقاده
 بان ابن الله تجسد وصلب حباباً به فحقاً ان الخطيئة شر عظيم جداً لانها
 شر غير متناه ومن ثم يعاقب عنها عدلاً عقاباً ابدياً . ولما كانت أعظم
 الشرور معاً استوجبت ان تعاقب بجميع الشرور معاً . انه من عظمة قيمة
 الدواء يستدل على عظمة الداء والحال ان الخطيئة قد استلزمت تجسد ابن
 الله وموته دواء لها . فاذا يكون اذا عظم شرها . فان كان الله خيراً
 وفيه كل خير فلا جرم ان الخطيئة التي هي افتراء عليه تعالى شر
 يستوجب كل شر

فاعتبر الان افراط ما في جهنم من كل نوع من انواع العذابات .
 قال البرتوس الكبير ان العذابات الشرعية ثمانية . عذاب الحسارة
 وعذاب العار وعذاب النفي وعذاب السجن وعذاب الاسر وعذاب
 الجلد وعذاب الموت والعذاب المساوي الذنب . والى هذه الانواع

الثمانية مرجع بقية انواع العذابات . فهذه جميعها يجزيها العدل الالهي على الذين ابوا في زمن حياتهم ان يستفيدوا من رحمته فاعتبروا لان عذاب الحسارة لعظيم وصارم جداً في جهنم . فان الخاطيء بدقيقة من الزمن يخسر الله الى الابد . فيا المتفادم فقر من يخسر ربه والهه الى الابد . ان الذي يحكم عليه بموجب شريعة عالمية يخسر ان أمواله يستطيع ان يربح غيرها مادام حياً . واعظم مشقته في ذلك انه يرحل الى بلاد اخرى غريبة يطلب فيها يساراً . اما الذي يخسر الله تعالى فلا يجد له الاهاً آخرولاً يمكنه الفرار من جهنم والله هو الخير الاعظم فخرانه ربه هو شر اعظم ولما كان خسران الله ابدياً في جهنم كان عذاب الحسارة اعظم من جميع العذابات . فان كان فك عضو من الاعضاء يسبب الماء غير محتمل لان العضو يزيع عن مركزه . فاذا يكون انفصال خليفة ناطقة الى الابد عن الغاية التي خلقت لاجلها وذلك فضلاً عن ان الهالك يخسر كل خير بل يخسر ايضاً كل رجاء خير معاً . اننا نستغرب فقر ايوب الصديق منذهلين من ان رجلاً غنياً نظيره اضطر الى الجلوس على مزبلة ولم يبق من جميع أمواله غير قطعة من الخبز كان يجرد بها القبيح عن جراحاته . وانما هذا العلاج عينه ليس للهالك في جهنم الذي لو كانت المزبلة فراشه لكان احتسب ذلك نعيماً عظيماً فقراشه هو الجمر المتقد . فانظر الى ما حصل عليه ذلك الغني المقول عنه في الانجيل المقدس انه كان يأكل ويشرب في الآنية الفضية والذهبية ويلبس افخر الاثواب الخزية .

فما عتَمَّ ان صار على ما عظم من المسكنة والفقر في جهنم حتى غدا يطالب
 لا الحمرة اللذيذة بل قليلاً من الماء ولم يعطه . ولا يمتنى أن يشرب ذلك
 في اناء من ذهب او بلور بل يمتصه من اصبع لعازر الابرص ولم ينله .
 فيا لعظم الشقاء المعد لا غنياء هذا العالم الذين يعلقون قلوبهم في غناهم
 وعليه يجعلون اتكالهم

اعتبر ثانياً انه يقارن هذا الفقر الكلي وفقد كل خير في الخاطئ
 الهالك عار عظيم ايضاً . وفي هذا قال القديس يوحنا الذهبي فمه حقاً
 ان جهنم شر لا يطاق وعذابها مخيف مرعب جداً . غير انه لو اراني احد
 الف جهنم لم اشفق خوفاً من ذلك ولا ارتعب كما اجزع وارهب من
 فقد المجد الابدي واستماع صوت السيد المسيح القائل لي بوجه غضوب
 لست اعرفك . وتوبيخه اياي لاني لم اطعمه في حين احتياجه وجوعه
 ولم اسقه في حين عطشه . وييسر لنا فهم جسامه هذا العار من مثل
 ملك مقتدر ليس له ابن يرث ملكه . فتبني طفلاً غريباً حسناً . وجعل
 أمر تربيته وتثقيفه الى اناس يهدونته تهذيباً يليق ببني الملوك كانه ابن له .
 ثم اوصى قبل وفاته انه اذا نشأ ذلك الطفل وتخلق باخلاق حميدة له
 حق بالجلوس على كرسي ملكه والقيام مقامه في ولايته والا فان بقي
 على ما هو عليه من البداوة وفضاظة الطبع فيطرد كناكر الجميل
 وعديم الوفاء ومذنب ايضاً ويؤمر به ان يرحل الى بلاد غربية بغاية
 العار والهوان . فاذا لم يجد المهدبين صدراً بل ذهب سدئ ولم

يتسبح بحسن تربيتهم بل كان انساناً شريفاً مسيئاً الادب وغير متمسك
 بعري الفضيلة حكم عليه من ارباب الدولة بموجب وصية الملك فحطَّ عن
 الكرسي الملوكي ورحل عن وطنه يقضي حياته في نوى غربة

فهل من عار افضع واهانة اقصى من هذا العار والاهانة اعني به فقد
 المملكة والاسر في الغربة . ان عار المسيحي المحكوم عليه بالخلود في
 جهنم لاعظم من ذلك وافضع جداً لان الله نشله من هاوية الموت
 وصيره ابناً له بالذخيرة وعقد معه ميثاقاً وأوعز اليه ان احفظ وصاياي
 تملك ملكي السماوي والآفان نكثت ميثاقك وخانفت اوامري
 اخلفت بميثاقي وحكمت عليك بعقاب جهنمي . فابالي بهذا ولا عبا بل
 تعدى شرائع الملك المحسن اليه وازدرى بمعليه ومرشديه اعني بهم ملاكه
 الحارس والعلمين الروحيين الرسولين . فمن اجل ذلك يحكم عليه في
 ساعة الموت بان يحطَّ عن الملك السموي ويلقى دحوراً في هاوية جهنم
 خالداً فيها . فهل من عار اعظم من هذا

ولما كان هذا العار الجسيم ابدياً فالى الابد تحتقره الشياطين وكل
 سكان السماء والحجيم . محتسبينه رجلاً عاصياً متمرداً على ملكه وخالفه
 ومخلصه وعلى وجهه انواع هذا العار الفظيع وسيأه كما كان يصنع قديماً
 بالعبد الابق من بيت سيده . والى هذا اشار اشعيا النبي بقوله وجوههم
 وجوه محرقة (اشعيا ١٣ : ٨)

الفصل الثامن

في عذابي الهاكين الثالث والرابع وهما النبي من السماء

والسجين في الجحيم

اعتبر الان عذاباً آخر مؤلماً جداً يتعذب به الهالك وهو عذاب النبي وقد كان الرومان يعدون النبي عذاباً باهظاً وكان لا يعذب به الا من اثم اثماً ثقيلاً . ولذلك ما دام اوفيدوس الشاعر منفياً من رومة لم يزل حزينا باكيًا . وشيشرون حين رجع من نفيه احتسب يوم رجوعه الى وطنه كيوم دخوله الاول في العالم . وكان فرحه في ذلك اليوم يضاهي فرح من تسلط على العالم باسره وقرط سروره هتف قائلاً : ما أعظم بهاء رومة ومملكة ايطاليا ما أكثر شعبها ما أبهج أراضيتها ما أفخر مدنها ما أكيس نفس الرومانيين وأرق أخلاقهم . فان كان الانسان يجد مثل هذا الفرق بين مدينة ومدينة وبين سكان وسكان ويحصل على ما علمت من الضيق والتوجع لمفارقتة ما هو أحب لديه واشهى لسكنائه . فكم يتعذب الهالكون اذا علموا ما بين السماء والجحيم من البون والخلاف . وخبروا ما الفرق بين السكنى في وطن الاحياء مسكن القديسين حيث يدوم السلام والمحبة والسرور حيث كل شيء يبهج وينير حيث تدوي سرمداً اصوات التهليل وبين السكنى في مقر الهلاك الابدي مسكن الشياطين حيث العذاب والرجز والحزن والترمر والعويل . ان النبي والمملك داود كان يحزن حزناً مرّاً بشخصه

عن وطنه واقامته بين البرابرة وتنايه عن تابوت العهد (مز ١١٩: ٥).
 وهكذا الشعب الاسرائيلي لما نفي الى بابل لم يبرح مذرفاً الدموع السخينة .
 ولقد حكم اسكندر الملك على كانيسينوس بافرط الصرامة واشد العقاب
 والقساوة لما امر بان تقطع اذناه وانفه وشفته ويجبس مع كلب في قفص .
 فلقد كان يتمنى الهاكون ان يسجنوا لامع كلاب فقط بل مع الاسد
 والثور ايضاً . وقد استنبت اهل مملكة اليايون في القرن العابر عذاباً
 للمسيحيين لم ير ولم يسمع بمثله قط . فانهم كانوا يعلقونهم بخشب من
 ارجلهم منكسين منحدرين الى نصف اجسادهم في فم هاوية تفوح منها
 نتانة كريهة مميته وضمنها كل نوع من الضفادع والعقارب وما ضاهاها من
 الحشرات . والسكنى بين هذه الحيوانات لا يوازي عذاب السكنى بين
 التناين الجهنمية . فاما اكثر الذين هم في هذه الهاوية العميقة غارقين
 لا الى نصف اجسادهم فقط بل بكل اجسادهم . ان الرومان كانوا
 يعذبون من قتل والديه عذاباً مرهباً ليرهبوا به الاولاد الجهملة ويصدوهم
 عن هذا الاثم الجسيم . فكانوا يضعون من قتل اباه او امه في جوق
 مع ديك وسعدان وحية . فمن ذا لا يرتجف فرقاً من جهنم . حيث
 يسجن الخاطي مع جميع الارواح الشريرة . والحال انه ما من احد يطبق
 السكنى في مكان يظهر فيه شبح خبي الى مفرع . فإذا تكون السكنى في
 الحفرة الجهنمية حيث كل الارواح الخبيثة . وليس من يرضى بان
 يسكن في محلة فيها ممنو بطاعون او تحديق بها جيران اشرار . ولهذا اذ

رام تيمستوكليس الفيلسوف ان يبيع داره اوصى المنادي ان يمدح
جيرانه بانهم اناس فضلاء صالحون . فكيف نشترى نحن جهنم بثمن جزيل
ثمن انفسنا الناطقة لنسكن بين جيران اردياء اشرار . حتى ان الابناء ان
وجدوا هناك مع اولادهم هر بوا من السكنى معهم نفوراً كما سيتضح
من خبر الاتي

قد ذكر في كتاب الباتير يكون ان رجلاً كان له ابنان . وكان يدين
في الرباء مع ولديه . فاتفق يوماً ان سمع أحد ابنيه عظة نفيسة في بيان شر
خطية الرباء . فانتبه لذاته وتاب تائباً عن خطيته . واخذ ينصح أباه و اخاه
ويحثهما على التوبة وترك هذا الامر المهلك . وان يردا للناس ما ربحاه
ظلماً . فلم ينتصحا ولا ارتدعا عن هذه الخطية . فلذلك باينهما وذهب
الى البرية فانضوى تحت راية رهبان صالحين . فبعد مدة مات ابوه
واخوه ولم يتوبوا عن خطيتهما . فاذا علم بذلك الراهب البار . استحوذ
عليه حزن عظيم لخوفه عليهما من الهلاك لعدم توبتهما . فاخذ يطلب الى
السيد المسيح ان يكشف له عن حالهما . وفيما كان مرة يصلي ويتوسل الى
الله بذلك ظهر له ملاك اقتاده بيده الى قمة جبل عال واره هاوية
عميقة جداً مملوءة ناراً فسمع صراخاً مريعاً منبعثاً منها . فنفرس بها واذا ابوه
ملقى في هذه النار يتلظى وقوداً فيها . ثم رأى اخاه بحال من غرق في
البحر يطفو تارة على وجه ذلك البحر الناري ويفرق اخرى . وسمعه يقول
لابيه لتكن ملعوناً الى الابد يا ابا شقياً لانك اهلكني باكتسابك لي مالا

كان محرماً علينا. اما ابوه فكان يجيبه قائلاً: بل تكن انت ملعوناً يا ايها الابن الخيث . لانني من اجلك ولكي اصيرك غنياً عملت ما افضى بي الى الهلاك . فبعد ان سمع الراهب هذا جيداً وابصر حالهما جلياً توارت الرؤيا فرجع الى ديره خائفاً . واقام فيه ممارساً افعال التوبة الشاقة الى يوم وفاته . (آه)

لعلمي ان هذا مخالف جداً لحال المنفي العالمي لانه في كل منفي بعيد عن الوطن اذا التقى الاقرباء تهادوا واجبات السلام وشعائر التعزيات الوافرة وسر بعضهم بمشاهدة بعض . بل ان الاعداء انفسهم يسالم بعضهم بعضاً في المنفي ويصطحبون كما جرت العادة . فاما في المنفي الجهني فان الاصدقاء والاقارب يبعض بعضهم بعضاً ويخامر كلاً منهم من قبل قريبه ورفيقه حزن مميت

ووظف الى ذلك ان المنفيين في المنفي الجهني لا حيلة لهم ولا حرية ولا سبيل الى ان يعملوا ما يريدون وفي هذا العالم في مدة نفيمهم وغربتهم فلهم ان يفعلوا ما شاؤوا . لان هذا المنفي اعني به المنفي الجهني سجن ايضاً . وفضلاً عن انه سجن سفلي نجس متنن في الغاية فالهالكون فيه ملتصقون باجساد ملتهبة وصورهم بشعة مرهبة بقدر خطاياهم . ثم عقب الدينونة العامة تحزم اجسادهم بعضها ببعض ويلقون هكذا بعضهم على بعض ويداسون ويعصرون كالعنب في المعصرة . فحقاً ان العذاب الذي به عذب ثلاثة رهبان يسوعيون في مدينة ماستريك

الجزيل القساوة اذ ان الاراتقة شدوا ايديهم وارجلهم بأساور من داخلها
 ابرحديدية مرهفة اذا تحركوا فنجستهم نجساً حاداً . ثم اضر مواناراً حولهم
 ليحترقوا . فكان حالهم في استشهادهم هذا حال من اذا تحرك تمزق
 واذا سكن تحرق . فاذا يكون اذا عذاب الهالكين في جهنم حيث
 يحترقون ويستحيل عليهم التحرك . وماذا نقول عن نثانة السجن الغير
 المحتملة الصادرة منه ومن الاجساد الكائنة فيه

قد ذكر في التواريخ انه في احدى مدن فرنسا قُبر رجل في ناوس
 بشكل مغارة ووضع على بابه حجر . ثم بعد ايام قليلة رفعوا ذلك الحجر ليدفنوا
 رجلاً آخر توفي حديثاً . فأنحدر الى المغارة رجل يقبل جثة المدفون . فلم
 يتشم رائحة الجثة حتى سقط على الارض ميتاً . فان كانت جثة واحدة
 تبعث مثل هذه الرائحة الحبيثة فاية نثانة تنبعث من اجساد في اسوأ
 حال منها ولا يحصى عددها . وذكر عن عازلين الظالم الجائر انه شاد
 حبوساً مختلفة كان يعذب فيها المسجونين بفنون العذاب منها ضيق
 المكان وثقل الاوثاق ونثونة الجثث المرمية هناك . حتى قيل عن ذلك
 المكان . ان الموتى فيه يقتلون الاحياء .

وقد اخبر فيكتور المورخ في روايته عن العذابات التي عذب بها البنداليون
 الاريوسيون الشهداء القديسين قال : وكان أشد هذه العذابات جميعها
 نثانة السجن وكان عدد المسجونين فيه اربعة الاف وتسعمائة وتسعين رجلاً .
 وكانوا لضيقة السجن يلقونهم فيه بعضاً على بعض ويضطونهم ضغط القمع

في الكيل . فمن ثم كان يصدر عنهم وعمّا تقدّفه الطبيعة وعن جثث الذين يموتون هناك نثانة خبيثة تفوق كل عقاب . ولنا مثال اخر في سجن في بلاد اليابان موقعه على قمة جبل وعرضه ستة عشر قدماً في علوائتي عشر قدماً وطول اربعة وعشرين قدماً . وشكله شكل قفص لان حيطانه من اخشاب متفرّق بعضها عن بعض بعرض اصبعين وسقفه من قرميد فيقاسي المسجونون فيه حر الصيف وبرد الشتاء . ففي الصيف يذوبون من حر الشمس وفي الشتاء ييبسون من شدة البرد . لان الحراس المحيطين بهذا السجن لا يأذنون للمسجونين باثواب تقيهم شرّ البرد . فيه طرح الانبا كارلوس سيدنولا الراهب اليسوعي الشريف الاصل وغيره من رهبانيتنا ومن رهبانية القديس دومينيكوس والقديس فرنسيس . وكانوزهاه ثلثين راهباً ومكشوفيه اربع سنين عراة مضيقاً عليهم لم يكن لهم حيث يمدون ارجلهم وكان صومهم متصلاً وصارماً جداً . وكانوا لا يعطون الا ما يدرأ عنهم شرّ الموت لا ما يسد جوعهم . وقد كان مأكلهم الاعتيادي قليلاً من الارز الاسود العتيق الغض مطبوخاً بالماء فقط ومشرّبهم ماء مغليّ بالحشائش المرة المالحه . الا ان عذابهم الاعظم كان افراط نثانة السجن وكان الحراس لا يدعون هؤلاء الشهداء ان يخرجوا من السجن لاجل قضاء حاجاتهم ولا ان ينزعوا عنهم قمصانهم وثيابهم حتى نهاؤا قملًا يعرى اجسادهم . وكثر في السجن القمل والدود والحشرات المتنوعة . فكان هؤلاء الشهداء يطيقون بعذاب شديد والم قاس ما

تطبيقه الاموات بغير ألم اذ كانت اجسادهم مرعى للدود والحشرات .
 فما ظنك يا صاح في ما قاساهُ عبيد الله في هذا السجن مدة اربع سنين .
 فحقاً لقد تم فيهم قول الرسول اني اموت كل يوم (١ كوه ١٥ : ٣١) .
 لانهم كانوا يموتون كل يوم شيئاً فشيئاً موتاً متصلاً مستطيلاً من الحر
 والبرد والجوع والمرض والتثانة وغير ذلك . الى ان أُخرجوا من السجن
 ودفعوا اطعاماً للنار وأُحرقوا رويداً رويداً في سنة الف وست مائة واثنين
 وعشرين

وليس هذا السجن شيئاً في سجن الهالكين فليس فيه نار محرقة .
 اما السجن الجهنمي فنار ملتبه دواماً . هنا يرجو المسجونون الخلاص
 والنجاة . وثم فليس رجاء . هنا يعطى المسجونون قليلاً من الماء والشراب .
 وثم لا يسدّ جوع الهالكين الكلبى بكسرة خبز ولا يطفأ عطشهم المذيب
 بقطرة ماء . فهذه حال شقاء الارض السفلة الأسفة التي لا تنبت الا
 شوك الاوجاع وحنظل البلايا والالام

الفصل التاسع

في عذابي الهالكين الخامس والسادس وهما عذاب الاسر

وعذاب الجلد في الجحيم

كان الاسر عند الرومان عذاباً شديداً . لانه كان عندهم بمثابة
 الموت نفسه . ولذلك كان ارميا النبي ينوح على اورشليم بعويل مذرفاً
 دمعاً هتوئاً . لان هذه المدينة التي كانت أم المدن والاقاليم اضحت تحت

رق الاسر تودّي الخراج . فباي نوح وبكاء يجب ان نرثي اسر المسيحي
 الذي بعد ان كان وريثاً للملك السموي أمسى أسيراً للشيطان وأهلاً
 بالعذابات الجهنمية الموبدة . ملتزماً بان يودّي جزية اسره بكل اعضاء
 جسده وحواسه وقواه . فلنتأملنّ يسيراً ما أشرس الشيطان واصرمه نحو
 الذين ليسوا تحت اسره . كيف استعمل ما اباح له الله من الاذن في بلاء
 ايوب البار . فترى انه ضربه ضربة شديدة أصبح بها جسده جرحاً
 واحداً دأد وتقوّح . وجعل فراشه مزبلة منتنة كان الصديق جالساً
 عليها مجرد عن جسده الدود والقحج مجرقة . حتى لم يبق له من لحمه
 الا قليل في شفتيه ليكنه النطق بهما . وكان يزيد على الامه واوجاعه
 الما اخر فانه كان يمثل له في الليل الذي انما جعل لراحة الانسان من
 الاشباح ما يربعب ويخيف . وبلغ في التثانة وخبث الرائحة مبلغاً عظيماً
 حتى عادت امرأته لاتستطيع ان تحمل الرائحة الصادرة من احشائه بضمه
 وانفه . ولما عاده ثلثة من اصدقائه يفتقدونه ويعزونه في بلواه وشاهدوا
 ما شاهدوا من حاله شملهم التحير والانذهال وابلسوا غمّاً لا يستطيعون
 ان يفوهوا بكلمة (ايوب ٢ : ١٣) . فنجد في ذلك اولاً ما يدل على انه
 ان كان الله سمح بان يدرك مثل هذا العذاب الاليم ايوب البار القديس
 زيادة لبره وخزياً للثلاب الرجيم . فعذاب المالكين بعد الدينونة باذن
 الله عقاباً لاثامهم اعظم منه جداً . ونرى ثانياً ما يثبت انه ان سام الشيطان
 ايوب الصديق شرّ العذاب حتى مناه بالبرص واثخنه بالجراح . وغدا

جسدهُ جثةٌ مستكرهة لم يرَ نظيرها قط . ودعا ذلك الكتاب المقدس
ضربةً الهيةً ونسب الى الله ما فعله الشيطان كما ينسب تعذيب الجلاد
لحاكمكم . فما اعظم ما يكون عذاب الخاطيء المأسور في جهنم اذا انزل
الله عليه ثقل يده فيحس حساً من رجزه

فهات الان نتكلم عن عذاب الجلد . ونعني بذلك كل انواع
الضربات التي يتعذب بها المالك في الحجيم . وهذا قد كشفه الرب
لارميا النبي لما اراه قضيماً من القضبان التي كان يضرب بها قديماً المذنبين
فابصر النبي بقرب هذا القضيبي قدرًا موقودة . دليلاً على ان ضربات
العدل الالهية تاخذ ملئها في نار جهنم الابدية . غير ان هذه الضربات
لا تكون كضربات قضبان من خشب . بل تكون اقوى واثقل من
ضربات المطارق الحديدية . ولهذا قال الحكيم : الحكم معد
للمستهزئين والمطارق تطرق اجساد الجهال (أمثال ١٩ : ٢٩) . واحسن
اذ دعا المالكين جهالاً . لانهم لم يشتروا السماء المسومة لهم من الله
بشئ رخيص . بل تساقطوا في دركات جهنم الخالدة من اجل لذة وقتية .
ولا يهطل على المالك طوفان العذابات فقط . بل يتعذب كل حس
عذاباً خصوصياً ايضاً . فالعين تتعذب بنار تحرق حدقتها والقوة الباصرة
تعاقب بالاشباح المريعة والخيالات المفرعة

وفي هذا ذكر عن راهب انه لما ناهز الموت ابصر شياطين سمجين
مريعي المنظر فثار في نفسه من الخوف ما افقده الصواب فصرخ

قائلاً: لتكن ملعونة تلك الساعة التي فيها دخلت الرهبانية . ثم سكت قليلاً
ثم قال بوجهٍ بشوش وصوت خافت . لتكن مباركة الساعة التي دخلت
فيها هذه الرهبانية ولتكن مباركة مريم العذراء التي احببتها دائماً من كل
قلبي . فاندعش الرهبان المحققين به . وشرعوا يفتكرون في سبب ذلك
ويصلون عليه . فقال لهم الراهب لا تتعجبوا يا اخوتي من سنجسي لان
المنظر الذي رايتهُ لمرعب جداً . حتى انني اختار القرار في نار ملتتهبة مستغرقاً
في رصاص مذاب الى انتهاء العالم ولا ابصر ما ابصرته ايضاً . فان كان
منظر شيطانين اراع رجلاً فاضلاً فما يكون جزع من يبصر الوفاً وربوات
من الشياطين كل منهم ارهب وارعب من رفيقه وجميعهم مستعدون
برجز كلبي الى عذاب الخطاة

انه لما تأمل القديس غريغوريوس قول ايوب الصديق هذا . ارض
الشقاء حيث الخوف الدائم قال هكذا : كيف يمكن ان يوجد خوف
حيث تقاسي اعظم الأوجاع لان الوجع يصدر من شيء حاضر والخوف
خاص بالمستقبل . فما الذي يخاف منه من قد حصل على اقصى حدود
الشقاء . الا انه لسبب ان حال من يكون حصل على شقاء عظيم جداً
حتى ينافي كل خوف . يكون بعد حصولاً على خير ما ولانه ليس في
جهنم خير ما اصلاً فلذلك كان شقاء الهالكين لا ينافي الخوف . لكن كما
ان الموت الابدي يمت الهالكين مع بقائهم احياء ليدوقوا مرارة الموت
في حياتهم المؤبدة كذلك العذاب يؤلمهم ويرعبهم معاً . ثم ان عقاب

النظر يكون مؤلماً جداً لان الاب يرى ابنه معذباً والابن امه والابخ اخته
والصديق صديقه

خبرنا يوسفوس المؤرخ عن اسكندر بن يركانوس . انه رام يوماً
ان يعذب قوماً من المجرمين عذاباً صارماً مرةً فاسم منهم ثمانمائة رجل على
خشب ثم قبل ان يموتوا شق اولادهم ونساءهم امام اعينهم وكان
قصدهُ بذلك الايميتهم موتاً واحداً بل ان يميت كلاً منهم الف مائة
بمشاهدتهم هذا المنظر المميت . وقد تعذب بالبلغ نوع من قبل هذه
المشاهدة أولئك الذين كان بعضهم لبعض سبب الخطيئة وحجر العثرة
والشك وضمف الى ذلك الظلام المرعب الذي تقترن به هذه المشاهدة
المحزنة : قال المعلم نيقولاوس الليراني ان الظلام المصري دعي في
الكتاب المقدس مخيفاً لان المصريين كانوا يبصرون في هذا الظلام
خيالات واشباحاً مرعبة فتلك هي ظلمة جهنم . فانها تعذب اعين الهالكين
بمناظر مرهبة وادلهمام ليلة ابدية

فاما الاذان فما خلا عذاب النار التي تنفذها تعذب ايضاً باصوات
رعود مهيلة و ^{بضج} صراخ الهالكين وانتحابهم وندبهم ولغاتهم
وتجاديفهم . قد ذكر عن سيلا والي رومة انه أمر يوماً بقتل ستة الاف رجل
على النوع الاتي . وهو انه امر بان يأتوا بهم الى ميدان قريب من ديوانه
وان تلتئم جميع القضاة والاعيان في هيكل قريب من ذلك الميدان لكي
يتكلم معهم . وقد كان أوصى جنوده أن اذا أوشكت أن افتتح الخطاب

فأهجموا حالاً بسرعة عظيماً على أولئك المجتمعين في الميدان واقتلواهم جميعاً شرقتة . فلما فعلوا حسبما أمرهم وكان هو يخاطب أهل الدولة لم يكن أحد يسمع من خطابه كلمة واحدة وذلك لأجل شدة صراخ الشعب الذي وثب عليه الجنود ولجزيل بكائهم وعويلهم . فإذا يكون إذا عويل المهالكين ونوحهم

هكذا حاسة الشم تتعذب تعذيباً خصوصياً بواسطة الروائح المنتنة . ولعمري إن مكسنثيوس الملك قد اخترع عذاباً جزيل القساوة جداً . لأنه كما ذكر فيرجيليوس كان يربط جسد إنسان ميت متين مع جسد إنسان حي ويتركهما هكذا إلى أن يموت الحي من ثنائة جسد الميت . والحال إن القديس بوناونتورا يقول . أنه لو أُخرج من جهنم جسد واحد من أجساد المهالكين ووضع على وجه الأرض لتفسدت البسيطة بأسرها من ثنائة رائحته . فإذا يكون إذا عذاب المهالك المتحد إلى الأبد بجسده المتصف بهذه الثنائة والموجود فيما بين أجساد أحر كثيرة منتنة نظيره . قال إشعيا النبي قتلاهم مطرحون يفوح التين من جيفهم (إشعيا ٣٤ : ٣)

وماذا أقول عن عذاب اللسان الذي به نخطى على أنواع عديدة بالتلميق والتمرص والنميمة والكذب وغير ذلك . فلذلك تكون حمة الثمانين وسم الأفاعي الذي لا شفاء له خمر المهالكين . ولعمري إن عذاب الجوع والعطش الذي يعذب به هذا العضو عظيم جداً . قال كينثيليانوس

الفصيح ان الجوع هو عذاب عظيم جداً . حتى ان بلية الحرب او الطاعون بالنسبة اليه هي سعادة لابلية . وقد رأينا جوع ايام قليلة قد اكره الناس على اكل لحوم الكلاب والقطط والفيران والحيات والضفادع حتى الزبل ايضاً . بل اضطرّ الامهات الى اكل لحم اولادهن . فاذا يكون اذا الجوع والعطش الابدي

ثم ان المس بما انه اكثر استعمالاً من بقية الحواس . فيتعذب اكثر منها بالنار التي تاكل دائماً ولا تنفي ابداً . فمن لا يرتجف فرقا من مجرد ذكر ما صنع فالريس وغيره من المغتصبين الذين كانوا يلقون اناساً احياء عراً في بطن ثور من نحاس محمي ليحترقوا فيه . الا ان هذا العذاب لا اعتبار له بالنسبة الى النار الجهنمية التي تحرق اخفى ما في الباطن واظهر ما في الخارج على حدّ سوى . وفي هذا خبرنا الانبا بطرس المكرم رئيس دير كلوني عن كاهن شرير . انه لما أشرف على الموت ظهر له شيطانان شرسان جداً وبين ايديهما مقلاة وقالاه انا سنقلبك بهذه في جهنم . واذا كانا يخاطبانك بهذا الكلام تطايرت نقطة من الزيت الذي في المقلاة ووقعت على يد القس المريض وفي الحال نفذت اللحم الى العظام . وشلت يده وجرّدت من اللحم فاندهل الحاضرون من قوّة النار الجهنمية . ولهذا قال نيقولاوس نيصص انه لو يكوم كل ما في العالم من الحطب وأضرمت فيه النيران حتى يصير جذوة واحدة لم تكن شدة حرارته توازي شرارة واحدة من نار جهنم

وقد كتب ايضا الانبا كيصاريوس . انه كان لتاودوريكوس
اسقف مدينة ماستريك خادم يدعى يبيرباش بلغ مبلغاً عظيماً من
الخبث وغالى في اختلاق السيئات حتى عهد الى الشيطان في نفسه اذا
ساعده اللعين في ادراك ثاره من عدوه . فلم تمض سنين قلائل حتى
ادركه مرض ادنقه وادناه من الموت فعرض له بحران فخيّل له أنه مات .
الا انه في هذه الحال خطف بالروح وغرق في بحيرة نارمتاججة . فاتاه
ملك وقال له : انظر ما اعدّه الله للذين يخدمون الشيطان . فان رحمتك وردك
حياً فهل تصرف بقية ايامك في افعال التوبة الشاقة . فاجابه المسكين
قائلاً : اني ارتضى باحتمال اشق ما في العالم لانجو من حال هذا الشقاء .
فراّف الله به وبعثه من غشيه وابله من مرضه فشرع يمارس اصعب
التقشفات فكان يمشي حافياً على الاشواك والحجارة الحادة والدم يجري
من اقدامه على الدوام . وكان يقتصر على السير من الخبز والخمر ووزع
كل ماله على المساكين . فاستغرب كثيرون صرامة هذه السيرة
واشاروا اليه بان ينتهي عنه قليلاً . اما هو فاجابهم : لا تتعجبوا من صرامة
توبتي لاني قاسيت اكثر من ذلك في جهنم ولو اخترتم ما اخترته لما
استغربتم شدة توبتي . ثم كان يقص عليهم عن عظيمة نار جهنم قائلاً :
انه لو قطعت كل اشجار العالم وجمعت واضرمت ناراً واحدة لاخترت
ان احترق في هذه النار الى يوم الدينونة ولا ان احترق ساعة واحدة في
نار جهنم التي قد اخترت شدتها . فليتامل هذا المؤمن الذي اجترح منكراً

وليقبل في كل ضيقة وبليّة اني لقد استحققت عذاباً اشد من ذلك
وليس لي ان اشكو مما اصابني

ولان الكتاب المقدس يدعو جهنم بحيرة مملوءة ناراً فلنورد هنا خبراً
روي عن القديس بطرس داميانوس نفهم به على نوع ما عظيمة هذا
العذاب قال : كان في بلاد لومبارديا رجل درّب في سلوكه مع الناس
حسن الخطاب يحب ان يتعرّف الى الجميع ويصادق كل احد ويدخل
في كل امره . وكانت تدابيرهُ واموره تسبّح غالباً بحسن دربة عقله وان اتفق
الا يتم امر على مرامه فكان يصلحهُ بسهولة وسرعة . واقول على الاطلاق
والاجمال انه كان خبيراً بامور السياسة والدراية وكان مخرباً فيها فما
انتهى اليه . وابن بلغت به حكمته وافضت به درايته انه مات اخيراً
ونسبت فيه يرثن النون وام تقه منها دربته ولم تكفه شر غائلتها . فدفن
جسده في الكنيسة ونفسه انتقلت الى حيث اراد الله . غير انه اتفق
يوماً ان راهباً ورعاً كان ماثلاً امام الله يصلي فرأى بالروح بحيرة نار كان
لهيبها يبلغ الى السماء وشرارها يتطاير بكثرة مع صراخ وصيحج حتى ان من
كان يرى او يسمع ذلك ياخذهُ الخوف والزمع . فامعن الراهب القديس
النظر في تلك البحيرة واذا ذلك الخطيب الفصيح والشعب الدرب يعوم
فيها شرقاً وغرباً وحيات وتنانين مرهبة على حافة هذه البحيرة تحرق بها
من كل جهة وتحول بينهُ وبين الخروج . فكان ذلك المنكود حظه
يولول وينوح بين تلك الحيوانات السامة وفي وسط تلك النار الاكلة

مفرغاً جهدهُ بالوصول الى حافة البحيرة الا انه اذ كان يدنو منها يشربُ
 اليه تنين عظيم فاعراً فاه ليتلمعه . فيرتد في الحال متقهراً ويذهب الى
 حافة اخرى واذا نادى صدَّ عنها ناكصاً لما اصابهُ اولاً . فعلى هذه الحال كان
 يَجول في البحيرة المحرقة ذاهباً من حافة الى اخرى ملتصقاً له منجى فلم
 يجد كذلك لاصدَّ له عن نيرانها ولا براح كذلك يكون الى الابد .
 وبعده حكم عليه كما يقول القديس المذكور وبعده القضاء على من كان
 في زمن حياته بحسن درابته وحيله العالمية ينجو من كل مصيبة ولا حرج
 على ان تسد دونه سبل الفرار من هذه البحيرة المحرقة

ثم اعتبركم يتعذب الها لكون في قوى انفسهم . واولاً في مخيلتهم
 التي تسعى في تعذيب بقية الحواس . فقد اخبرنا اسكندر ترليانوس عن
 امرأة كانت تطوي ليلها ونهارها خزينة باكية لانها توهمت وخيل اليها انها
 ابتلعت حية وكان يصورها وهمها ان الحية تمزق احشاءها . فماذا يكون
 تصور الها لكين الحقيقي ونخس الضمير المقطع قلوبهم . وبلايا قوى النفس
 فتكون أشدَّ وامر . وكان الارادة تميز من البغضاء الابدية لذاتها وللخلاق
 ولخالقها ايضاً . وتشعر بغيظٍ ورجز لا يطاق وتتسجس كل عواطفها . لانها
 تطلب ما لا يتيسر نواله ويدركها اليأس من نيل مرغوباتها . قال القديس
 برزدوس هل من عذاب أعظم من عذاب من يشتهي ما لا يصير ابداً .
 ولا يريد او يكره ما سوف يكون دائماً . فالامل الذي من شأنه ان يسهل
 على الفلاح احتمال الحر والبرد ويخفف على الجندي تعب السهر والم

الجراحات وعلى المعترفين والشهداء الصوم والمسح والقيود وضربات
الجلادين وبقصارى الكلام الرجاء الذي يذل صعب الامور ويرد العسير
يسيراً تفقده الهالكون الى الابد . فيالعذاب من يحتمل هذه الالوجاع
القادحة من غير نفع ما اعظمه . وهو يعلم انه كان يقدر ان يربح السعادة
الابدية باحتمال ما هو اقل منها جداً . لان الانسان يستطيع الان ان يربح
بقرعة صدر سعادة ابدية . اما في الحياة الاخرى فلئن تالم بكل اعضائه
بالنار التي تحرق حتى اللب واعتراه جوع كلبى وعطش مذيب ومسه
من اوجاع النفس والجسد ما يكابده في جهنم فلا ينتفع بذلك شيئاً
ولا يجني نفعاً . ولا يكون هذا جميعه كافياً لان يخفف عذاب الهالك ولو
بتحويله من جهة الى اخرى لكنه يستمر على الدوام معذباً على حد سوى
والموت يهرب منه حسبما يقول الكتاب المقدس . فهذا انما اليأس العظيم
الذي يكون اخره الخطاة المتجاسرين الجاحدين الان رحمة الله . ان جهنم
لملوة من الذين كانوا يترجون في حياتهم الا يهبطوا في دركاتهما ومن
الذين قد قطع عنهم رجاء الخروج منها رجاهم السابق بانهم لا يموتون في
حال الخطية . فعاد الان رجاؤهم باطلاً ولحق بهم ياس مؤبد
وتكون القوة الذاكرة داعية لعذاب الهالك عذاباً شديداً . لان كل
ما عمله من الخير او الشر فعليه عقاب منه . اما عقاب الخير الذي صنع فمن
خسرانه ثوابه واما الشر الذي عمل فلانه يكافأ عليه . سوف يذكر المثلث
الشقاوة انه كان يقدر ان يربح السماء مراراً ولم يشاء بل اختار جهنم .

فيقول لنفسه كم مرة كان في طاقتي ان أصلي وفضلت عليه الملاهي الباطلة
 ولذلك انا اتعذب الان . كم مرة وجب علي ان اصوم وزغتني شهوة الخبيرة
 الى المآكل ولذلك انا اتعذب الان . كم مرة بذرت في سبيل اللذة ما
 كان يجب ان اصرفه في سبيل الصدقة وكان ذلك داعية لعذابي الان .
 كم حرصني الناس على مصالحة عدوي ومسامته وبقيت مصراً على الانتقام
 منه حافظاً له الضغائن ومن اجل ذلك أقاسي مرّ العذاب . كم وجدت
 سبيلاً الى الصبر فملت عنه الى بث سم الخلق والغضب فبعث بي الى
 حيث انا من العذاب . كم تيسر لي ان امارس افعال الاتضاع واظهر لقريني
 حبي وأخلص له ودي . واستحييت عليه التكبر والتشاخ وهاء نذا الجرع
 كاس العقوبة والالم . كم تمكنت من مناولة الاسرار المبررة فأبيت ان
 اتغرل عن خطر الخطأ . فوقعت في موقع العذاب لم تعوزني قط وسيلة
 لاعبد ربي ولم تفتني فرصة ولم افترصها ولذلك انا اتعذب الان . ثم
 يقول الهالك في نفسه تعلم الان ايها الشقي الملعون انك خسرت السماء
 لانك آثرت التمتع ولو أردت لربحت السعادة الابدية وكنت الان بين
 أجواق الملكة وحزت فوز الافراح الدائمة ومخلصك خيرك فيها ورغبك
 اليها وخصصك الى اكتسابها . وانت ايها الغبي الملعون فصدت
 عن السماء وتخيرت خضرة الدمن بل المزبلة . فالذنب فيه لك ولك الان
 عذاب أبد تكفر به عن جريرتك
 اما العقل فيتعذب بافكار مؤلمة محزنة جداً . فلا يلقي حينئذ

ارسطو تاليس في حكمته لذة ولا سينيكاً في فلسفته فكاهةً ولا جالينوس في عذوبة طبه ولا يستحسن من سواهم من العلماء في علومهم ومعارفهم طرفةً . وقد جاء في الاخبار انه ظهر لاسقف من اساقفة باريس معلم ماهر كان قد هلك في جهنم . فسأله الاسقف هل بقي لك شيء من العلوم في جهنم فاجابه الشقي اني لست اعلم الا ان غير ثلاثة اشياء . اولها انه قد قضي عليّ حتماً بالهلاك الابدي . ثانيها ان هذا الحكم لا يرد ولا يرجع فيه . ثالثها اني خسرت مشاهدة الله الى الابد طمعاً في ملذات العالم والجسد

ويتولد في هذه القوة العقلية شيء يعرف بدود الضمير ويكون تعذيبه أشد واقسى من عذاب النار . وقد ذكره سيدنا يسوع المسيح ثلاث مرات في اواخر احدى عظاته معلناً ان دودهم اي دود المالكين لا يموت ونارهم لا تطفأ . قال القديس اغستينوس عن الضمير في هذه الحياة انه مما يجزن النفس ويؤلمها ما يسومها شر العذاب وهو ضمير من تدنس بالخطيئة . لان لذات نفسه مجلبة لعذاب شديد لو أكره أب على الحضور حيث يشق ابنه لكان ذلك عذاباً عظيماً له . واعظم منه ان يكون جلاده وامراً واقصى من هذا وذاك ان اضطر الى ان يشنقه على باب بيته ويبقى هكذا امامه مشنوقاً لكي يشهد هذا المنظر المحزن المميت كلما دخل وخرج . ويكون هذا الحكم في غاية من القساوة المقرطة لو اضطر الاب الى ان يشنق نفسه او يمزق لحائه باسنانه او يميزها

بأظافره . فهذا شان الضمير الشريد لان به تمزق الخطاة ذواتهم في النيران
المؤبدة ويزيد المهم هذا حسدُهم الذين اكتسبوا الملك السموي
بتعب وجيز بيناهم قد خسروه لأجل خير ارضي دني اولذة وقتية .
فقد ذكر في السفر الالهي عن عيسو انه لما عرف ان يعقوب اخاه حاز بركتة
ختلاً صاح صراخاً عظيماً وجعل يزار كالاسد من شدة المأسه . فاذا
يكون اذا عجب المالكين ورجز بأسهم اذا رأوا ان الصديقين اخلصوا منهم
البركة وهم خسروها الى الابد لأجل مجرد غباوتهم

الفصل العاشر

في عذابي الهالكين السابع والثامن وهما الموت الابدي
والعذاب المعادل للذنب

اعلم ان الكتاب المقدس يسمي الهلاك الابدي موتاً ثانياً . لان
هذا الموت الروحي يكون بعد الموت الاول الجسدي . وهذا الموت
الثاني يدرك النفس بعد فناء حياة الجسد وهو موت وحياة معاً وضعف
الاول لان فيه عذاب الموت ابد لا يزول . فكما انه ما من شر اعظم من
الموت كذلك ما من موت شر من هذا الموت الذي قال عنه القديس
اغستينوس . انه لا موت شر من موت لا يموت . وقال القديس
غريغوريوس ان موت الهالكين في جهنم لا يدركه موت . والانتها
لديهم خال عن الانتها . لان الموت هناك حي والانتها يبتدى دائماً
ثم موت جهنم ضعف الاول لوجود موت المساءة وموت العذاب

لأنه لموت أشنع من موت النفس . وهو الخطيئة التي لا ينفكُ الاشقياء
 المهالكون ملطخين بها الى الابد وهم بالغون من الشر أشدَّ مبلغ ومن
 الشناعة اعظمها ما لا مثيل له وهو شناعة المساءة . لعمرى ان هذا الحال
 شرُّ من عقاب النار . ثم بعد شرِّ الخطيئة ان من ضروب العقاب ما هو
 أشدَّ من جميعها وهو عقاب الخطيئة ولما كانت جهنم عقاب الخطيئة
 كانت عقاباً أعظم من الموت بل هي الموت الاعظم والاشرُّ . فيا لعظم
 ارتفاع العدل الالهي على العدل البشري . فان عقاب الموت اعظم
 عقاب يوقعه العدل البشري على المجرمين . وانما هذا أجلُّ ما يتوق اليه
 المهالكون ومعظم ما يمتناه من شجب خالداً في جهنم . لأنه ان كان الحزب
 عن عقاب لا انتهاء له ولا زوال لمن عوقب به يُرهب السامع ويُرعبه
 فما يكون مخبرته الى الابد

قد ذكر في خبر القديسة ليدوفينا البتول انه افتقدها في حين
 مرضها المستطيل العجيب رجل كاشفها بما في نفسه من المساوىء والاثام
 ولما لم تكن ندامته كفاية عن ذنوبه فعهدت اليه القديسة بالوفاء عنه
 للعدل الالهي بشرط ان يستمر ليلة واحدة كاملة راقداً على فراشه على
 جنبه الواحد من دون ان يتقلب الى الاخر فتبسم ذلك وقال لها ان
 كانت هذه عقوبة خطاياي فاني قائم فيها سريعاً وباء بفرح الى بيته .
 فلما كان المساء وحان وقت الرقاد أعد فراشه ومهدده ثم اضجع عليه كما شاء
 على جنبه فامضت مدة من الزمن حتى سولت له نفسه التحول من

جانب الى آخر وخال له انه لم يضطجع قط على فراش أخشن من ذلك
 الفراش . فسأته جداً هذه الحال وضجر من المكث على جانب واحد .
 فاخذ يخاطب ذاته قائلاً : ما سبب ازعاجي هذا وما داعية قلبي ولم
 يشق علي الرقاد على هذا الفراش بغير تقلب فلمهاد وتير ناعم وانا صحيح
 الجسم . ولا يعوزني الا التحول من جهة الى اخرى . وهو دون كل الامور
 قادراً عنك كل سبب واصبر على هذه الحالة الى الغد . فتطير عن جفنه
 النعاس فاخذ يذكر الابدية متروياً في امرها مخاطباً نفسه قائلاً : ما هذا
 الامر الا تقدر ان تضجع على فراش لين ليلة واحدة ساكناً بل لقد صار
 الرقاد والراحة لديك عذاباً . فكيف تكون اذا حالك اذا اضطرت اليه
 ليلتين او ثلث ليال . لقد كنت تعده موتاً بل شر منه . فما او هن قوتي واول
 اضطباري فاني اضطرب واتقلق من امر دون الطفيف . فاذا اصير اليه
 اذا عدت النوم اسابيع كثيرة او بليت بداء المفصل والحال اني
 عارف ومتحقق انه قد اعد لي عذاب اعظم من ذلك بما لا يحد في جهنم
 واليهات تفضي بي خطاياي العديدة فاي فراش يهد لي هناك وسوف
 التظي على جمر ملتهب ويكون لحافي الكبريت المتقد واستمر ملقي هناك على
 بساط من جمر متقدة غير ليلة مدى الابدية . ولا اقدر ان انقلب جنباً
 لجنب الى الابد . فحي يا نفسي على احسان سيرتي واصلاح سيرتي
 وهلي نعبد الله خالقك كذلك تروى واطال الفكرة فنتجت له رويته وقال
 ما قال واصلح سيرته

وعدا العذابات المتقدم ذكرها عذاب يعادل الذنب . ولهذا قيل في
 سفر الرؤيا (١٨ : ٧) . بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت كفاؤها عذاباً ونوحاً .
 وتسهيلاً لفهمه نورد خبراً جزيلاً الاعتبار مآله ان الله يعاقب بالذنوب
 في جهنم قدر جسامتها . انه قد ذكر الانبا كاثيبراتي . انه في نواحي
 مملكة النمسا كان جندي شجاع باسل وكان مولعاً في ركوب الخيل
 وكلفاً بسباقها في مضمار المباراة وكان متمرغاً في حمأة الفسق والفجور .
 فات موتاً شقيماً وكان له امرأة سالكة في سواء السبيل سائرة في طريق
 التقوى والتورع فنقلت بالروح يوماً الى حيث رأت زوجها كأنه لم يزل
 حياً في جسده . ومن ثم استدلت على شقاء حاله . لانها ابصرت حوله
 جمّاً غفيراً من الشياطين وقد امرهم اركونهم بان يلبسوا ضيفهم الحديد
 ثوباً من حديد داخله اشواك حديدية مسنونة وحسك حاد . ثم بعد
 ذلك امرهم بان يضعوا على راسه خوذة حديدية ويسمروها بمسامر طويل
 ينفذه من رأسه الى رجليه . ثم يعلقوا بعنقه ترساً حديدياً ثقيلاً يرضض
 عظامه . فانجز الشياطين اوامر اركونهم بتدقيق واسراع . ثم قال لهم
 الاركون . ان هذا الرجل كان كلفاً بلهوركوب الخيل والفراسة والاستحمام
 بحميم الماء واستنشاق الروائح الزكية والرقاد على الفرش الناعمة والتنعم
 بالمذات الدنسة فاتوه بما عندكم مما يناسب ذلك . فامسكته الشياطين
 وطرحوه في وسط لهيب متقد . ثم بعد ان احترق هناك مدة اضجعوهُ
 على فراش من حديد محمى عليه ضفدعة لها عين مرعبة جداً فامتدت

عليه وضمته اليها ضمًا شديدًا . فهذا ما رأته امرأته الفاضلة وما تأملته بحزن لا يوصف طول ايام حياتها . فلنخافنَّ اذاً من العدل الالهي ولنتحقق غاية التحقق ان ما اخطأنا به هنا باعظم استلذاذ نعاقب به هناك باشد عذاب

الفصل الحادي عشر

في الفوائد الناشئة عن التأمل بالعذابات الابدية

ان جميع ما اوضحناه عن العذابات الجهنمية لاقل جدًّا مما هي عليه حقيقة لان بين الخبر والاختبار تفاوتًا وشتان ما بين الخبر والمخبرة . انه لما بلغ المسكابين خبر تدنيس الهيكل وهدمه حزوا وبكوا وازدادوا حزنًا ونوحًا وبكاءً لما عاينوه مهدومًا خاويًا على عرشه ومذبحة مدنس وابوابه مكسرة جزاءً . فاخذوا يمزقون اثوابهم ويتفون شعورهم ويذرون الرماد على رؤوسهم وانظر حوا على الارض يتهدون الزفرات ويتنفسون الصعداء ويانون انينًا لا يقطعه عزاء . ويمكننا ان نجتني نفعًا جزيلًا من مجرد اعتبار الامر اعتبارًا أدقيقًا . فلنتخذنَّ مشورة القديس برزدوس اسوة بعملنا ونحدر الى جهنم ونحن احياء أخرى من ان نحدر اليها ونحن اموات . اما القوائد التي يجب ان نجتنيها من تأمل هذه العذابات الخالدة فخمسٌ على الخصوص

واولها محبة عظمى لله تعالى واسداء الشكر الجزيل له عز وجلَّ بانه لم يلقنا وقودًا في عذابات جهنم وان استوجبناه مرارًا . فقل لي يا صاح

ما فضلك على ربك وقد اخطأت اليه اضعاف ما أخطأ اليه كثير من
 الهالكين وما مزيتك عليهم حتى قصدك بحسن المعاملة والرحمة وعامل
 أولئك بصرامة العدل . فلونشل الله من وهدة جهنم احد أولئك الاشقياء
 الهالكين . ترى كيف كان يشكر احسان ربه ويفي بعهوده له ويبر خالقه
 ويمسح سيرته ما استطاع ويمارس رياضات التوبة القشفة بنشاط جزيل .
 وكيف كان يستخف باصعبها ويستعذب امرها . فان يقك الله شر الهبوط
 في جهنم ذلك منة منه أعظم جداً من انقاذك منها بعد ان سقطت .
 ودليله ان الدائن اذا راعى مدينه ولم يلحق به هوناً ولم يودعه سجنًا وروهب
 له ما له عليه رحمة جلية . وان الحق به وغلله بالقيود واذاقه مر الجوع
 وغليل العطش وسمح له بدينه قصده بحسن المعاملة ايضاً والرحمة الاولى
 اعظم

القائدة الثانية التي نجتنيها من تأمل العذابات الابدية هي الصبر
 على مضض بلايا هذه الحياة احترازاً من أرزاء بلايا الحياة الاخرى
 وعذاباتها . وهذا اشار اليه التلميذ الحبيب في الاصحاح الرابع عشر من جليانه .
 فبعد ان قال ان دخان عذاب الهالكين يصعد الى دهر الدهرين
 قال ها هنا صبر القديسين . وذلك لانهم اذ يتاملون ان جميع ضيقات
 هذه الحياة تزول مع الزمن وان عذاب الحياة المزمعة يدوم الى دهر
 الدهرين . لا يبالون بمشقات العالم بل يحترقون كل شدة زمنية . وعليه
 يحننا الذهبي فنه على ان لانشكو من الم بلوى زمنية صبراً . والسبيل

اليه التامل في الرزية الابدية واستشر ما تبلوه من حقير الشرور يصدقك
 خبرك خبراً عن عظيمها . فان دخلت الحمام تستحم ووجدته في غاية من
 الحرارة فاذا ذكر حينئذ حرارة نار جهنم . واذا دهمتك حمى شديدة فوجه
 فكرك الى اللهب السفلي وقل متاملاً : ان كانت حرارة حمام او سخونة حمى
 تضائني هكذا فماذا تكون حالي اذا هبطت وقوداً في جهنم

الفائدة الثالثة الواجب تحصيلها من ذكر بلايا الحياة المزمعة انما
 الازدراء بجميع خيرات هذه الحياة . لاننا ان دفعنا بعد موتنا ذكوة
 للنيران المؤبدة فلا يعود لدينا كل ما في هذه الحياة الا خيالاً فات ولا
 غناها الا زبلاً ولا كراماتها الا هواناً ولا لذاتها الا مرارة . فلودريت
 كيف انقضت حياة موريكوس الملك وشهدت بنيه وامرأته قد ذبحوا
 نحر انصب عينيه ثم ذبح هو طوعاً لامر رجل خائن شرير كان من ليف
 خدامه لكنت بلا ريب تقول هوان كل ما ناله هذا الملك من العز
 والمجد في مدة عشرين سنة باطل بطلاناً وان كان عذابه هذا زمنياً فقط
 اذ مات موت الصالحين . فان كان سموم يوم واحد يذهب يبايع سعادة
 عظمى استمرت عشرين عاماً فاي امر في حرز من سموم ابدية لازوال لعذابها
 ولا حد لا تساعها . فلو كنت ترى اليعابوس قتيلاً منخطاً من فراش تنعاته
 الرفيع الى اقدار بالوعة خائضاً في دمنها اما كنت تعد سعادته شقاء
 وغبطته بلاء . فما قولك اذا شاهدته الان ملقاً في جهنم غريقاً في بحيرة
 كبريت تضبوه ناره الى ابد الدهور تسومه الشياطين شر العذاب

وقابل تينك السنين اللتين قضاها على سرير الملك بالابدية التي يتعذب بها
والفائدة الرابعة ان تأملنا في العذابات الابدية ينكب بنا عن اسراف
الزمن عبثاً لانحلو منه بطائل . فان في تأمل ما يكابده الهالكون من
العذاب في جهنم بلا نفعٍ داعياً اليه وبعثاً عليه ومحرضاً على الانتفاع من
الزمن . خبرنا بطرس رجينا لدوس عن راهب ورع كان يصلي واذا بعويل
ونواح طرق أذنيه فقال من الباكي هنا فقيل احد الهالكين . فقال
الراهب وما سبب عويلك وبكائك . قال الشقي ما يبكيني ويوغر قلبي
حزناً انما ذكر الزمن الذي اضعته سدى . واعلم ان مثل هذا الذكر
مجلبةٌ للدمع المتون عندنا قوم الهالكين . فاشقى حال الذين خسروا ابدية
سعيدة لاجل تضييعهم زمناً وجيزاً . فلا نتلفن الان بفساد اللذة ما لانقدر
فيما بعد ان نصلحه بكفارة النوح والبكاء بل فاسقوا على ما فات واقرعوا
السن ندماً على ما اجترحت من السيئات انما الندم نافع الان حزراً من
ان تندبوها في عذاب جهنم ضياعاً وخسراً

خامساً ومن اخص المنافع التي تعود علينا من تأملنا في العذابات
الجهنمية ان تمقت الينا الخطيئة ونمقتها أشد المقت لانها مدرجة لذك
العذاب الجهنمي وموذية اليه . ليت شعري هل من شرٍّ أعظم من شرِّ
خطيئة وان خفيفة اذ ان احتمال عذاب ابدٍ في نار مؤبدة لا يصلح كفارة
عنها . ولما كان هذا المضمون لا يستوفي بقصير العبارة ولا يقتصر به على
الايجاز بل يستلزم قولاً مسهباً قصدنا ايراده في الفصل التالي

الفصل الثاني عشر

في عظم شر الخطية المميتة الغير المتناهي الذي يعزلنا عن نعيم السماء الابدي
الى عذاب جهنم السرودي

فانعم يا صاح النظر واعلم ان شر خطية مميتة تقترحها باسرع من
طرفة عين وتشتري بها شقاءً ابداً لغاية في الشر والمقت اذ انه يستوجب
عذاب جهنم الهائل الى ابد الابد . بل اجمع علماء اللاهوت على ان هذه
العذابات الابدية نفسها ليست كفواً لعقاب الخاطي ، ملياً بما اجترح
وعلاوه بان وزر الخطية لاثقل من هذه الشرور الغير المحدودة فكان
عذاب الخطية ظلاً لها والخطية بمنزلة الجسم . ولذلك كان بين الخطية
المميتة وما يلحق صاحبها من المحن في جهنم تفاوت كما بين الانسان
وظله من التفاوت والتباعد . فالخطية اذا وحدها شر محض والنار الجهنمية
بالنسبة اليها ليست الا بمنزلة ظل لضح . ولما كانت هذه النار تجز قضاء العدل
الاهي فلا سبيل الى تسميتها شراً بل لنا ان ندعوها خيراً . وكما يستدل
على عظمة الاجساد من ظلمها كذلك شر العذاب الجهنمي الذي هو كظل
الخطية يُشعر بعظم شرها . فان الخطية تلحق بالله عظيم المهوان وقبيح
الاحتقار ولا يخفى ان الاهانة بقدر فضل المهان وسموه فالتسامي المهان
وتعالى شأنه تتجاسم الاهانة ويقبح الافتراء . فلما كانت العزة الالهية
اللاحق بها احتقار الخطية غير متناهية كان الاحتقار اللاحق بها غير
متناهٍ

ولعمري ان الالهانة التي تخلق افتراءً تقع عند الجميع أشدَّ موقع
من الكرامة التي تحق وتلزم. فلو أقدم أكار على شريفٍ ولطم خدهُ ضربةً
بغير عدلٍ لحقَّ له أن يلهب عليه غيظاً فوق ما يخامرهُ من السرور والفرح
عند تكريم الشعب واحترامهم له. ومن ثم فلا غرو من ان خطيئة مميته
اختلقتها خليقة الى اله لا يتناهي جلال عزته تكون اعظم في نوعها من كل
اكرام الملكة والقديسين كافة. وعليه فشر الخطيئة غاية في العظم حتى
يستحيل على خليقة ان تفي عنه باستحقاقها وفاءً تاماً وتسال عنه الصنيع.
فلو لم تكن خطيئة ادم تغوي في كل نسله مفسدةً ولم يخطىء داود النبي
ولا اساء فعلاً بولس الرسول ولا اثم إثمًا القديس اغستينوس ولا اجترحت
جرماً مريم المجدلية ولا جاءت نكرًا مريم المصرية بل ولو اعتزل عن
وجه البسيطة كل اثم مخلوق من البشر والملكة ولم يبق من اوزار
الخطايا المميته الا خطيئة فكر سوء ارتضى به ادنى الناس لكان شر هذه
الخطيئة عظيماً جداً حتى لا يستطيع خليقة من الخلائق ان تعطي عنه للعدل
الالهى كفارةً وافية موازية. ولو ان الله لقاء هذه الخطيئة امر بان
تتشقق السموات وتتساقط الكواكب وتزلزل الارض زلزالها وتجف
البحار وتقلّب العناصر وتدنك راسيات الجبال وترمُّ البشر وتحوّل الى
رماد وتخطّ الملكة عن كراسيهم ويعود كل شيء الى العدم لما توفى
عدل الله حقه. ذلك لان تهدم السموات واضمحلال البشر واعادة الملكة
الى العدم لا يخرق حدّ المتناهيات. والله المهان فوق كل محدود وذنونه

كل متناهٍ ولا قياس ولا مناسبة بين الغير المتناهي والمتناهي وتصعد به
 ادلة القياس وبالتالي انه لا مناسبة ولا شبه بين عذابات جميع الخلائق
 والاسية الى الخالق. فلو تكلف الشهداء اوجاعهم الحادة وتحمل المعترفون
 صعاب تقيضاتهم واذرفت والدة الله المحيطة دمعاً هتوناً حياتها كلها
 كفارة عن هذه الخطية ونذرت لله ما لها عنده من الاستحقاق تبرعاً
 وتطوعاً لقصر كل ذلك عن نيل مغفرتها ولا وفي به ولا وازاه فاستحال
 التكفير عنها على غير ابن الله. فتلك مسأتك وهذه مقدرتك على ان
 ترم شأنها ايها الانسان ذاك فعل أساءته وهذه كفارتك عنه فسبيلك
 ان ترتعد فرقاً عند ذكرك انه لا يستحيل عليك ان تجرح اثماً مثل الذي
 اجترحت

ولكي يتضح لك جلياً ما اجسم شر الافتراء على الله فاعلم وترو لاني
 كنه الفعل فقط بل في اعراضه ايضاً وهي سبعة كما رواه القديس توما
 اللاهوتي واجمع عليه جمهور العلماء اللاهوتيين. قالوا يتكيف كل فعل
 خطية مميته بسبعة اعراض تعرف بظروف الحدوث فكل فعل حادث
 لا يخلو ان يتخلق بها. والاول هو ما يلحق الفعل المميته من قبل فاعله.
 والثاني ما يلحقه من قبل الشيء المفعول. والثالث ما يلحقه من قبل
 المكان الذي يفعل فيه. والرابع ما يلحقه من قبل الوسائط التي يفعل بها.
 والخامس ما يلحقه من قبل الغاية التي يفعل لاجلها. والسادس ما يلحقه
 من قبل النوع الذي يتم به الفعل. والسابع ما يلحقه من قبل الزمن الذي

يكمل فيه الفعل . وضاف اريسطو تاليس اليها عرضاً اخر وهو ما يلحق الفعل
من قبل الشخص المفعول ضده ذلك الفعل

واذ تقرر ذلك نقول ان الظروف المذكورة تكسب الخطية جرماً
ومقتاً . واولاً من يرتكب الخطية فان هو الا انسان مظنة الاحتقار ومالف
الازدراء يبارز بمعصيته الله ربه ويجترئ ببيع فعاله على باريه فلو اقدم
على ذلك اله مثل الله لكان فعله نكراً وجاء اداً . فا اذا اقدم عليه من
اخذ من حماة وجعل من طين

ثانياً فلنعتبرن ما يفعل الخاطيء اذا اخطأ . قال القديس انسلم ان
فعل من يخطيء كفعل من يريد ان ينزع عن الله تاج ربه فينتوج به
وعند القديس بزدوس انه كمن يروم ان يقتل الله . اما الرسول الالهى
فينزله منزلة من يحاول ان يطرح ابن الله تحت رجله ليدوسه او يصلبه
ثانية (عب ١٠ : ٢٩) . فلوا جترأ احد بمثل ذلك على بعض الملوك اما كان
ذلك كافياً لان ترضض عظامه وتمزق احشاؤه وتهدم بيوته وتستاصل
ذريته . فهذا عين ما يفريه الخاطيء بخطيته على الله الضابط الكل ورب
الارباب وملك الملوك فلا ريب ان مجرد التفكير في هذا الامر يوجب
المتأمل خوفاً ورعبة . ايها الاله القدوس من ذا يستطيع ان يفسر ما
يجترئه الخاطيء عليك وعلى نفسه ايضاً انه يتناهى في احتقار عزتك الالهية
ويدوس ناموسك الاقدس ويستهزى بعدلك ويضحك من مواعيدك
ويجاهر برذل مجدك المعد له فيصد عنك ويستاسر للشيطان الى الابد .

فيتوخي رضی عدوك وعدوه الالد ولا يترضاك ايها المحب السماوي الخلوص
فيرغب الى مهلكه عنك ياموثل الخلاص ومحمد كل خير فكأنما اثر لديه
ان يموت بئس ميتة في جهنم وساء القرار من ان يجي حياة ابدية في
السماء بخدمته عزتك وطاعته لنواميسك

ثالثاً فلنعتبرنَّ اين لا ينصح الخاطي ، بهده بل يخون ربه انه
ياتي نكره هذا في عالم الله تعالى وبرأى منه عز وجل ويحيط علماً بان
ربه وخالقه الذي يخطي ، اليه بجرأة شاهد لما يجترح فهو عليم بذات
الصدور ولا تخفى عليه خافية . فان امكن الانسان ان ياثم حيث لا يبصره
الله لكانت مع ذلك خطيئته عظيمة جداً فاذا ركب اثماً في منزله تعالى
وبرأى منه . فاية جهنم لا يستوجب مثل هذا النكر الفظيع ومن ثم
فما كان يذرف النبي من الدموع السخينة ويشعر به من الم دونه رشق
القلب بجاد السهام لم يكن عن غير داعٍ فكان يقول لله نائباً هائداً اليه
الشر قدامك صنعت . بل لا يخلتق الخاطي ، شراً في بيت الله ونصب
عينه فقط بل يجترئه عليه والله يجمله على ذراعيه ايضاً ويحفظه بقدرته
الضابطة . فلو قام عقوق يلطم امه ويخذش وجهها وينهش ذراعيها ويطعنها
بسكين بينما هي تلاطفه وتضمه الى صدرها مما وقر فيها من حبه اما
زل عند الناس منزلة شيطان متجسد بل شر منه . فتلك حالة الانسان
وذاك شأنه اذا اساء الى الله بينما هو رقيه محتاط عليه ويحفظه بين
ذراعي عنايته الضابطة

رابعاً فاعتبر كيف يخلق الانسان الخطية ويم انه يسدد
 نحو خالقه أسنة اهائه له فانه يقنط نعم ربه ويتخذ أحساناته مدرجة
 لاحتقاره ويرد عليه افضاله تعالى عن كل وصم . فان كان المجود بالنعم
 والكفران بها عند الناس شيئاً وشائبة وعدم وفاء يعينه الجميع ويأباه فما
 ظنك فيما اذا رد الاحسان على المحسن واساء اليه استعماله وما ظنك بخيانة
 جندي يشرع على قائده سنامه ويجرد عليه سيفه الذي قلده به فهذا انما
 ينعلمه الانسان ويكون على ربه ضداً . لان النطق الذي رزقنا الله عزت
 قدرته وباقى قوى الجسد والنفس يستخدمها الخاطيء لافتراء المعصية ولا
 يقف عنده بل يغالي في اجترائه واتقاه الى ان يستنجد الله في فعل السوء
 كبر الله عن كل سوء ويستظهر به عليه وهذا ما يشكو منه تعالى بلسان
 اشعيا نبيه قائلاً : انك استخدمتني في خطاياك اش ٤٣ : ٢٤ . فان
 الانسان لا يقدر ان يحرك يده او يباشر عملاً مادياً طبعياً إلا بمعاونته عز
 وجل وتوفيقه فاذا هو حرك لسانه بالتمرر او يده للسرقة اذا هو يستعمل
 الله في اسائه الى الله اجارنا الله من كل امر منكر

خامساً والغاية التي يقصدها الخاطيء بخطيته تزيد اثمه اثماً وخطيته
 قباحة . فاعتبر لم يجترح الخاطيء اثماً فيحرك عليه حفاظ ربه وما يبعث به
 على احتقار خالقه وخيانة ربه ومالك ارقاب العباد وما يجمله على ان
 يدوس ابن الله برجليه ويصلبه ثانية وما يوسوس اليه ذلك لعل ما
 يحركه الى هذا النكر القطيع قصده ان يلاشي العالم او ينقذ بشراً

من الهلاك ويطوقه منة الخلاص او يتخذ قبح فعله مدرجةً لتأله كالأ
ثم كلاً . بل انما نرغاه الى ذلك لذة ذنية دنسة وما سوله له لغرض ألمي .
وعلى الاطلاق انه يفعل ذلك لانه يشاهُ للداعية اخرى . فياله من
اجترأ فطيع واتقاح قبيح بليغ . ياله من نفاق ردي وممقوت فكيف لا
ترجم السموات من يهين الله خالقه بصواعقها . وتلاشي من على وجه
الارض يتجاسر بمثل هذه الجسارة على بارئها جلت عزته

سادساً فلنعتبرن نوع ارتكاب الخطيئة الذي يزيدا ثقلاً . فان
الانسان يخطيء بعد ان سمع وشهد شدة انتقام الله من الخطاة بعد ان
عرف ان ابهى الملائكة الذين كانوا في السماء قد استحالوا الى جمر
اسود جهنمي لفكر واحد ردي . وان والدنيا الاولين طردا من فردوس
النعيم ودُحرا في هذا الوادي وادي الدموع لمجرد تناول ثمرة قد نهيا
عنها . وبعد ان رأى السموات هائلة طوفاناً عرمرماً على الارض كلها
ومنزلة ناراً محرقة على مدن كثيرة لاجل الخطيئة لاغير . وبعد ان ابصر
الارض فتحت فاها وابتلعت اناساً كثيرين مع كل ما يملكونه لتمردهم على
موسى . وبعد هذا وهذا كيف يجاسر الغبي الوقح على ان يخطيء . وذلك
لامر يليق ان يذكر بل لمراضاة ساطانائيل واثاره على الله ربه ونصر الرجيم
على السيد المسيح الذي يود التملك على انفسنا

سابعاً فلنعتبرن الزمن الذي ترتكب فيه الخطيئة . فالمسيحيون الان
يخطيئون بعد ان رأوا سيدنا يسوع المسيح مسمرّاً على الصليب دفعا للخطيئة

عنهم يخطئون بعد ان رسم تقديس اسمه الاسرار المقدسة دواء لهم ولا سيما سرّ جسده ودمه الاقدسين وذلك لم يفعله تعالى لاجل الشيطان قبل ان يخطيء . أفلسنا اذ ذاك اشرّ من الشياطين انفسهم . أفأ كان يجب كما قال القديس اغستينوس ان الله يخلق جهنماً اخرى لاجلنا . اذ اننا حزنا من الجود الالهي نعماً اوفر من تلك التي حازتها وتحوزها الامم في الناموس الطبيعي . أفلسنا لذلك نستوجب عقاباً اعظم من عقابهم

وقد قرره بما جرى للقديس مكاروريوس وهو انه اتفق يوماً ان هذا القديس كان ذاهباً في البرية فوجد في طريقه جمجمة فحوّلها من الطريق بطرف عصاه . فظفقت الجمجمة تتكلم فسألها حينئذ القديس قائلاً : من انت فاجابه صوتٌ خرج منها . اني كنت كاهناً للوثنيين الذين كانوا قد ما يقطنون هذه الامكنة والان انا معهم في قلب نار محرقة فقال لها القديس : هل ثم من مكان اكثر عذاباً من الذي انتم فيه قالت : اعلم ان في جهنم تحتنا مكاناً اكثر عذاباً من مكاننا بما لا يوصف . وفيه يتعذب الذين عرفوا الله ومجدوه وأبوا الرضوخ لاوامره . اخيراً نقول ان الخطيئة تزداد ثقلاً وسماجةً من قبل الشخص المفعولة ضده . والحال انه فضلاً عن ان الله كامل وحكيم وبهي وقادر بما لا يتناهى فاننا مع ذلك نسيء اليه وهو يحبنا حباً غير متناهٍ ويحتملنا ويسبغ علينا نعمة الكثيره . ولعمري ان الوحوش بمغزل عن ان تلحق اذى بمن

يجبها ويحسن اليها . فانظر يا هذا ما الذي تعله اذا اسأت الى من انت
احب اليه من حياته وأعظت من يمن عليك بكل خير لكيلا تسيء فعلاً .
فخف اذا هذا الرب العظيم واحترم عزته الالهية واجب جوده الفائق
ولا تغظه بخطيئة ولا تتخلق عليه نكراً

ولقد يجب ان نعلم ايضاً ان الخطيئة من حيث ذاتها امرٌ شنيعٌ
مكروه وفي مكانة من السماحة حتى لو فرضنا عدم وجود الله وهو فوق كل
كمال لوجب ان نبغضها بغضاً لا يحد وهذا ما اجمع عليه الفلاسفة
الوثنيون . ومنهم سينيكا وشيشرون وارسطو تاليس الذي تفوه بهذه
الكلمات العسجدية قال : خيرٌ لنا ان نموت من ان نقدم على امرٍ يضر
بالفضيلة . ويثبت هذا القديس اغستينوس بقوله : لو كان في وسعنا
ان نبطل يوم الدينونة للزنا مع ذلك ان نحيد عن الشر ونصنع الخير .
وقد كشف الله على نوع عن شناعة الخطيئة بمحادثة نادرة الوجود

خبرنا فيلانكوس المؤرخ انه لما كانت سنة الف ومائتين وثمان
وتسعين خرج كاسانوس ملك التتر الوثني على بلاد سورية بجيش جرار
وكانوا زهاء مائتي الف خيال . فاستولى على البلاد المذكورة وعظمت
صولته وددت منه في قلوب الملوك الرعبة حتى اضطر ملك ارمينية الى
ان يزف له ابنته زوجةً وان مسيحيةً . فلم تمض مدة حتى حبلت الملكة
فولدت ولم يكن على مولودها لوائح بشرٍ لما افرغ فيه من السماحة
والقباحة فحار الملك في امره ثم غضب على الملكة . وانكر ان المولود من

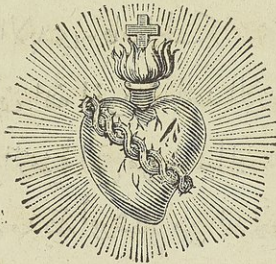
زرعه وظنَّ بها انها زانية فحكم عليها بالموت . اما الملكة البارة فرفعت الى الله اكف الضراعة وعادت به من هذه المحنة فاعوز الله اليها أن استأذني الملك بتعميد المولود منك قبل ان تموتي فاذنها الملك به فيما عمَّد المولود حتى تحوَّل من حال القباحة الى حال الجمال والبهاء فدهش الملك من هذه الاعجوبة وامن بالسيد المسيح الذي اظهر بهذه الاية جمال النعمة وقباحة الخطيئة . ولم يكن هذا الطفل الذي ولد بهذه البشاعة المستكرهة ملطخاً بادران خطيئة فعلية بل مشيناً بشائبة الخطيئة الاصلية ليس غير . فما حال الذين باختيار ارادتهم يرتكبون خطيئة مميته وما بشاعتهم . لقد ذهل بلينيوس الفيلسوف من ان بعض الصواعق تذيب السيف في غمده ولا تثلم الغمد اصلاً بل يبقى سالمًا صحيحاً كذلك الخطيئة فانها تتلف النفس المحجوبة تحت ستار الجسد ولا يمس الجسد منها اذى فكانها صاعقة من جهنم بل اضرَّ من جهنم نفسها وماذا نقول عن الشرور التي تتولد من الخطيئة فلو كانت الخطيئة افضل ما في العالم لوجب لما يتفرع عليها ان نبغضها اكثر من الموت وذلك لانها تعدنا النعمة وتبعدنا عن الروح القدس وتسلبنا حقنا في الورث السموي وتنزع عنا جميع استحقاقاتنا وتصيرنا غير اهل للعون الالهي وتدحرنا بعد الموت في دركات الحجيم وقوداً ل نار ابدية . وفي هذه الحياة تجاب علينا بلايا لا تحصى . فما من طاعون ولا حرب ولا جوع ولا مرض الا سببته الخطيئة . ومن ثم يجب على الذين يجزنون ويكون مما احاق

بهم من المصائب الزمنية ان يحزنوا ويبكوا على مصدرها وعلتها اي على الخطيئة وانما من هذه الشكوى لان تلك لان هذه ولو واحدة لجديرة ان تذرف عليها كل دموعنا بل دموع اهل المسكونة باسرههم .
والبكاء على غيرها ضرب من الحماسة

ولعمري ان ما يهد الطريق لهذا الوحش الشنيع اعني به الخطيئة انما محبة الاشياء الارضية . كما ان ما يسد دونه الطريق انما الارتياح الى الاشياء الابدية

فلينظرنَّ اذا الانسان الى اية جهة يجب عليه ان يميل بعواطف قلبه وليصغ الى مشورة الحكيم القائل : قلب الحكيم من عن يمينه وقلب الغبي من عن يساره (جا ١٠ : ٢) . فان الرجل الحكيم يعلق قلبه وعواطفه بالاشياء الابدية والغبي الجاهل ينيتها بالامور الزمنية . وعليه كما قال القديس ايرونيموس في تفسيره نص هذه الاية سوف تحزن الجهال محبوا العالم في يوم الدين اذ يكرهون على الوقوف من عن يسار الله ويحكم عليهم بالهلاك الابدى . فاما الحكماء محبوا السماء فيفرحون اذ يقامون من عن يمين ابن الله ليفوزوا بالمجد الابدى . فلنستأصلنَّ اذا من قلبنا محبة الخيرات الزمنية التي من شأنها ان تمهد الطريق للخطيئة . انه لما انقذ المكابيون مدينة اورشليم من ايدي الامم ودخلوا الهيكل المقدس وجدوا مذبح المحرقات مذنساً فحاروا في ما يجب عليهم فعله وترددوا بين ان يقيموا الخدمة لله على هذا المذبح اذ خصوا اولاً بعبادته وبين

أن يهدموه لأنه قد تدنس بعد ذلك بما صُحِّي عليه من الذبائح للشيطان
قال الكتاب المقدس فاختاروا بين الامرين احسنها وهو الثاني فهدموا
المذبح المقدس وشادوا مذبحاً اخر من حجارة جديدة (١ مكاء: ٤٧: ٤٧).
فلنقتدين اذا بهم لنستمسك بالذي هو احسن ولنقم بمنحاة من اسباب
الخطيئة بل ولنستأصل شأفتها . لانه ان كفى المكابيين لهدم المذبح
واقامة مذبح غيره خصّ بالله ان يكون اناس غيرهم اخطأوا ودنسوه فلم
لا نتجنب الاسباب التي افضت بنا لا بغيرنا الى الخطء . ولا جرم من ان
محبتنا الاشياء الزمنية اوقعتنا مراراً في ورطة الخطيئة فيلزمنا اذا ان
نزول من قلوبنا كل انعطاف لا يتجه الى ما هو ابدي . ولا يكفي ان نحذر
نقلع عن كل ميل الى الخيرات الارضية فقط بل يجب علينا ان نحذر
من هذه الخيرات الخداعة الختالة ونكون منها على منحاة واجتناب على
الدوام



المقالة الخامسة

في ما بين الزمني والابدي من الفرق من حيث الوسائل
التي منحنا الله تعالى لاكتساب الخيرات الابدية
والنموذجات التي قدمها لنا لاختتار
الاشياء الزمنية

وهي تسعة فصول

الفصل الاول

في ما بين الابدي والزمني من الفرق من حيث ان الابدي
هو الغاية والزمني هو الوساطة الموصلة اليها وفي الغاية
القصوى التي خلق الانسان لاجلها

فلنتكلم الان قليلاً عما بين الابدي والزمني من عظيم البون
من كون الابدي غاية والزمني واسطة مؤدية اليها . فاعلم ان الله
جعل الابدي غاية الانسان وجعل الانسان غاية لكل زمني . وقد
خلق الانسان لاجل الابدي لكي يربح كماله الغائبي ويفوز بعبطه
السرمدية . وخلق الزمني من اجل الانسان لكي يستعمله بقدر ما
يسر له ربح الابدي . فامعن اذا النظر جيداً ايها الانسان واعقل حسناً
الغاية التي خلقت لاجلها واياك والحيد عنها . تعلم ان المجد الابدي ليس
امراً يحق لك طبعاً لان الله انما خلقك برحمته الغير المتناهية لكي تفوز
بهذا المجد ولما كان تعالى قادراً ان يبدعك لاجل كمال طبيعي لم يفعل

بل دعتهُ رحمتهُ العظيمةُ الى ان يخلقك لاجل سعادة ابدية ولاجلك ذرأً
بقية الخلائق . واما انت فلم يخلقك الا لاجل ذاته فقط . فمن حيث
هذه الغاية ما من احدٍ من الملائكة والشاروبيم والساورويم يفوقك شرفاً
فاستشف اذاً ما يجب عليك . فان الله خلقك فانت له تعالى بكليتك
وكل ما تفعله فعليك ان تفعله لاجله عز وجل فان الزارع اذا غرس شجرة
فله حق التصرف بكل اثمارها . ثم ما من سلطة اعظم من سلطة الغاية
على كل ما هو منتظم اليها ومرسوم لاجلها كما ارتأه المعلمون اللاهوتيون
الفلاسفة . فان كنت انت مديناً لله بكل ما لك من حيث ككونك
وذلك لانه تعالى هو علة وجودك وكل ما انت حاصل عليه فانت تحت
دين له يفوق ذلك باضعاف لكونه علتك الغائية لانك بالعلة الاولى
اتخذت كوناً محدوداً وبالعلة الثانية اهلك الله الى كون الهي غير متناهٍ
ومكينك من امتلاكه

والحال اننا نرى كل شيء يميل طبعاً الى غايته ويطلب ما استطاع
الوصول الى مركزه كالنار والحجر مثلاً . فبهذا العزم والاجتهاد بل باشد
منه جداً كان ينبغي ان تلمس الهك واليه وحده يجب ان ترتاح واياه
يجب ان تبغى بكل قوى نفسك وقدرة جسدك وعواطف قلبك .
ان الحجر اذا سقط يكاد لا يبالي بالوقوع في الماء ام في النار او لا يعباء
بالانكسار والتسحق وكان حسب البوع الى محوره ومركزه كذلك انت
اذا اثرت الوصول الى الله غايتك فلا يجب ان تبالي بخسارة المال او

تكثر بالكرامة والشان او تعباء ببعض اعضائك ايضاً . واذ قد تحقق
ان الاشياء المخلوقة لا تجد بها راحة ولا قراراً طبعياً الا في مركزها . فلا
ينخدع عن اذا قلب الانسان برجاء انه يجد راحة وسلامةً خارجاً عن الله
خالقه

فكل عمل لا يطابق غايته عمل انسان جاهل غبي لانه ان اراد
احد ان يتحرز من البرد في اَبان الشتاء فيخلع عنه ثيابه ويتعد من النار اما
كنت تعده انساناً غيباً احمق . والحال ان هذه الحال حالتك انت
الذي تبغي خيرا بالابتعاد عن الله وعدم طلبك اياه في كل شيء .
فهذا هو الضلال القطيع المتوغل فيه بنو البشر كما لحظ القديس
اغستينوس . انهم يشتهون السعادة ويحصلون اشقياء لانهم يجهلون نوع
التماسها

ان قوة العلة الغائبة لعظيمة جداً حتى ان الاشياء المنظومة اليها
تكتسب منها اعظم ثمن ولو كانت تلك الغاية دنية حقيرة . ولم تكن تحصل
على تلك القيمة لو نظمت الى شيء اخر ليس بغايتها وان جزيلا الثمن .
كسكة الفلاحة مثلاً فهي شيء معتبر عند الفلاح ويشترى بها بدراهم
منقودة فاذا وهبها لمصور يستعملها في صنعة التصوير فيأبأها ويلقيها عنه
بعيداً . كذلك الدواء مهما كان مرأفوشياً معتبر عند المريض ويشترى به
بثمن . اما اذا كان متعافياً صحيحاً فيحتره وينبذه كارهأ بل الاناء الدنس
المستعمل لخدمة الجسد اذا وضع في مكان خفي مختص له فهو شيء

نافع وتطلبه الناس الا انه اذا ما وُضع في موضع ظاهر وبين آية فاخرة
فتشأز الناس منه وتسحقه . فالاشياء اذاً يجب ان تقع طبقاً لغايتها وان تكون
منتظمة اليها . ان الاشياء الحسيسة تكتسب اعتباراً من غايتها وان فاتها
هذا الانتظام والمطابقة تكون محقرة ولو تسامت الى سحب السماء .
فانعم اذاً النظر ايها المسيحي وتامل انك منظوم الى غاية سامية جداً واسمي
ما يمكن ان يكون وهي مجد الله جلّ جلاله فلو خلقك الله لكي تخدمه
بدون ان يعذك بمجده لوجب عليك ان تعتبر ذلك اعتباراً عظيماً . الا انه
تعالى بجوده الغير المتناهي احب ان تكون غايتنا لخدمته فقط بل التمتع
به ايضاً والاشتراك بمجده . وبهذه الغاية السامية قد اشبهنا لا الملكة
فقط بل الله نفسه ايضاً فكما انه تعالى ليس له سعادة ولا غاية سوى
ذاته الغير المتناهي فضلها هكذا اراد الا تكون غايتنا وسعادتنا غير غايتيه
تقدس اسمه وسعادته

ومن ثم فاعلم كم يجب عليك ان تعتبر الابدي اعتباراً سامياً من
حيث انه متعلق بغايتك . وبعكس ذلك فتعلم كيف لا يجوز لك ان
تعتبر الزمني بذاته بل من حيث هذا الاعتبار فقط وهو لانه يمكن ان
ياول بك الى اكتساب الابدي . فلا شيء اذاً في الزمني يستحق ان
يجب ويرغب من الانسان الا من جهة اننا نصل به الى الله وخلا هذه
فهو بذاته دون الطفيف . فكما ان المسافر المتقصد الوصول الى مكان
لا يبالي بتشعب الطرق واختلافها بل يسلك سبيلاً يؤديه الى المكان

المقصود ولا بعينه ان يكون الطريق يمتة او يسرة سهلاً او جبلاً وعراً او
 ودياناً هكذا يجب ان نتصرف بالزمنيات ونتقلب فيها تقلب متجرد من
 كل ميل اليها فلا نحب ولا نكره شيئاً زمنياً الا بقدر ما يتقرب به الى
 الله او يبعد به عنه سبحانه . فان كان الفقر يقودك الى الله فاعتقه بكل
 عزم قوتك واحبه فوق كل شيء وان كان الغنى او الفخر العالمي يبعدك
 عنه تعالى فاحتره وارذله واقه عنك بعيداً وان كان تغافل الناس عنك
 واحتقارهم اياك يسديك الخلاص فافرح به وان كانت الكرامات العالمية
 تصدك عن خدمة خالقك او تحول دون مرضاته فابغضها اكثر من
 بغضك الموت . وان كانت الالام والتعب والالام تبلغك الى معرفة مخلصك
 فهنيء بها نفسك . وان كانت اللذات تصيرك عديم الوفاء نحو ربك
 المحسن اليك . فباين جميع تمنيات هذه الحياة ولذاتها كىلا تعدم تنعم
 الحياة العتيدة . فمن هذا يفهم ما رواه القديس اغستينوس وجمهور المعلمين
 اللاهوتيين من الخلاف بين الاشياء . وهو ان بعضها يجب ان نتمتع بها
 وبعضها ينبغي ان نستعملها فقط . فالاشياء التي ينبغي ان نتمتع بها هي
 ابدية واما الاشياء التي يلزمنا ان نستعملها فقط ولا يجوز لنا ان نتمتع
 بها على وجه ما فهي زمنية . فيسيء الانسان تصرفاً في حياته كما قال
 القديس المتقدم ذكره اذا استعمل الاشياء استعمالاً ردياً وتمتع متمتعاً
 ردياً . وبخلاف ذلك يحسن الانسان تصرفاً في حياته اذا استعمل
 هذا العالم استعمالاً جيداً وتمتع بالله متمتعاً حسناً

وقد يجب ان نعتبر هذا الامر جيداً وهو ان استعمالنا الخلاق
المتنهي بنا الى الخالق هو احتقارنا اياها . لان الله رام ان يسهل لنا
الوصول الى غايتنا تسهيلاً هذا حده حتى انه لا يمكن ان تعوزنا واسطة
لبلوغها فعوز كل شيء يقدر ان يعيننا على الوصول الى غايتنا . فما هي اذا
المصيبة والضرورة التي تقدر ان تحزننا ان كان لا يمكن ان تعوزنا واسطة
موصلة بنا الى الخلاص حينما يعوزنا كل شيء . ولعمري ان كون الشيء
واسطة موصلة الى الخلاص الابدي فخر عظيم جداً حتى ان ربنا والهنا
الذي هو البدء والغاية لكل شيء مخلوق احب ان يكون لنا واسطة
لنيل الخلاص . وذلك بتجسده وموته وسر جسده ودمه الاقدس .
فان كان الله اختار هذه الواسطة العظيمة الامينة لكي تبلغ بها غايتك
فكم يجب ان تحذر من ان تذل واسطة مفيدة للوصول الى هذه
الغاية ولو كانت شيئاً مستصعباً تنفر منه الطبيعة . لانه يكفي ان يكون
هذا الشيء مما يسهل لك الخلاص ولو قليلاً ويزيده ثباتاً ولو يسيراً
فان كان هذا الشيء مرضاً او اهانةً وما يشبه ذلك فيستحق ان تعبره
وتقبله لاجل ربح الملك السموي

ان الذي يسافر في البحر الى الهند يختار لنفسه سفينة جديدة
امينة لاعتيقة خطيرة . فانت الذي تطلب الوصول الى السماء ينبغي لك
ان تسير في الطريق الايمن وان تعتقد ان هذا الطريق الايمن الموصل
الى السماء هو طريق صليب سيدنا يسوع المسيح واتضاعه وميتوته .

وَأذْكَتْ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَشْتَهِي الْأَفْضَلَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَفْضَلَ الْأُمُورَ صَالِحَ
السَّيْرَةِ . فَاصْلِحْ إِذَا سِيرْتَكَ وَزِدْهَا صَالِحًا . وَاعْتَقِدْ أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ
تُرِيدَها صَالِحًا إِلَّا بِالْإِقْتِدَاءِ بِحَيَاةِ مَخْلُصِكَ أَيَّ بِإِحْتِقَادِكَ الْأُمُورَ الزَّمْنِيَّةِ .
ضَعْ نَصَبَ عَيْنَيْكَ غَايَتِكَ عَلَى الدَّوَامِ لِأَنَّكَ كُلَّ مَرَّةٍ تَصْرِفُ عَنْهَا نَظْرَكَ
تَضِلُّ وَتَرْتَلُّ قَدَمَكَ

ولعمري ان الجميع لفي هذا الخطر . لان هذه الحياة تشبه جسراً
عالياً ضيقاً ليس عرضه أكثر من قدمين وتحتُهُ وادٍ عميق جداً مملوءاً
تنانين وحيات وافاعي فاتحة افواهاها لتبتلع من يسقط فيه . وفي اخر هذا
الجسر مغارة صغيرة ينبعث منها قليل من الضياء من خلال الظلام الدامس .
فمن يمشي على جسر كذا ليلاً وليس له من يقوده أما كان يحذر جداً من
ان يصرف نظره دقيقة واحدة من الزمن عن ذلك الضياء اليسير الذي
به يرشد وينقل خطواته . فلو عرف انه بتحويل نظره لحظة واحدة يحصل
على كنوز الارض كلها فهل يفعل ذلك او يخطو خطوة واحدة الاً محققاً
الى ذلك الضياء الطفيف . فهذه حالنا لان حياتنا جسر ضيق جداً ونجتازهُ
في ظلام ليلة هذا العالم . فلا يمكن ان نجو من خطر الزلزل والسقوط الاً
بملازمة النظر الى غايتنا التي هي النور الالهي الذي يضيئ لنا في ظلام
هذه الحياة . ولنعتمد ان راحتنا وسلامتنا تتوقف على ان لانطلب
شيئاً اخر سوى الله او لاجل الله وبه قائمة حرية بني الله الحقيقية . على
ان احتقار العالم هو راحة النفس والفطنة الحقيقية هي المطابقة الارادة

الالهية . واخيراً ان اس كل فضيلة هو ذكر هذه الحقيقة بلا انقطاع وهي
 انا خلقنا لكي نعبد الله خالقنا وليس غير

الفصل الثاني

في ان الانسان بمعرفة ذاته يقدر ان يعرف

كيف يجب عليه ان يستعمل الاشياء

الزمنية الحقيقية بالازدراء

ان الطيب الحكيم لا يكتفي بان يعقل صفات الادوية وغايتها
 فقط بل يجتهد في ان يعرف طبيعة المريض ومزاجه ايضاً . فهكذا يجب
 على الانسان الا يكتفي بمعرفة ماهية الاشياء الزمنية وغايتها فقط بل
 يلزمه ان يعرف ذاته ايضاً ولهذا قال الذهبي فمه : ان من لا يعرف ذاته
 لا يستطيع ان يتصرف بذاته تصرفاً واجباً . فيجب اذاً ان نعتبر في الانسان
 ما هو له من ذاته وما هو له من الله . فالذي له من الله جيد كله الا
 انه ليس للانسان ان يفتخر به لانه قد قبله من الجود الالهي . اما
 الذي للانسان من ذاته فقد اوردته مجمع اورانج قائلاً : اننا لسنا شيئاً
 بالذات غير الكذب والحطية فهذا هو العدم الذي كنا فيه فيما تقدم .
 هذا هو الشر الذي نحن حاصلون عليه الان فدع عنك جانباً كل ما اقتبلته
 من الله فترى انه لا يبق لك سوى الكذب اي العدم . وانك قد كنت
 هذا العدم والذي بناه الله على ذلك فليس هو من قبلك بل قد قبلته
 منه وهو بكيته له تعالى . ومن ثم لا يجوز لك ان تستعمله كحسب

غرضك بل كحسب مسرة الله . فانظر ما اكثر ما يجب عليك ان تتضع
من اجل انه ليس لك شيء بالذات سوى العدم . قالت الفلاسفة ان
ما بين العدم والوجود بعداً غير متناهٍ . فاذا كنت انت عدماً لم يكن
لك بالذات امكان الوجود لان هذا الامكان اعني امكان وجودك هو
شيء مختص بقدرة الله . فلك اذاً هنا وسيلة عظيمة للاتضاع . لان كونك
عدماً هو بر عميقة جداً مع ان هذا كلاً شيء بالنسبة الى كونك خاطئاً .
فهذا اذا تأمله القديسون جمد دهم في مفصلهم وقوم منهم اذ اراهم
السيد المسيح حال كونهم في الخطيئة فكادوا ان يموتوا من افراط رعبهم
وخوفهم لولم تعنهم يد الله القوية

فاعلم اذاً انك بعد فعل الخطيئة تكون قد صرت شرّاً نظير شرّ
الخطيئة . فشخص في ذهنك شر الخطيئة الغير المتناهي الذي تكلمنا عنه
في ما سبق وكل ما تحويه من العيب والسماجة والقباحة فان هذا جميعه
في مرتكبيها . فكما ان الشيء الاسود يوازي بسواده سواد ما صيره اسود
هكذا الخاطئ يكون سجعاً قبيحاً شنعاً نظير شناعة الخطيئة . فليتأمل
الانسان الخاطئ هل يليق به ان يستعمل الاشياء المخلوقة كما كان
يجوز له ان يستعملها لو كان في حال البرّ نظير من لم يرتكب خطيئة
ابداً . فليعلم من ذلك هل يجوز له الان وهو على حال هذه الحباثة
والشر ان يستعمل الاشياء المخلوقة لاجل لذته وجاهه وافتخاره . هل يليق
للخاطئ الاكرام . فكيف يسوغ لمن خان ربه وخالقه وقد استحق

عذاباً ابدياً ان يطلب كرامة وتنعماً وكيف لا يحتمل بصبر مرضاً وجيزاً
 يمكنه به ان يربح خلاصاً موبداً . تأمل ما فعله ابن الله نفسه فإنه اذ تردى
 بظاهر الخاطي ، مع كونه القداسة بالذات لم يستعمل خيرات هذه الحياة
 وملا ذها . لكنه اعتق كل ما وجد فيها من المرائر والاعتاب . فكيف
 يجوز لمن هو خاطي ، حقاً ان يتبغى الكرامات والملاذات . فتعلم الان
 الوسائط التي يلزمك ان تستعملها وقدرتها السيد المسيح وهي التوبة
 والامانة والصليب . ان القديس فرنسيس بورجيا الذي احتقر العالم
 ونفسه ايضاً احتقاراً عجيباً كان يلقي في هذه الاعتبارات سروراً وافراً
 ما بين اتعاب هذه الحياة ومرائرها . وكان يهرب من كل راحة وملذة
 ويلتمس ما يؤلم الجسد ويضيق عليه . حتى ان كل من كان يشاهد جزيل
 تعب هذا القديس ونصبه من الفقر في سفره كان يأخذهُ التحير والذهول .
 فسأله يوماً احد اشراف دولة اسبانيا قائلاً : كيف يمكنك ايها الاب ان
 تحتمل هذه الاعتاب . فاجابه البار : لا يجمعن قلبك علي لاني في سفري
 ارسل امامي دائماً الى المكان المقصود مني واحداً يهني لي كل شيء
 حسناً . وهذا المرسل المتقدم امامي هو معرفتي ذاتي التي تصير لي كل
 ضيقة وضرورة تنعماً ولذة



الفصل الثالث

في ان تجسد ابن الله يوضع لنا كم يجب ان
نعتبر الاشياء الابدية

ان ما بين الابدي والزمني من عظيم الخلاف يتضح لنا جلياً من
تجسد ابن الله ايضاً . فان اكتساب الابدي واحترار الزمني هما شيان
جزيلتا الاعتبار والضرورة ولذلك احب الله ان يتجسد ويتألم . ولعوري
اننا لانجد شيئاً يوضع لنا عظمة الابدي وخساسة الزمني نظير هذين
المعلمين الالهيين . ولذلك يجب ان نتكلم عنهما قليلاً . واوّل ما عن سرّ
التجسد الذي يجب ان نتأمل فيه اربعة اشياء . اولها عظمة العمل ثانيهما
كيفية تكميله ثالثها الشرور التي صدرت منا رابعها الخيرات التي اتتنا به
فقبل ايراد عظمة العمل يجب ان تعلم ان الجنس البشري الذي
كان لسبب الخطيئة اسيراً للشيطان ومهاناً ومداناً ومحكوماً عليه بالعذاب
الابدي ومبغوضاً من الله . كان قد بلغ اقصى غاية من الشقاء ولم يعد
له رجاء النجاة من ذلك . لانه لو مات بنو البشر جميعهم الف مرة وقدمت
الملئكة باسرههم ذواتهم لله ذبيحة واختاروا ان يمتلوا جميع العذابات
الجهنمية لما استطاعوا بهذا كله ان يكفروا عن خطيئة واحدة مميتة تكفيراً
تاماً . فلم تتمكن اذاً خليقة قط من الوفاء عن الخطيئة وكذلك لم يكن ممكناً
ان نرجو ذلك من الخالق لانه تعالى كان المقترى عليه والمهان . فلو يكون
ما لا يمكن وجوده وما نرجو من الله ان يأذن لنا بافترضه لكي نفهم تلى

وجه ما عظمة هذا السرّ الغير الموصوف . اي لو يكون حفظ حياة الله
 ولاهوته متعلقاً بفعل التمجسد لكان يمكن ان نرجو منه تعالى ان يتجسد
 لاجل خلاص البشر . مع ان ذلك شيء حقير وان يتجسد الله لاجل حفظ
 عبد خائن ولاجل مجد عدوه . فمن ذا الذي كان يرجو ذلك ولو كان
 الانسان خدماً لله كعبد امين فالتى نفسه في حال هذا الشقا الذي هو عليه
 وذلك لاجل حفظ مجده تعالى وكرامته لكان ربما يجوز لنا ان نعذر من
 خالجه فكره هذا الظن المنحرف عن الصواب . وهو ان الله حملته حمية
 الوفاء ومعرفة الجميل على ان يتخذ كل احتياط لينقذ به الانسان من
 حال شقائه . ولما احبّ تعالى ان يتضع ويتلاشى بصيرورته انساناً وذلك
 من اجل الانسان الذي اختلس مجده واحتقره جاء امرّاً الا يخطر لبشر
 ببال ولم يخالجه فكر انسان . فهذا هو الجود الالهي الذي يجزئ احسانه
 يفوق كل ما نرجو . ويصنع لاجلنا ما لو فعله لاجل نفسه لما امكن ان
 يفعله بنوع اعظم من الذي فعل . فيا لمحبة الله العجيبة وبالسخائه الغير
 الموصوف اذ اراد ان يفي عن عدوه بثمن غير محدود . وان يحسن بتكاف
 لا يوصف وباعظم الخيرات الى من كان فعل اليه اعظم الشرور والحق
 به اقبح الاهدانات

فتامل الان اولاً عظمة هذا العمل الالهي الذي قال عنه القديس
 اغستينوس : ان الله لم يقدر ان يصنع اعظم منه ولا ان يخترع احسن منه .
 على انه لمن المعلوم انه لا يمكن ان يوجد عمل اعظم من العمل الذي يصير

به الانسان الهاً . فالله اذاً اذ رأى ان الانسان يفعل الخطيئة صنع ما لا
 يمكن ان يصير شرّاً منه . رام هو جل جوده ان يصنع ما لا يمكن ان يصير
 احسن واكثر جوداً منه اقترح عملاً فائقاً ذا جودٍ غير متناهٍ نظراً الى
 جوهره واعراضه . لانه من المستحيل ان يوجد عمل اكثر جوداً وصلاحاً
 من العمل الذي به اتصف الانسان بكل جود الله وصلاحه . او اعظم
 خيراً من الذي به اشرك الله بلاهوته ادنى الخلائق الناطقة وانتصر
 بجودته على شرّ غير متناهٍ . وانقد الانسان الخاطيء مما كان يستحقه
 من العذاب الابدي . اي نعم ان هذا العمل لجيد بما لا يدرك حده .
 لانه به اتضح ميله تعالى الغير المتناهي الى الرحمة وتجلّى كمال عدله الغير
 المحدود . وذلك بتحمّله ما كان ملتزماً بوفائه رجل شرير اثم وباتضاعه
 حتى الموت موت الصليب لخلاص من كان قد حكم عليه بموت ابدي .
 اللهم انت متسرّب بكل كمال وصلاح وكل من كمالك وصلاحك لا
 حد له . لقد اكلت كل ما كان يقتضيه عدلك الالهي واظهرت مع
 ذلك جودك الفائق على نوع عجيب لانك عاملت ذاتك بغاية الصرامة
 لكي تعاملنا باعظم مراحمك

تأمل ثانياً كيفية هذا العمل الكلي جوده والمستحق كل حيناً . انه
 لمحبة جزيلة مفرطة ارتضى الله بان يخلص الانسان بواسطة انسان . وان
 تحتم لذلك انه هو تعالى نفسه يصير انساناً لا ملاكاً حتى اذا ما خلاص الانسان
 من شقائه يكون مجدداً مكرماً . فما اعظم هذا الاكرام الذي لم يُعط

للملئكة حيث ان الله الذي لم يغفر للملئكة مع انهم بالطبيعة اُسمى مناشرفاً
وكملاً أحب ان يفعل العظام ليغفر لنا . وما عدا ذلك فانه اذا اخطأ
الانسان وهبط الجنس البشري باسره منحطاً عن سعادته لم يبق منه
صديق يستطيع ان يتحنن عليه ويقدم عنه صلواته وابتهاالاته . خلافاً للملئكة
الذين اذا اخطأوا بقي منهم كثيرون في حال البر يشفقون على هلاكهم .
ومع هذا فقد احب الله ان يمن بهذا الاحسان على الانسان لا على
الملئكة

تأمل ثالثاً ان كثرة الشرور المفعولة منا في الزمن الذي أنجز
فيه الله هذا الفعل الكلي الرحمة توضح لنا جلال الجود الالهي نحو
الجنس البشري لانه حينما كان العالم نسي الله بالكلية . وكانت الناس
تجتهد في ان تكرم كلهم . والذين لم يبلغوا اربهم هذا الردي كانوا
يسجدون لاناس اكثر شراً من الشياطين . ففي هذا الزمن الكلي الشقاوة
نفسه اي حينما كان الانسان يريد ان يصير الهاً عنوة عن الله اراد الله
ان يصير انساناً من اجل الانسان

تأمل اخيراً ما نشأ عن هذا العمل الالهي العجيب من الخبر لانه
لو ان الله لم يصنع بنا خيراً لكفانا انه اتقنا من شرورنا . حيث انه بواسطة
تجسده الالهي نجانا من عار الخطيئة ومن اسر الشيطان ومن العقاب
الجهنمي . ثم انه لو كان الله لم يجد عند تجسده شرّاً اتقنا منه ولم يهرب
لنا تعالي خيرات جديدة جليلة فقد كانت ضرورته سبحانه ابناً لطبيعتنا

وصيرورتنا انساب الله احساناً لا نظير له

قد خبر يوستينوس المؤرخ الوثني عن اسكندر الملك انه لما ابصر
ليسيكوس مجروحاً في رأسه ويجري من جراحه دم غزير نزع عن تاجه
مندبلاً ملوكياً وبه مسح دم الرجل المحبوب منه وعصب جراحه . فتعجب
الحاضرون من محبة اسكندر لاحد عبيده مع ان فعله هذا كان مع رجل
لم يُسِيء اليه قط بل كان عين الملك سبب هذا الجرح . فاما الانسان
فقد كان بالخطيئة جرح ذاته واسأ الى الله باريه . ومع هذا فتقدم تعالى
ليداوي الانسان ويشفيه وبفعله هذا لم يمنحه شيئاً مما يمتلكه في الخارج .
لكنه منحه تاجه الالهي اعني به لاهوته . فيا لفرط هذه المحبة ما اعظمها
ويا لعدم ادراك هذا الاحسان ما اوفره

الفصل الرابع

في ان دناءة الاشياء الزمنية تتضح لنا من الام

سيدنا يسوع المسيح وموته

حقاً انه ما من شيء يظهر لنا خساسة الاشيا الزمنية ووجوب احتقارها
بأجلى مما يوضحه الام ابن الله وموته . فانظر الان كيف انه تعالى آثر
بلايا هذه الحياة واحتقر كل خيراتها وذلك لا بالكلام فقط حينما دعا
الغني شوكا واخص المساكين بالغبطة والطوبى بل بالفعل ايضاً . لانه
لم يوجد خيرٌ زمني الا لحقه منه بعض الاذى فثلم صيته وعُدَّ شراً

منافقاً . وسأه الغنى والمقتنى لأنه فسب كل ما له حتى اثابه
وذاق من المذات مرارة علقم ولم يرو عطشه المذيب بقطرة ماء ولو قر
اوجاعه وعظمتها دُعي من اشعيا النبي رجل الاوجاع (اش ٥٣ : ٣) .
ولم يبق عضو من اعضاء جسده الا تألم بالم خصوصي ولذلك اوصانا
تعالى بان نتذكر الامه على الدوام لاجل المثال الذي قدمه لنا بها
قد ذكر عن تيفرانس ملك الارمن انه لما قهره كورش ملك العجم
في الحرب وتغلب عليه واسره وزوجته . واتفق ان كورش آكلها
يوماً على المائدة ورأى جزيل حب تيفرانس لزوجته سألها قائلاً : ما
تجود به من البذل اعتاقاً لزوجتك . قال : فدنى لها مملكتي ودمي
وحياتي . فرق حينئذ قلب الملك كورش وغتقهما ورد عليهما ملكهما . فلما
رجعا الى مملكتها سأل يوماً تيفرانس زوجته قائلاً : ما الذي اعجبك في
كورش الملك ودولته . فاجابته الملكة مكافئةً محبته لها بحجة نظيرها
قالت : لم يرقني منه شيء اصلاً ولم ألو منه على امر بل سدّدت
نظري وقصرت فكري وميلي على من فداني بمملكته ودمه وحياته
فاخرجني عن الرق . فان كانت هذه الملكة اظهرت حسن الوفاء
ومعرفة الجميل نحو زوجها المجرّد عزم حسن لم ينجزه . فالذي يجب
على عروس الملك السموي التي لاجلها ولاجل افتدائها لم يعزم تعالى
على بذل دمه وحياته دونها عزمًا فقط بل بذله فعلاً ايضاً
قال الانبا البرتوس الكبير والمعلم اللاهوتي المعظم ان فكراً

واحدًا مقدسًا في الام سيدنا يسوع المسيح يسدينا نفعًا اعظم مما نجنيه من المنفعة بصوم سنة كاملة نقتصر فيه على الخبز والماء مع جلد اللحم الى اهراق الدم كل يوم وتلاوة الزبور كله . وقد ذكر ايضا ان السيد المسيح ظهر للقديسة جرتودا ليثبتها في عبادتها لآلامه المقدسة . فقال لها : انظري يا ابنتي ان صليبي لاجل انه حملني بعض ساعات معلقاً عليه بلغ مبلغاً عظيماً من الشرف وامتلاء العالم من مجده فماذا يكون اذا شرف النفس التي تحملني في ذهنها سنين كثيرة

ولكن لكي نتنع من هذا الذكر المقدس ذكر الام ابن الله فيجب ان نعتبرها نظراً الى الاعراض السبعة المعروفة بظروف الحدوث وقد سبق ايرادها حسبما نصها القديس توما اللاهوتي . فتأمل اذاً من هو الذي يتألم فهو الذي ما من احدٍ يباريه برّاً بل وهو البر نفسه هو الاقنوم القدوس نظير الروح القدس فيتألم البار لئلا يتألم المذنب . يتألم من هو رب الخليقة كلها وسيدها الذي تسجد له الساروفيم وتهابه جميع الطغيات السموية . قال الرسول الالهي : تذكروا ذلك الذي احتمل من قبل الخطاة ضد نفسه مضادة مثل هذه (عب ١٢ : ٣) . لان الجالس من عن يمين الله الاب هو الذي نراه الان معلقاً على الصليب بين لصين . فتأمل اذاً من هو هذا الذي سمر على عود ولم يكن له منزل على الارض . واذكر انه هو ديان الاحياء والاموات . اعتبر من هذا الذي مات على الصليب فترى انه الحياة الابدية نفسها . لاحظ

من ذا الذي قبض عليه اعداؤه وجلدوه وصلبوه . فتعلم انه هو الذي
من مقدسه اخرج ناراً احرقت مخالقي ناموسه
ثم تأمل ماهية عذاباته تعالى التي لم يحتمل نظيرها احد قط . فقد اتصلت
الى هذا الحد من العظمة والافراط . حتى ان الاشياء العديمة الحس
ارتجفت لها . لان الصخور تصدعت والارض تشققت والعناصر اندهلت
والسما اظهرت الحزن والاكتئاب واظلمت الشمس والقمر وبكت ملائكة
السلام لانه لفرط عظمة هذه الاوجاع وقساوتها عرق تعبد اسمه دماً
من قبل مجرد تفكره فيها . وقد اخبرت القديسة جرتودا بعدد قطرات
عرقه هذا الدموي حسبما عرفت ذلك برؤيا ظهرت لها انها كانت سبعة
وتسعين الف وثلاث مائة وخمس نقطات . وفي حال مكابته هذه
الاجواع ذرفت عيناه من الدموع اثنين وستين الف ومائتي دمة . كما
ذكر بطرس كالينتينوس . اما عدد الجلادات التي احتملها فقد سمع يوماً القديس
برزدوس في رؤيا ظهرت له انها كانت ستة الاف وستمائة وست وستين
جلدة . والانبا لانسبر جيوس يذكر ان رجلاً عابداً سمع صوتاً من السماء
يقول هكذا : لو صلى احد الصلاة الربية مائة مرة في كل يوم الى مدة
عشرين سنة اكراماً للجلادات التي احتملها سيدنا يسوع المسيح في الامه
لكان عدد تلاوة هذه الصلوات في المدة المذكورة موازياً عدد نقط
الدم الذي خرج من جراحاته . فعلى موجب هذا الحساب يكون عدد
نقط الدم الذي خرج من جسد يسوع في مدة الامه سبع ربوات

واثنين وثلاثين الف نقطة . فاما اكليل الشوك فقال عنه القديس
 انسلمس انه دخل منه الف شوكة في رأس يسوع الاقدس . ومن يقدر
 ان يصف شدة الامه تعالى بتعليقه على صليب بيديه ورجليه . فهذا لما
 تامته القديسة ليدوفينا بكت بكاء دماً . فلا جرم من ان مريم العذراء
 الجليلة لو لم تقوها نعمة الله لكانت قد ماتت من شدة حزنها عند
 مشاهدة ابنها مصلوباً . قال القديس برزدينوس السباني انه لو توزعت
 احزان البتول المجيدة على بقية الخلائق لما اتوا جميعهم لشدة ما يلحق
 كل واحد منهم من الحزن . فإذا تكون اذا اوجاع ابن الله القانقة على
 اوجاع والدته

واذا ما نظرنا الى مكان الامه قترى انه كان مدينة اورشليم
 حيث بعد دخوله فيها بشرف عظيم واحتفال ملك منتصر قبض عليه
 وقيد خارجاً منها باهانة عظي ليصلب كرجل اثم . واما الذين كانوا
 يسعون في تعذيبه وموته فقد كانوا اناساً من ملته قد انعم عليهم
 باغزر البركات واعظمتها وهم افرغوا وسعهم في تعذيبه . ولهذا شبههم
 الكتاب المقدس بكلاب هائشة واسود زائرة وذئاب خاطفة . واما
 نوع عذابه فلم يرافض منه . والزمن الذي احتمل فيه هذا العذاب كان
 الزمن الذي فيه تجتمع اليهود من كل بلد وقطر ومكان . وفي حال
 عذابه هذه القاسية لم تجد نفسه تعزية البتة لانه لم يتعز برجائه ان
 تكون الامه جزيلة النفع . لانه تعالى كان يعلم بعلمه السابق ان الذين

ينتفعون من الامة قليلون . ولم يتعزَّ من قبل تلاميذه بحفظ الامانة له
 والوفاء . لان احدهم باعه والاخر جرده والجميع تركوه وولوا عنه مدبرين
 حتى لم يحصل على تعزية من قبل والدته ايضا . لان مشاهدته حزنها
 كان لديه تعالى بمنزلة صليب اخر نظير الصليب الذي كان مسمرًا عليه .
 وهكذا لم تكن له تعزية من قبل ابيه الازلي لانه أمسك عنه فيض
 هذه التعزية ولذلك صرخ نحوه قائلاً : الهي الهي لماذا تركتني (مز ٢١ : ١)
 وزد على ذلك انه تقدر اسمه احتمال جميع هذه الالام والاوجاع
 من اجنا نحن الخليقة الحقيرة . مع انه لم يكن يضطره الامر الى ان
 يتالم هكذا لكي يخلصنا من اسر الخطيئة . لكنه رام ان يكابد جميع هذه
 الاوجاع ليظهر لنا جزيل محبته . ويضطرنا الى الاقتداء به ويحملنا الى
 احتقار خيرات هذه الحياة وكل سعادة زمنية . فمن اجل هذا تكلف
 وفاء ديننا باحتمال هذه العذابات القادحة . فلننظرنَّ اذاً الى انفسنا في
 هذه المرأة الجميلة لثقف بها سيرتنا ونظهر نحوه عزَّ وجل عواطف
 الحنو والاشفاق ومعرفة الجميل . ولتترق قلبنا حزنا وندماً لاننا اسخطنا
 مثل هذا الاله الصالح الذي احتمال لاجلنا جميع هذه العذابات واحسن
 الينا بمثل هذه الخيرات ليصيرنا ا خياراً . ولتعجب من عظمة جود الله
 الذي احبَّ ان يتلاشي من اجل خليفة حقيرة . ولنجب من احبنا هكذا
 ولنتكل على من صنع لاجلنا اكثر مما كان يمكن ان نتغي بل اكثر
 مما يمكن ان نتصوره . ولنقتدين بهذا المثال الالهي المقدم لنا من الاب

السموي على جبل المحجلة لتصير حياتنا شبيهة بموته . وذلك بالاتضاع
واحتقار كل خير زمني . حتى اذا ما اتضعنا امامه يرفعنا واذا ما تاملنا حبا
به نكتسب العبطة الابدية . وبعد شرب مرار هذه الحياة نذوق لذات
الحياة السعيدة السموية وبعد دموع قليلة وجيزة نتمتع بالافراح الدائمة

الفصل الخامس

في ان الابدني جزيل الاعتبار من حيث ان الله اراد ان
يكون الواسطة لربحه و رسم سر جسده ودمه
الاطهرين عربوناً عن ذلك

ان ربح الابدية لامر باهظ معتبر جداً . وانه تعالى يشتهي ان يربحه
اشتهاء جزيلاً حتى انه بعد ما صنع لاجل ذلك عظام مذهلة العقول
اغني بها تجسده والامه . ضاف اليه فعل محبة مفرطة مذهلة وهو
انه سبحانه اراد ان يكون لنا الواسطة لنيل الخلاص في سره الاقدس
سر الاوخرستيا . فمن ذا لا يرى في هذا سمو الجود الالهي الغير المتناهي
على ان الله القادر على كل شيء . ومصدر جميع الاشياء وغايتها القصوى
ارتضى بان يكون لنا واسطة ايضاً . مع ان هذا شيء مختص بالخلائق
وليس يدل على كمال . وكذا اخضع الله ذاته لاختيار الانسان ليستعمله
واسطة لخلاصه . ولكمال فهم هذا الامر الفائق اعلم ان وسائط خلاصنا
يمكن ان تلاحظ نظراً الى الله ونظراً الى الانسان لان الله والانسان يسعيان
في هذا الامر . فان كان حب عظيم عجب لا يدرك في ان الله جعل ذاته

في التجسد الالهي واحتمال الآلام وسيلة لخلاص الانسان . فكم يكون من الامور المذهلة التي تفوق كل افراط المحبة ان يرتضي الله بان الانسان يستعمل اقنوماً الهيئاً اي الله عينه واسطة لاجل الغاية المذكورة اعني بها خلاصه . وذلك لان ابن الله بصيرورته واسطة للانسان ساوى نفسه مع الماء والزيت والبلسم . لانه كما ان الناس يستطيعون ان يستعملوا الماء في المعمودية لكي يتبرروا والبلسم في سر التثبيت ليتقدسوا والزيت في سر المسحة الاخيرة ليتطهروا . كذلك في سر القربان المقدس يتدرون ان يستعملوا السيد المسيح ليربحوا زيادة النعمة والصحة الروحية . فكم يجب اذاً على الانسان ان يجتهد في ان يبلغ غايته الاخيرة حيث ان الذي هو الغاية الاخيرة جعل ذاته واسطة ليلبغ بها الانسان الى هذه الغاية . فلست ادري هل من مبلغ اسمي منه يستطيع الجود الالهي ان يبلغ اليه . هذا وهل يجب ان تعتبر شيئاً ما زمينياً نظراً الى ربح الابدي وان كان السقوط عن كرامتنا او ترك لذاتنا او توزيع أموالنا على المساكين واسطة مسماة لربح الخلاص فهل يجب ان نستصعب ذلك ونستعظمه بعد ان صير نفسه رب المجد واسطة لنا ومنحنا لذلك ذاته بغير الثقات الى عظمة كونه التي هي اكثر ثمناً من كل شيء

اما اخص الاسباب التي من اجلها رسم هذا السر العجيب هو لكي يكون لنا ذكراً للآلام السيد المسيح ومن حيث انها المحبة الجزيلة الفاعلية في اهتمام الاشياء الزمنية رام تعالى بانواع كثيرة ان نذكرها على

الدوام . لأنه طبع في كفه صورة جسده المتالم . وطبع صورة وجهه في مندبل قدم له ليُمسح به عرقه حينما كان حاملاً الصليب ومسوقاً الى جبل الجلجلة وطبع صورة يديه ورجليه وركبتيه في الحجر الذي صلى عليه في بستان الزيتون . وهذه الصورة عينها طبعها ايضاً في حجر اخر في وادي قدرون حينما كان الجنود يسحبونه . فسقط على الارض وابق بعده اثر يديه ورجليه وركبتيه والحبل الذي كان يسحبه به الجنود فبكل هذه الانواع من الايات اظهر ابن الله كم يرغب ان يستمر فينا ذكر الامه المقدسة

وما عدا ما ذكرناه فقد وجدت اثار الامه على حجار أخر كثيرة . لأنه وجد في بلاد الشرق حجر من يشم وعليه تمثال وجه السيد المسيح مكالاً بالشوك . والقديس لويس غونزاغا اذ كان يتمشى يوماً على شط البحر رأى حجراً صغيراً عليه رسم جراحات سيدنا يسوع المسيح الخمسة . وقد رسم الله هذه الخمسة الجراحات في حجارة كثيرة وفي اشياء اخر عديدة مختلفة . وقد شهد القديس انسطاسيوس السيامي انه وجد زهرة تمثل المسامير والعمود واكليل الشوك . وفي ثمرة الشجرة المدعوة موسى ترى تشخيص صليب وعليه مصلوب . وفي ايامنا هذه يُسجد في مدينة غان لصورة الصليب وعليه مصلوب على اصل زهرة نبتت في اورشليم . ولكي تستطيع العناصر ايضاً ان تفخر بهذا الرسم الشريف أرى الله الفونسوس الاول ملك برتوغاليا في الجوِّ ترساً وعليه رسم جراحات ابن

الله الخمسة . هكذا أرى الله قسطنطين الكبير صورة صليبه المقدس في الجوّ أيضاً الآن أجل الأدلة على ان مخلصنا يرغب كل الرغبة في ان نردد في ذهننا عذابات الامه هو انه جعل رسم جراحاته في اجساد كثيرين من عبيده منهم القديس فرنسيس الكبير والقديسة لوسيا الفرارية والقديسة جرتودا ولاسيا الطوباوية لوسيا التي كان يجري دم من جراحاتها الخمسة كل يوم جمعة . وما اعجب الرسم الذي شوهده على قلب القديسة كلارا . لانه بعد موتها وجدوا على قلبها الطاهر صورة السيد المسيح مصلوباً والعمود والسياط والحربة وبقية الات الامه المقدسة . ولو اردنا كل الاشياء التي عليها رسم الام المسيح وصورته مطبوعة لطلنا بنا الشرح جداً . وهذا كله جعله تعالى ليديم فينا ذكر الامه بمشاهدتنا رسومها . الآن الدليل الاعظم على ذلك هو سرّ الاوخرارستيا . لان هذا السر الاقدس هو صورة موته المقدس صورة حية . وبه يوضع لنا تعالى انه لمستعد ان يتألم ويموت لاجلنا كل مرة تقدم ذبيحة القديس في العالم باسمه . ولما لم تمكنه حال جسده المجيد من ان يصلب ثانية اقتراح جوده الغير المدرك ضرباً من ضرب الاختراع فيه ذبيحة الصليب ويعيد علينا نفع الاقتداء من غير ما يجدد الم ولا اهراق دم فاعتبر اذ ايها المومن قبل تناولك سرّ القربان المقدس من يقبل عليك ومن انت وتامل جزيل عبادة الجليلة مريم العذراء حينما كانت تستعد لحلول الكلمة الازلي في احشائها الطاهرة . ولا ترتب في انه

تعالى نفسه يلج فؤادك وابدل ما فيك من الجهد في ان تتقدم بروح
 عبادة مساو لعبادة تلك العذراء الكلية النقاوة فادن منه بروح المحبة
 والتهيب والشكر على هذا الاحسان الجليل . بل لو امكن الامر لكان يجب
 عليك ان تقبل اليه بافضل من عبادة الطوباوية المذكورة لانك انما نلت
 من جليل احساناته الالهية في سر الام ابن الله وموته ما لم يتفضل به
 تعالى حينئذ على والدته المجيدة ولا من به على بشر غيرها . وكن على يقين
 من انك لمزمع ان تتناول من هو جالس من عن يمين الله الاب من
 بيده مقاليد السلطان المطلق على السماء والارض خالقنا وفادينا ومن
 زمع ان يدين الاحياء والاموات وهو الاله الذي لا نظير له ولا قياس
 لحكمته وقدرته وبهائه وجودته وبقية كالاته الالهية . ترى ما ذهول
 النفس وتهيبها ورعبها ونجلها اذا ابصرت السيد المسيح كما ابصره الرسول
 فعمي من بهاء نوره الساطع . فلا ريب في انه تعالى هو في سر القربان
 المقدس بهذا المجد الالهي باسره . ومن ثم ينبغي ان تدنو من هذا السر
 كدنوك اليه تعالى وهو جالس على منبر مجده . ان يوحنا البشير الحبيب
 لما دخل عليه ملك من السماء ورأى كمال جماله وعزه كاد ان يقضى عليه
 من شدة تهيبه وذهوله . فانت عتيد ان تستقبل في منزلك لا ملكا بل
 رب الملكة كلهم

ويتجلى سخاء جود الله افضل جلاء مما تتقدم اذا لاحظنا لاعظمة
 الاقنوم الذي يمنح ذاته فقط . بل حجارة الاقنوم الذي يقبله ايضا .

فمن أنت لست الأخلقة دنية مجبولة من طين عرضة لكل شقاء وجهل
 وشر وضعف . فان كان قائد المائة عد نفسه غير أهل لان يدخل السيد
 المسيح بيته . وهامة الرسل بطرس المعظم اذ رأى هذا الرب على الارض
 طلب ان يتعد عنه لأنه رجل خاطى . والقديس يوحنا المعمدان
 احتسب ذاته غير أهل لان يجلس سيور حذائه . فكم يجب عليك انت
 ان تحسب نفسك غير أهل لان يجلس فيك الجالس بمجد عظيم من عن
 يمين الاب الازلي والملئكة لا يجدون طهارتهم كفوواً اتجاه عزته . فكم
 ينبغي ان تكون تقاوتك لكي تاويه في قلبك . ان سليمان الحكيم اصرف
 سبع سنين في بناء الهيكل ليضع فيه تابوت العهد . فانت اذ تروم ان تعد
 نفسك هيكلًا لله فكيف لا تصرف في ذلك نصف ساعة . وموسى الكليم
 لما أراد ان يصنع تابوتًا ليضع فيه لוחي الناموس اختار خشبًا ثمينًا وطلاه
 بالذهب . وانت يا دودة حقيرة كيف لا تهيب ذاتك وترينها لتقبل
 واضع الناموس نفسه

اما كيفية منح الله هذا الاحسان العظيم فمن شأنها ان تذيب القلب
 بالمحبة . واشير بذلك الى شوقه تعالى الكلي الجود الى ان يتخذ بنا وتواضعه
 العجيب الذي به يهب لنا ذاته الالهية ويجعلها مأكلاً . ولهذا يجلس راسخ الشرائع
 الطبيعية ويجترح معجزات أعظم من التي اجترحها على يد موسى في مصر .
 فتأمل انت بعد تناول القربان المقدس ما الذي يجب عليك ان تفعله .
 واحتسب ان السيد المسيح الجالس في غرفة قلبك يسأل نفسك كما

سأل رسله بعد ما غسل أرجلهم قائلاً: اتعرفين ايها النفس ما الذي صنعت بك . أتفهمين عظم إحساني اليك وجلال عزة من يتخذك مسكنًا له . فاعلمي انه الهك وربك ومخلصك الذي يرغب خيرا غاية الرغبة قابلي احسانه بشكران الجميل وحسن الوفاء . ولا تحبي شيئا على الارض سواه لانه هو خيرك الاعظم والابدي

الفصل السادس

في انه ينبغي ان نلتبس في صلواتنا الخيرات الابدية

انه يفيدنا جدا نفهم الفرق بين الابددي والزمني ان نعلم ان منح الخيرات الزمنية ليس في مكانة من الاعتبار عند الله . لانه جل ثناؤه يهبها أحيانا للاشرار بطريق النعمة والعذاب . ولهذا قد شك كثير من العلماء في جواز طلب الخيرات العالمية من الله فذهب المعلم الملتي ماري توما انه لا يجب ان نلتبس من الله باطلاق الطلب غير الاشياء الروحية والابدية . واما الاشياء الزمنية فلا يجوز ان نطلب منها سوى ما يفضي بنا الى اكتساب الاشياء الابدية . فالصلاة التي بها تطلب الخيرات الروحية والابدية هي الغصن الرمزي المدعو في سفر النشيد غصن بخور يستلذه الله . وقد أحسن القديس غريغوريوس اذ قال : ان هذه الصلاة تدعى غصن بخور . لانها اذا طلب بها السمويات فقط تصعد متسامية فلا تزال طالبة الابديات

ولهذا فد لحظ المعلم بالودانوس ثلث نقائص في طلبه ام ابني زبدى .

النجاسة الاولى هي انها في طلبتها لم تحفظ النظام الواجب . النجاسة الثانية هي ان نيتها لم تكن نية خالية عن عاطفة لحمية . النجاسة الثالثة هي ان موضوع طلبتها كان شيئاً باطلاً . والحال ان هذه الشوائب الثلاث توجد في صلاة من يطلب الاشياء الارضية بغير نظر الى الاشياء الابدية وخلواً عن الرغبة لئليها . فاولاها عدم النظام لانه ليس من يصاد النظام مثل الذي يطلب الدني القليل مهملًا العظيم الكثير . والذي يطلب لا الشيء الغير الضروري فقط بل الشيء المضر ايضاً . ويتغافل عما يحتاج اليه اشد الاحتياج . ان النفس تحتاج الى نعمة الله اكثر من احتياج الجسد الى القوت . وبالنتيجة انها اكثر احتياجاً منه الى العون السموي لان قوات المجيم لا تزال متسلحة لمحاربتها ظاهراً وخفياً . فالذي يهمل طلب العون الالهي على ذلك ويوجه صلواته الى طلب الاشياء الزمنية فيكون جهله كجهل رجل اضناه ظاء مميت في بركة قفرة في حر الصيف ووقت الظهيرة فصادف رجلاً مجتازاً باناء مملو ماء صافياً بارداً . فبدلاً من انه ياتمس من فضله بضراعة الطلب ان يروي ظمأه المذيب يطفق يلمس منه ثوباً من صوف لا يعني عنه الا في ابان الشتاء .

ثانياً وفي طلب من يطلب الاشياء الزمنية على النوع المذكور شائبة عدم نقاوة النية . لان مثل هذه الطلبة لا ترافقها غالباً نقاوة النية والامانة الروحية اللتين تصيران صلواتنا مقبولة لدى الله تلك النار التي كانت تستعمل لاحراق البنور كانت تؤخذ من مذبح المحرقات دليلاً

على انه لكي تكون صلواتنا مرضية لله يجب ان تكون صادرة عن قلب مضطرب مقدم للعزة الالهية كحرفة . وذلك بواسطة تقدمت له تعالى كل حركات قلوبنا واشواقها . فالذي يطلب شيئاً زمنياً على نوع آخر سبيله أن يخشى من ان يمنحه الله مطلوبه بغضب وانتقام كما منح الاسرائيلين السلوى . ولذلك اذ كان الطعام في افواههم طلع عليهم رجز الله وقتلهم . واعمرى انها لمجاسة قبيحة وقحة شنيعة معاملة الانسان الله ربه واستعماله اياه وسيطاً لئيل ما سيكون او يمكن ان يكون سبباً للتباعد عنه تعالى الذي هو غايتنا الاخيرة . لاننا بالخيرات الزمنية نجيد عن الانعطاف نحو الاشياء الابدية . وتتغاضى عن محبة الباري تعالى الذي هو غايتنا القصى ونستجده في بلوغ اغراض اخر مضادة له نعوذ بالله من هذا النفاق . فلنطلب فقط ما يجدي نفوسنا نفعاً ويسدي الله سروراً ومجداً لنظائير الاشياء الروحية الابدية ونعمة الله ومعرفة والافتداء بانه الوحيد واحتقار العالم ورغبة كل ما يطابق ارادته الالهية . فهذا ما ينبغي ان نطلبه لانه خيرنا الحقيقي . ولا جرم في انه تعالى يمنحنا حقاً

ثالثاً وفي طلب الخيرات الزمنية شائبة بطلان الاشياء المطلوبة . لان كل سعادة وعظمة زمنية تستحق ان تحرق لكونها دنية وجيزة كاذبة وسريعة الزوال . ولذلك تلك المرأة الرمزية المقول عنها في سفر الرؤيا احبت ان تتكلم بالشمس التي هي رمز الابدية لاجل كمال دائرتها (رؤى ١٢ : ١) . فاما القمر الذي هو رمز الى الاشياء الزمنية لتفسيره المتصل

فكانت تطأه بأرجلها . فنتعلمن أذاً كيف يجب ان نصلي ولا نضل في هذا الامر الباهظ على ان الضلال يزداد بقدر الامر الذي نضل فيه . وبالنتيجة ان الضلال في الصلاة يكون ضرره عظيمًا جدًا وذلك لانه امر الهي قد اوصانا الله به وواسطة ضرورية للخلاص . وقد وعدنا السيد المسيح اننا بها ننال منه كل شيء . فلا نطلبن أذاً باسم مخلصنا يسوع المسيح ما لم يرد ان يموت لاجله بل لنطلبن خيرات السماء خيرات الخلاص الابدي التي اشتراها لنا بثمن دمه وجاد بنفسه بدلًا عنها

الفصل السابع

في ان الذين جمعدوا الخيرات الزمنية ليربحوا الخيرات

الابدية لفي مكانة من الغبطة وعلى

جانب عظيم من السعادة

لاريب في ان جمعد الخيرات الزمنية امر يليق بالاعتبار لان ابن الله يجثنا على ذلك بمواعيد عظيمة بقوله : من ترك ابا او اما او اخا او اختًا او بيتًا أو حقولًا لاجلي فانه ينال في هذا العالم عوض الواحد مائة وفي الاخرة حياة الابد (مت ١٩ : ٢٩) . فاعظم ما بين الزمني والابدي من البون والفرق في هذه الحياة ايضًا . مع ان رجاء الخيرات الابدية ولو مجردًا من كل خير زمني يعني عنا ما لم يغنيه امتلاك جميع الخيرات الزمنية . فيا لعظم سعادة الذين فهموا هذه الحقيقة وبدلوا من الارض السماء . وهذا الوعد الالهي يتم حقًا في الرهبان كما قال عنهم الانبا ابراهام

اب واحد تركوه في العالم يجدون في الرهبنة مائة ابٍ وبدلاً عن اخٍ واحد يجدون مائة اخٍ يحبونهم محبةً اخويةً مسيحيةً . وعضواً عن حقلٍ اوبيت واحد يجدون مائة حقلٍ ومائة بيت . وذلك كما قال الرسول الالهي لاشيء لهم وهم لكل شيء ما لكون (كو ٦: ١٠)

حتى وان لم يحصلوا على ما ذكرنا فلهم ضعفه بل اضعافه ولهم وفور فيض التعزيات الالهية التي يمنحهموها الله لترحمهم خيرات هذا العالم ولنسكهم وتشفاتهم . وهذا قد ذكره القديس برزدوس عن رهبانه الذين كانوا في دير الوادي المضي . انهم كانوا يجتنون من صياماتهم وتشفاتهم تعزيات عظيمة حتى اوجسهم ذلك خيفة من ان الله اراد ان يثيبهم جزاهم وأجرهم في هذه الحياة وانه تعالى اعطاهم هنا فردوساً على الارض لانهم مزعمون ان يعدموه فيما بعد

وقد ذكر عن واحد من هؤلاء الرهبان يدعى ارنولفوس . انه اذ سمع يوماً وعظ القديس برزدوس اضطرم قلبه بنشاطٍ عظيم جداً فترك اموالاً غزيرة ومعها ترك لذات العالم وكراماته . واعتنق فقر الرهبانية وصرامة مذهبها وسار في الدير المتقدم ذكره سيرة مقدسة ولما عظم فيه من النشاط في ممارسة التشفات دهمته امراض الية جداً حتى كان من شدة المله يغشى عليه مرات كثيرة . وحينما كان يرجع الى ذاته ويستفيق من غشيه كان يصرخ قائلاً : حقاً قلت يا يسوع الصالح : فظن به يوماً بعض الحاضرين انه يقول هذا على غير هدى . ولذلك قال لهم

المريض ان الذي قلته يا اخوتي فقد قلته بكامل الانتباه . ان السيد المسيح وعد في انجيله المقدس ان من يترك لاجله اباً او امّاً او ثروة ينال في هذه الحياة عوض الواحد مئة وبعد هذه الحياة القصيرة ينال حياة ابدية (مت ١٩ : ٢٩) . وها هو ذا انا الان مختبر صدق وعده الالهى بنفسى . لان رجائي المجد الابدي قد ردّ لي كثرة اوجاعي هذه لذينة جداً حتى انني لست ارتضي بازلتها ولا بنقصها . وهي عندي الذ واجل من كل ما تركته في العالم بل اجل مما يفوق عليه مائة الف مرة . فان عاملي الله بمثل هذا وانا الخاطيء الكسلان وصيرّ اوجاعي الذ من تنعمي القديم . فما الذي يصنعه مع راهب مجاهد نقي صديق

ولعمري ان الذين يفكرون لاجل السيد المسيح يمتثلون فرحاً لسببين . اولهما هو عين الفقر الذي كما قال سينيكا الفيلسوف ينزع عن محبيه حمل الهموم الثقيل ويصير لهم النوم على الحضيض بغير فراش الذ جداً من النوم على الفرش الناعمة الفاخرة . ثانيهما هو نعمة خصوصية يمنحها الله من شأنها ان تفيض لذات السماء على الذين تركوا لذات الارض . ثم انهم يجتنون نفعاً جزيلاً من احتقارهم خيرات العالم . وهذا يوازي ايضاً المئة الضعف . لانه لو يعطى العالم كله لدرء خطيئة واحدة فقط لم يكن الثمن موازياً . والحال ان الفقر الانجيلي واحتقار العالم يمنع خطايا لا يحصى عددها . لانك ان سددت باب الغنى سددت معاً باب الفخر والصلف والكبرياء وبقية الخطايا التي تصدر منه كصدور الدخان من

النار. وما عدا ذلك فان الفضائل من عاداتها ان ترافق الفقر الانجيلي كالالتضاع والقناعة والادب. ولا ريب ان هذه الفضائل لافضل ثمناً من جميع كنوز الملوك. واما شرف السلطة الحاصل عليها المساكين بالروح فهو اضعافه. لان اسر الاغنياء شهواتهم وتعبدهم لاشياء دنية ارضية هو عار عظيم عليهم وبعكس ذلك القاء المساكين بالروح عنهم نير هذا الاسر الثقيل وتسلمتهم على اشياء هذا العالم بفقدهم اياها الامر الذي يجتهد الآخرون باطلاً في امتلاكه هو شرف واکرام عظيم لهم. ولذلك أحسن القديس يوحنا كليمكوس اذ قال : ان الراهب المسكين سلطان العالم بأسره. لانه بتوجيه افكاره كلها الى الله يصبح رب هذا العالم ويضحي الناس بمنزلة خدام له. فيا لعظم سمو حكمة هذه المشورة الالهية التي بها جعل الله الفقر ثمناً لربح مجده ومهد الطريق لكل احد لاكتسابه.

الفصل الثامن

في ان كثيرين احتقروا الاشياء الزمنية كلها وجمدوها ان دناءة الاشياء الزمنية وما يمس هذه الحياة من الضرر منها الامر واضح حتى وقف على حقيقته واحاط به علماء فلاسفة الامم الذين كانوا بمعزل عن نور الايمان. ولذلك اريستيدوس احد اشرف مدينة اتيना لم يكن يلبس سوى خلعان رثة ولم يسد جوعه ابداً واذ قدم له احد الاغنياء كثيراً من الذهب فنبذهُ ولم يرد ان يقبله

منه . وقد خبرنا القديس غريغوريوس النريزي عن زينون الفيلسوف
الوثني . انه لما بلغه ذهاب كل امواله قال : اني منذ الان فصاعداً يسهل
عليّ السلوك طبقاً لمبادئ الفلسفة . وهكذا انا كسفراس اذ سمع بذهاب
امواله قال : لقد كانت اوبقتني لو لم تهلك هذه . واما كراتس
الفيلسوف فقد التى مبلغاً عظيماً من المال في البحر قائلًا : انني اغرقك
يا أموالي لئلا تغرقيني . ونظيره ديدوجينس امواله كفاة ولم يبق له
سوى زبديّة واحدة . ولما رأى انه يمكن ان يكون له عنها غناء القاها عنه
ايضاً . واسكينس الفيلسوف لما سخر به احد اغنياء مدينة رودس قائلًا له :
اني اقسم بالالهة اني اذ اراك على حال هذا الفقير يتجمع قلبي عليك . فاجابه
الفيلسوف قائلاً : اني اقسم بالالهة اني لما اراك غنياً هكذا يتمزق قلبي وجعاً
وتأسفاً عليك لعلي بالمرآة المسببة من الغنى . فان كان مثل هؤلاء قد كفاهم
نور فلسفة طبيعية ليزدروا بالغنى ويرفضوه هكذا . فما النحل الذي يجب
ان يشتملنا نحن المسيحيين اذ لا يكفيننا لذلك نور ديانتنا الفائق الطبيعة
وهو جزيل التأثير . حتى ان الذين اضاء لهم قليل من أشعته عزموا عزمًا
عجيباً وعقدوا قلوبهم على صعاب الامور وعددهم يفوق الادراك . وها
نحن نورد هنا اخبار البعض منهم

قد ذكر انه في دير الصفوف الذي كان على شط بحر النيل وكان
يضم اليه مائتي راهبة كانت راهبة منهن اسمها يسيدورا يحتسبها الجميع
ساهية فاقدة العقل . ولذلك كانت الراهبات يزدرين بها ويسخرن

بها ويلطمها محقرات كانها كلبة . اما هي فسكانت بصبرها افضل من حمل .
 لانها كانت تخدم جميعهن باتضاع عجيب كانها آمة وتمارس جميع الوظائف
 المتعبة المحقرة وتمشي حافية على الدوام بثياب رثة وعلى رأسها منديل وسخ بال
 ياباه الجميع . فاحب الله ان يظهر سمو قداستها لواحد من متوحيدي ذلك
 العصر وكان اباً شهيراً ذا سيرة حسنة وقشفة وقداسة عظيمة يقال له الانبا
 دويني . فظهر له ملك وقال له : انه ليس لك ان تفتخر بحال سلوكك
 هذا وان كنت تسير سيرة مقدسة منذ سنين عديدة لان في دير
 الصفوف راهبة اسمى قداسة منك . فقم واذهب الى الدير المذكور
 تجد هناك ابنة على رأسها تاج تلطم نهارها كله وتحتقر وتهان وهي مع
 ذلك لا تضطرب ولا تسجس البتة ولا تزال تذكر الله واياه تبارك . واما
 انت فمع كونك متوحداً تدع افكارك تجول في العالم كله . قال هذا
 الملك وتوارى عنه . فنهض حينئذ ذلك الاب المذكور وذهب الى الدير
 المعين . وطلب ان يخاطب الراهبات جميعهن . فأتين كافة ليشاهدن
 الرجل القديس المشتهر بالفضل والقداسة . فلما حضرن امامه اخذ ينظر
 اليهن ليرى تلك الراهبة المشار اليها . فلم يجد تلك العلامة على واحدة
 منهن فقال لهن : هل بقي واحدة منكن لم تحضر الي . فاجبته ان جميع
 راهبات الدير ماثلات امامك . اما الاب القديس فقال لابل منكن من
 لم يكن امامي لاني لست اجد هنا الراهبة التي اخبرني عنها الملك . فحينئذ
 قلن له ان واحدة ليست بحاضرة امامك وهي ابنة مجنونة تخدم

في المطبخ. فقال الانبا ايتيني بها حالاً فاتين بها غصباً وسحبها اليه قهراً. فلما حضرت عرفها الاب القديس من المنديل الرث الذي على رأسها المدعو من الملك تاجاً. ولوقت جثا الشيخ المحترم على رجلها قائلاً: اسألك ايها الام المباركة ان تباركينني وتصيلي علي. فاستحادت الراهبات وقلن له: لقد اخطأت يا ابانا لان هذه الراهبة مأفوكه وعديمة العقل بالكلية. فقال الشيخ لمن: انكن انتن الجاهلات الساهيات العقل لان هذه الراهبة المحسوبة منكن مجنونة هي افضل حكمة منكن جميعاً. ولينعم الله علي في يوم الدينونة بان يكون حظي نظير حظها

خبرنا ايضاً القديس غريغوريوس نيصص عن فيلسوف مسيحي يدعي اسكندر انه كان حسن الهيئة وبهي المنظر جداً فخاف من ان يصير جماله سبب عثرة له او لغيره. فتنغرب وذهب الى مدينة كومانا. واخذ هناك يشتغل بصناعة الفحم واستقام في ممارسة هذه الصناعة سنين كثيرة لم يظهر امام الناس الا باثواب مخزقة ووجه مشوه بسخام الفحم حتى كان يحسب من الناس احقر اهل المدينة وادناهم. فاتفق ان توفي اسقف مدينة كومانا فاتي القديس غريغوريوس الملقب بالعجائبي يقيم عليهم اسقفاً جديداً فقدم له الشعب اشرف من كان بينهم بالاصل والعلم. اما القديس فقال لهم: انه لا يجب ان تقتدوا بتعليم العالم وحكمته فقط. بل ينبغي ان تلاحظوا الفضيلة ايضاً. ثم امرهم بان يقدموا له انساناً فضلاً. ولو كانوا من احقر الشعب. فلما سمع هذا البعض منهم اجابوه بهزء قائلين: ان

كان يمكن مثل هؤلاء ان يصيروا اساقفة فلنقدم لقدسكم اسكندر النحام
الذي ليس احقر منه في هذه المدينة . فاذ سمع القديس بهذا الاسم امر
بالهام الهي بان يحضروه . فلما مثل امامه انفرده به القديس وساله اولاً
عن قضايا خارجة فلما سمع اجوبته استدلل منها على علمه وعظم فطنته .
فشرع حينئذ يستخبره عن شان نفسه وسيرته وطلب منه باجتهاد
الا يخفي عنه شيئاً . فلما عرف امره اعتنقه بحجة والزمه بقبول الاسقفية
فارتسم اسقماً لتلك المدينة . ولم يسمح الله بان لا يكون مكرماً من العالم
من قد احتقر نفسه هكذا حباً به تعالى . وليس الرؤسون من الانام
فقط محقرين هذا العالم بل العطاء والامراء والملوك ايضاً قد احتقروه
ورغبوا في الفقر الانجيلي المقدس . ومنهم كارلوس ملك النمسا الذي
لا فرط حبه وشوقه الى الاشياء السموية تنزل عن سدّة مملكته لآخيه
الصغير وذهب الى رومة بزي رجل فقير وترهب . ولما رأى هناك الناس
يفتقدونه ويكرمونهم انطلق سرّاً الى دير جبل كاسين . وباشر هناك وظيفة
رعاية الغنم . ولما اتفق يوماً ان غنمة من رعيته انكسرت رجلها حملها على
منكبها الملوكة واتي بها الى الدير

ولكي لا نسهب الكلام في ايراد اخبار كثيرين من الذين مجدوا غنى
العالم وفخره ليربحوا خيرات السماء ومجده . فنقتصر على نموذج واحد
يعني عن ايراد اخبار كثيرة . ذكر الانبا توما الكانتبراتي الذي كان
معاصراً القديسة ماتيلدا ابنة ملك سكويا . انه كان لهذه

القديسة اربعة اخوة وكان اولهم اميراً متزوجاً . فترك امرأته على رضى
 منها ونبت امارته وخرج من وطنه ليقتردي بفقر السيد المسيح . والآخر
 كان في اقليم من مملكة ابيه والياً فهجر ايضاً العالم وقضى حياته في
 كوخ متوحداً . والثالث كان اسقفاً فترك ايضاً العالم وترهب في رهبانية
 سيتو . اما الرابع وهو الاصغر المدعو اسكندر فاذ بلغ من العمر ست
 عشر سنة جعل اليه ابوه امر سياسية المملكة . فاذا علمت بذلك اخته
 القديسة ماتيلدا وكانت اذ ذلك بلغت من العمر عشرين سنة انفردت
 به سرّاً واخذت تخاطبه قائلة : يا اخي العزيز اسكندر ما بالك مرتضياً
 بمباشرة امور العالم . الا تنظر الى اخوتنا الذين باينو ليربحوا السماء
 اما تفكر انهم تركوا لك ملكاً سوف يلقى في خطر هلاك نفسك
 وخسارة الملك السموي . فقال لها اسكندر وهو سخي العين . فما
 الذي تشيرين به الي يا اختي العزيزة . اني مستعد لان اتم كل ما تطالبينه
 مني . فقرحت القديسة من عزم اخيها وبمشورتها تنكر كلاهما وسافرا
 معاً الى مملكة فرنسا . واذا وصلا الى هناك ادخلت القديسة آخاها في
 دير من رهبنة سيتو ليكون هناك خادماً على مائدة الضيوف . فلما وجدته
 الرهبان خبيراً في عمل الجبن لان اخته المذكورة كانت علمته ذلك
 فافرعوه لهذا العمل واخيراً مع تلاميذ الزمن قبلوه راهباً ليكون خادماً
 للاخوة . فقالت له حينئذ اخته ماتيلدا . لاشك يا أخي في ان الله يكافئنا
 ثواباً عظيماً لاننا حببنا له تركنا والدينا ووطننا . الا ان اجرنا سيكون أعظم

جداً اذا ما افترق احدنا من الاخر بقية ايام حياتنا. ووجدنا تعزية معاشرتنا
 لكي نجعل كل سرورنا في الله وحده . فلنؤجلن مشاهدة بعضنا بعضاً الى
 حين نلتقي في ملكوت السماء . فاذا سمع اسكندر هذا الخطاب شرع
 يبكي بدموع سخينة وشق عليه جداً مفارقة أخته . الا انه ظفر بكل مانع
 وافترق كلاهما عن الاخر حتى لم يعد احدهما يرى الاخر على الارض .
 فانصرفت القديسة ماتيلدا وتحفت في كوخ بعيد عن دير اخيها تسعة
 أميال . وقضت هناك حياتها عائشة من تعب يديها وممارسة رياضات
 الصلاة والتقشفات الجزيلة وكانت مراراً في صلاتها تغيب عن حسنها
 وتخطف روحها حتى لم تكن تسمع صوت الرعود ولم تر ضياء البروق .
 واما اسكندر اخوها فلم يتعرف لاحد في كل زمن حياته ولم يكشف
 لامرء انه ابن ملك . وبعد موته تراءى لراهب كان مبتلياً بدملة ردية في
 صدره اذ كان قد جاء الراهب يوماً الى قبر الشاب القديس ليصلي .
 فظهر له القديس مجدداً منيراً كالشمس مكللاً باكليل بهي وقابضاً على
 اكليل اخر في يمينه . وحينئذ اخبر ذلك الراهب بسيرته وعرفه بحاله وقال له
 ابن من هو . فساله الراهب ما هذان الاكليلان . فقال له القديس
 ان الاكليل الذي في يدي هو الاجر الخاص الذي نلتته لاجل تركي
 اكليل مملكة ابي والاكليل الذي على رأسي هو الاجر المعتاد ان يعطى
 للقديسين في السماء ولكي تحقق هذه الرؤيا . فما انك تجد جسدك برياً
 من الداء الذي يؤلمك . فانته الراهب ورأى انه قد شفي بالكلية . فاخبر

الاخوة بما كان فشكروا جود الله الذي يكلل بالمجد من اختار الاحتقار
اكراماً لاسمه القدوس

الفصل التاسع

في ان محبة الله تقتضي ان نصدّ انفسنا عن محبة الاشياء الارضية
اننا قد أوردنا حججاً وادلة كافية لان تحملنا على احتقار كل الاشياء
الزمنية والاقلاع عن حبها. وذلك لانها حقيرة ذاتاً وعابرة وقابلة للتغير
ودنية وخطرة ولان سيدنا يسوع المسيح مخلصنا كثيراً ما تجشم من الاتعاب
والمشقات لكي يعلنا هذا الاحتقار والان نختم هذا الكتاب بدليل اخر
وحجة اخرى توجب ذلك فنقول : انه لو كانت الاشياء الزمنية أهلاً
بذاتها لبعض الاعتبار لم يجوز لنا مع ذلك ان نحبها البتة . وذلك لان
الترامنا بمحبة الله لعظيم جداً حتى لا يجوز لنا ان نميل بقلبنا الى محبة شيء
اخر سواه . ولما لم يكن بين المحج التي تلتزمنا بحبته تعالى حجة واحدة
الا وتلتزمنا بان نحبه من كل قلوبنا . كانت المحج التي تلتزمنا بذلك لا
يحصى عددها . فالذي اذا نحن ملتزمون به . فقد كان النبي والملك
داود يهتف قائلاً . بيم أكفى الرب عن كل ما اعطانيه (مز ١١٥ : ١٢) .
وهذا انما كان علة اهتمامه على الدوام . مع ان الله لم يعطه جسد ابنه
الوحيد ودمه الا قدسين ولم يكن تجسد ومات من اجله . فحن الذين
صنع الله هذا الاجلنا فيضطرنا الامر بالاحرى الى ان نفتكر ونهتم دائماً في
ان نكافئه تعالى ما استطعنا اليه سبيلاً عن مراحمه هذه الفائقة كل وصف

وادراك

اعلم ان المحبة قائمة بالعمل والصبر واشتراك الخيرات . فانظر اذا
اولاً الى افراط محبة خالقك لك واستدل على عظمتها من عظمة ما فعله
لاجلك . اعني به تجسده الالهي وفدأك . انظر ما يصنعه لاجلك في جميع
الخلائق . تأمل كيف يعطي الوجود للعناصر والحياة النامية للنبات
والاشجار والحياة الحاسية للحيونات والحياة العاقلة للملكة وهذه كلها
التي يعملها الله بخلائق جزيلة العدد والشرف فانه تعالى يصنعها فيك
وحدك . لانه يحفظ وجودك وحياتك وحواسك وفهمك كذلك يصنع
بك وحدك كل ما يفعله لثوبتية المخلوقات . فحقاً ان الله اثبت لنا محبته
بالفعل على نوع عجيب جداً من حيث انه صنع عظام مذهلة من اجل
من كان يستحق ان يزول ويتلاشى . لاحظ ثانياً محبته تعالى لك في
صبره وطول اناته . لانه لاجلك احتمل الاماً وموتاً لامثيل لاجعها
وبمثله يعاملك سبحانه في احتمال خطاياك . فان كانت المحبة تعرف
بالصبر فما أعظم ما تكون المحبة المقترنة بهذا الصبر العجيب . فلم يسمع قط
مثلاً ان ملكاً ضربه احد عبيده بسيف وبالغ في ضربه ولم يبال الملك
بمثل ذلك بل لم يزل يحسن الى عبده هذا ويعنيه بهبات وافرة فلو
اتفق ذلك فمن لم يكن يتعجب منذهلاً من محبة هذا الملك . بل من ذا
الذي لم يكن يظن به انه أوفك وأسحر . فيا لتفان صبر الله تعالى لانه
بعد ان صلبناه بأثامنا الف مرة يحتملنا صابراً ويحسن الينا منعماً . تأمل ثالثاً

محبتة سبحانه اذ يشركنا في جميع خيراتِه لان الاب الازلي اعطانا ابنه الحبيب
والابن منحنا لحمه ودمه وارسل كلاهما الينا الروح القدس الذي يصيرنا
بواسطة نعمته شركاء الطبيعة الالهية . فانظر الان هل يمكن ان يوجد او
يتصور حب يوازي حب الله لنا الذي يشركنا في كل ماله . فان كانت
الحبة تسكافاً بالحبة وتقابل بالحب . فباية محبة يجب ان نكافى هذه
الحبة

واذا تأملت بعد ذلك بهاء الله وجماله الغير المتناهي فترى انه تعالى
اهل لان يجب حباً غير متناهٍ ولما كان أهلاً بمحبة غير متناهية لزمن ان
نحبه بمحبة غير متناهية . ومن ثم لو كان قلبنا صالحاً لان يجب حباً غير
محدود لكان يجب ان يفرغ كل قوته الغير المحدودة في حب هذا
الموضوع الكامل المحبوب على نوع غير محدود . والحال ان قلبنا محدود
وضيق جداً فكيف اذا نخصص جزءاً منه لشيء ما ارضي . ولعمري ان
الجود الالهي يجب له الحب الجزيل حتى كان يجب ان نهمل حب
ذاتنا لكي يزداد حبنا لله التهاناً . فان كان اذا لا يجب ان نحب ذواتنا
فكيف يجب ان نلتفت الى حب الاشياء الارضية . فيا ايها الاله الغير
المتناهي جلال عظمتِه . ما اكثر ما تسرّ وتبهج نفسي بانك جزيل
الصلاح وفائق البهاء والكمال بل مصدر كل خير وعلّة كل كمال وبهاء .
فيجب ان تكون محبتي لك مجردة لا من الخلائق فقط بل من ذاتي ايضاً
وذلك لكي اضع ذاتي فيك انت الذي منه استمددت كل وجودي

وكما لي كما يستمد الشعاع صدوره من الشمس والماء من الينابيع ولهذا اذا
ما اعتمد الانسان على ذاته يسقط وبجبه نفسه يهلكها . اما بتجرده عن
ذاته وبيعضه اياها فانه يُرجمها ويخلصها كما قيل في الانجيل المقدس
ومن ذلك ينتج انه يجب على الانسان ان يلاحظ نفسه لا كشيء
مختص به بل كشيء متعلق ومختص بكليته نظراً الى الوجود الروحي
والجسدي بالله وحده البجر العظيم الذي هو متحد كل وجود وكما .
ومن ذلك ينتج ايضاً انه يجب ان يكون روحنا محرراً معتوقاً غير مرتبط
بشيء ليستطيع ان يرتقي الى الله بكل قوة نيته وحبه اذ لا يجد شيئاً آخر
يستحق ان يحبه . ويجد فيه تعالى كل ما وجد من الخير في الخلائق بل
وأفضل من ذلك بغير قياس . فاذا ما بلغ الانسان الى هذه الحال فانه
وان خالفت افعاله فتكون نيته وقصده واحداً لا غير ولا بد من ان يبلغ
مراده هذا دائماً وهو ان يرضي الله وحده . ولما كان من يبلغون هذا
المبلغ لا يفتكرون الا في ان يتموا مشيئة الله على الارض بالكمال الذي
به تتم في السماء غدوا لا يرغبون شيئاً اخر سوى ان يخرجوا من هذه
الارض ويلجوا السماء لكي ينجوا من النقائص التي تصدر منهم على
الارض في تكميل ارادة الله . ولهذا حينما يدعوهم الله لا يجدون شيئاً
يصدهم او يعيقهم عن فتح الباب لمن يقرع . فلتنجهدن نحن ايضاً في البلوغ
الى هذه الحال مجردين محبتنا من كل شيء زمي لنلصقها بخالقنا محبينه
حباً قوياً شأنه ان يجعلنا ان نحتمل اثقل الاحمال ونتصر على اشد

الصعوبات وزذل اشهي الارضيات افضل من ان تنفصل عن محبته
 تعالى ونخالف او امره ونأسي اليه بادنى شيء . فلتكن اذاً محبتنا قوية
 كالموت فلا تفر منه بل تمضي الى لقائه حباً بالمحجوب منا وليكن لهيها
 مضطراً جداً حتى لا تستطيع جميع مياه التجارب الشديدة ان تطفيه بل
 تزيدهُ اضطراباً

وهذه المحبة القوية من شأنها ان تبعثنا على حب الفقر والارتياح
 الى الجوع والعري وافراط الحر والبرد واحتمال الافتراء
 والاهانة بحلم ودعة والصبر على الامراض والاضطهادات
 والتجارب واسعاف القريب في ضرورته . وألاً نشتمأز من
 اخلاقه ولا نتمرر من تغافله عنا وعدم وفائه وفي حال
 القیظ الروحي لانهمل شيئاً من رياضاتنا الاعتيادية
 لكي يمكننا ان نقول مع الرسول . ما الذي يمكنهُ
 ان يفصلنا عن حب المسيح (رو ٨ : ٣٥) .
 اللهم انزل علينا نعمتك لنقوم بذلك باستحقاقات
 ابنك لك العزة والكرامة والمجد الى
 ابد الابدين آمين

فهرس الكتاب المقالة الاولى

في التمييز ما بين الزمني والابدئي وهي ثلاثة عشر فصلاً

٠١٠	في الزمني والابدئي	الفصل الاول
٠١٥	في ان التأمل في الابدية جزيل الفاعلية لتغيير السيرة واصلاحها	الفصل الثاني
٠١٨	في ان ذكر الابدية يوثق في الانسان اكثر من ذكر الموت	الفصل الثالث
٠٢٥	في عظم شقاء حال الانسان المتناسي الابدية	الفصل الرابع
	في ماهية الابدية على حسب ما قال فيها القديس غريغوريوس النزينزي	الفصل الخامس
٠٣٣	والقديس ديونيسيوس الاريوباجي	
٠٣٦	في ماهية الابدية على رأي بوليسيوس الفيلسوف المسيحي وبلوتينوس	الفصل السادس
٠٣٩	في ايراد ماهية الابدية على حسب تعليم القديس برنردوس	الفصل السابع
٠٤٥	في ان الابدية عديمة النهاية	الفصل الثامن
٠٥٥	في ان الابدية عديمة التغيير	الفصل التاسع
٠٦١	في ان الابدية لا مثيل لها ولا شبيه	الفصل العاشر
	في ان الابدية لا مثيل لها ولا شبيه	
	عشر في ماهية الزمن على رأي أريسطوتاليس وغيره من الفلاسفة وفي سرهته	الفصل الحادي عشر
٠٦٥	تغير هذه الحياة وزوالها	
٠٦٨	في ان قصر هذه الحياة يصير كل شيء زمني اهلاً بالاحتقار	الفصل الثاني عشر
٠٧٢	في ان الزمن هو فرصة الابدية	الفصل الثالث عشر

المقالة الثانية

في ما بين الزمني والابدئي من الفرق بالنظر الى ختاية الحياة الزمنية والزمن

مطلقاً وهي تسعة فصول

٠٨٢	في ختاية الحياة الزمنية	الفصل الاول
٠٩٥	في صفات ختاية الحياة الزمنية	الفصل الثاني
	في الدقيقة التي بين الزمن والابدية وفي ان هذه الدقيقة مخيفة جداً لانه	الفصل الثالث
١٠٦	جاءت تنبي حياتنا	
١١٠	في السبب الذي من اجله يكون انتهاء الحياة الزمنية مخيفاً	الفصل الرابع
١٢٩	في ان الله يحكم بصرامة شديدة في هذه الحياة ايضاً	الفصل الخامس

١٣٤	في أنقضاء كل زمن	الفصل السادس
١٣٦	في كيف تتغير العناصر والسماء عند انتهاء الزمن	الفصل السابع
١٤٧	في السبب الذي من أجله يجب ان ينتهي العالم على نوع مرعب هكذا	الفصل الثامن
١٤٩	ثم تصير الدينونة العامة	في آخر يوم من الزمن
		الفصل التاسع

المقالة الثالثة

	في ما بين الزمني والابدي من الفرق من حيث تغير الامور الزمنية ودناءتها	
	ومخاطرتها وهي عشرة فصول	
١٦٠	في ان تغير الاشياء الزمنية يجعلها أهلاً للازدرأء والاحتقار	الفصل الاول
١٦٧	في ان البلايا الزمنية وان كانت عظيمة تخفُّ برجاء نهايتها	الفصل الثاني
١٧٠	في انه يجب على الانسان ان يتروى عواقب ما يمكن ان يكون عليه من الاحوال	الفصل الثالث
١٧٥	في ان تغير الاشياء الزمنية يرينا جلياً بطلانها وفي كم يجب علينا ان نحتقرها	الفصل الرابع
١٧٦	في دناءة الاشياء الزمنية واختلالها عن النظام وفي ان الذين يجوبونها يعدلون عن محبة العدل	الفصل الخامس
١٨٢	في كم تكون الاشياء الزمنية يسيرة قصيرة	الفصل السادس
١٨٩	في عظم شقاء الحياة الزمنية	الفصل السابع
١٩٩	في ان الانسان دني لكونه زمنياً	الفصل الثامن
٢٠١	في ان الاشياء الزمنية ختالة خداعة	الفصل التاسع
٢٠٣	في اخطار الاشياء الزمنية وضررها	الفصل العاشر

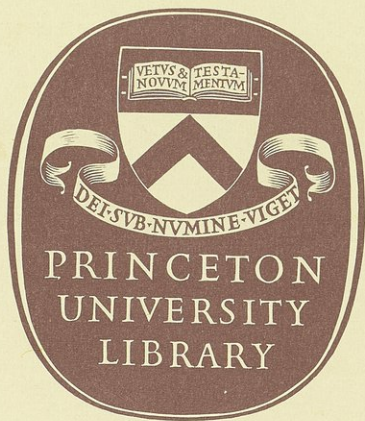
المقالة الرابعة

	في الفرق بين الزمني والابدي من حيث عظمة الخيرات والشرور	
	الابدية وهي اثنا عشر فصلاً	
٢٠٨	في عظمة الاشياء الابدية	الفصل الاول
٢١٣	في عظمة شرف القديسين واکرامهم الابدي	الفصل الثاني
٢١٧	في غنى السماء وملكته الابدي	الفصل الثالث
٢٢٠	في عظمة الافراح الدائمة	الفصل الرابع
٢٢٤	في شرف أجساد القديسين وكما لها في الحياة الابدية	الفصل الخامس

	الفصل السادس في وجوب طلب الملكوت السموي وتفضيله على جميع الخيرات الارضية	
٢٢٨		
٢٣١	في الشرور الابدية وعلى الخصوص في فقر الهاكئين وطارهم	الفصل السابع
٢٣٦	في عذابي الهاكئين الثالث والرابع وهما النبي من السماء والسجين في الحجيم	الفصل الثامن
	في عذابي الهاكئين الخامس والسادس وهما عذاب الاسر وعذاب الجلد في الحجيم	الفصل التاسع
٢٤٢		
	في عذابي الهاكئين السابع والثامن وهما الموت الابدی والعذاب المعادل	الفصل العاشر
٢٥٥		الذنب
٢٥٩	الفصل الحادي عشر في الفوائد الناشئة عن التأمل بالعذابات الابدية	
	الفصل الثاني عشر في عظم شر الخطيئة المحيطة الغير المتناهي الذي يعزلنا عن نعيم السماء الابدی	
٢٦٣	الى عذاب جهنم السرمدی	

المقالة الخامسة

	في ما بين الزمني والابدی من الفرق من حيث الوسائل التي بمننا الله تعالى لآكتساب الخيرات الابدية والنموذجات التي قدمها لنا لاحتقار الاشياء الزمنية وهي تسعة فصول	
	في ما بين الابدی والزمني من الفرق من حيث ان الابدی هو الغاية والزمني هو الوساطة الموصلة اليها وفي الغاية القصوى التي خلق الانسان لاجلها	الفصل الاول
٢٧٥	في ان الانسان بمعرفة ذاته يقدر ان يعرف كيف يجب عليه ان يستعمل الاشياء الزمنية الحقيقية بالازدراء	الفصل الثاني
٢٨٢		
٢٨٥	في ان تجسد ابن الله يوضح لنا كم يجب ان نعتبر الاشياء الابدية	الفصل الثالث
٢٨٩	في ان دناءة الاشياء الزمنية تتضح لنا من الام سيدنا يسوع المسيح وموته	الفصل الرابع
	في ان الابدی جزيل الاعتبار من حيث ان الله اراد ان يكون الوساطة لربحه ورسم سر جسده ودمه الاطهرين عربوناً عن ذلك	الفصل الخامس
٢٩٥		
٣٠١	في انه ينبغي ان نلتصق في صلواتنا الخيرات الابدية	الفصل السادس
	في ان الذين مجدوا الخيرات الزمنية ليربحوا الخيرات الابدية لفي مكانة من الغبطة وعلى جانب عظيم من السعادة	الفصل السابع
٣٠٤		
٣٠٧	في ان كثيرين احتقروا الاشياء الزمنية كلها ومجدوها	الفصل الثامن
٣١٤	في ان محبة الله تقتضي ان تصدّ أنفسنا عن محبة الاشياء الارضية	الفصل التاسع



Princeton University Library



32101 076415700